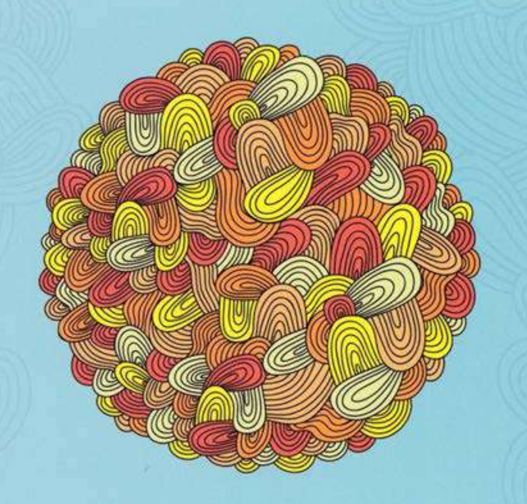


جوزيه ماورو

هيّا نوقظ الشمس

ثلاثية زيزا - الجزء الثاني

ترجمة: أشرف القرقني



لـ قيس

هيّا نوقظ الشمس



عنوان الكتاب الأصليّ

José Mauro de Vasconcelos

Vamos Aquecer o Sol

تمّت هذه الترجمة عن النصّ الفرنسيّ

José Mauro de Vasconcelos

Allons réveiller le soleil

جوزيه ماورو

مكتبة | 658
سُر مَن قرأ

هيّا نوقظ الشمس

ثلاثية زيزا - الجزء الثاني

ترجمة: أشرف القرقني





الكاتب: **جوزيه ماورو دي فاسكونسيلوس**

عنوان الكتاب: **هيّا نوقظ الشمس**

ترجمة: **أشرف القرقني**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-148-8**

الطبعة الأولى: 2021



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: **21512226(216+)** أو **93794788(216+)**

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

إلى د. أنطونياتّا رودج

سيسيليو ماتاراتزو

لويزينيو بيتزيرا

وفاغنر فيليبي دي سوزا فايديباخ

«الصّديق العظيم»

وكذلك إلى جواكيم كارلوس دي ميلو

«ليست روابط الدّم وحدها ما يؤسّس القرابة،
وإنّما روابط القلب والذّكاء أيضًا».

مونتيسكيو

الجزء الأوّل

أنا وموريس

(1)
التّحوّل

فجأةً، لم تعد عيناي في الظّلمة. وثب قلبي ذو الأحد عشر عامًا من الخوف في صدري.

- يسوعي الصّغير، يا صاحب الحمَل على الكتفين، احمِني يا سيّدي!

كان النّور يسطعُ، شيئًا فشيئًا. وكلّما توهّج أكثر ازداد خوفي، حتّى إنّني لو أردتُ أن أصرخ لما استطعتُ ذلك.

كان الجميعُ نائمين في سَكينة، وكلّ الغرف المغلقة تتنفّسُ الصّمت.

جلستُ في سريري، ظهري مُسْنَدٌ إلى الحائط وأنا أحدّق في ما حولي بعينين جاحظتيْن توشكان على الخروج من محجريهما.

وددتُ لو صلّيتُ وتضرّعتُ باسم كلّ قدّيسيّ الحامين[1]. ولكن، حتّى اسم نوتردام دو لورد[2] لم يخرج من فمي. لا شكّ

---

(1) ترتبط هذه اللّفظة بمفهوم القدّيس الشّفيع الذي يتركّز أساسا في التّقليدين الكاثوليكيّ والأرثوذكسيّ المسيحيّين. والذي يشير إلى مجموعة القدّيسين القادرين على حماية أمكنة أو مجموعة أشخاص بعينها يكونون بالنّسبة إليهم بمنزلة الملاك الحارس.

(2) نوتردام دو لورد هو الاسم الذي يعينّ به شطر من الكاثوليكيّين مريم العذراء في تجلّيها للقدّيسة برناديت داخل مغارة لورد.

أنّه الشّيطان، الشّيطان الذي أُهدَّدُ به طيلة الوقت. ولكن، لو كان هو حقًّا لاختلف النّور عن لون المصباح وصار بلون النّار والدّم، ولكانت هناك دون شكّ رائحة كبريت. لم أستطع حتّى أن أطلب النّجدة من الأخ فيليسيانو، عزيزي فايول. ينبغي على فايول أن يكون في مثل تلك السّاعة غارقًا في النّوم، يشخر مثل شخص سعيد، هناك في إعداديّة المريميّين.

سمعتُ صوتًا صغيرًا ناعمًا:

– لا تخف يا صغيري. لقد جئتُ لأساعدك.

صار قلبي يخفُق الآن إزاء الحائط. ونجح صوتي في الخروج، واهنًا ومرتجفًا مثل الغناء الأوّل لديكٍ يافع.

– من أنت؟ روح من العالم الآخر؟

– لا يا غبيّ.

ودوّت ضحكة لطيفة في الغرفة.

– سأصنع المزيد من النّور. ولكن، لا تقلق. لن يحدث أيّ شيء سيّء.

أجيب بـ «نعم» متلعثمة. ولكنّني أغمضُ عينيّ.

– ليس الأمر لعبة يا صديقي. يمكنك أن تفتحهما.

أجازف بفتح عين، ومن ثمّ الأخرى. كانت الغرفة مُضاءةً بنورٍ جميلٍ جدًّا، حتّى إنّني حسبتُني ميّتًا وقد بُعثتُ في الجنّة. ولكنّ هذا الأمر مستحيل. إذ يقول كلّ من في البيت إنّ السّماء ليست لمن هو مثلي. فمن هو مثلي يتّجه رأسًا إلى أفران الجحيم، حتّى يُصلى هناك.

- انظُرْ إليّ. صحيح أنّني قبيح. لكنّ بإمكانك أن تقرأ الثّقة في عينيّ.

- أين أنت؟

- هنا، عند سفح السّرير.

اقتربتُ من الحافّة. وتسلّحتُ بالشّجاعة كي أنظر. وقد ملأني ما رأيتُه بالذّعر. كنتُ مروَّعًا إلى درجة أنّ رجفة قويّة هزّتني من رأسي حتّى قدميّ، مثل سَحّاب. استعدتُ مرتعشًا وضعي الأوّل.

- لا تفعل هذا يا صغيري. أعرف أنّني قبيحٌ جدًّا. ولكن إذا خفت منّي إلى هذه الدّرجة مُجدّدًا، فإنّني سأذهبُ دون أن أساعدك.

أصبح صوتهُ متوسّلًا. ثمّ توصّلتُ إلى السّيطرة على نفسي. ولكن، من دون استعجال، سحبتُ نفسي إلى جانبه.

- لِمَ كلّ هذا الخوف؟

- ولكنّكَ عُلجوم!

- نعم. وماذا في ذلك؟

- ولكن، ألم يكن بإمكانك أن تكون شيئًا آخر؟

- أتقصدُ ثعبانًا مثلًا؟ أو تمساحًا؟

- كنتُ لأفضّل ذلك، لأنّ الثّعابين جميلة. وهي ملساء. أمّا التّماسيح فهي جميلة جدًّا عندما تسبح.

- المعذرة، ولكنّني لستُ سوى عُلجوم[1] مسكين، صديقك أنت. وإذا كان هذا لا يُعجبك، فسأرحل. ومع ذلك، فإنّني أقولها مجدّدا: الأمر مؤسف.

كان العلجوم الضّخم المرقّط حزينًا جدًّا ومتأثّرًا إلى درجةٍ يوشك معها أن يبكي. وقد لِنتُ بسبب ذلك. فأنا حسّاسٌ جدًّا. وعندما أرى شخصًا يبكي أو يعاني، فإنّ عينيّ تمتلئان فورًا بالدّموع.

- حسنًا. ولكن، امنحني مهلة. وسيكون الأمر على ما يُرام. سأشرع في التّعوّد عليك.

وفعلًا، آل الحال إلى خلافه. وتغيّر موقفي، ربّما بسبب لمعان عينيه النّاعم وجمود جسمه الفظيع. جازفتُ بتلفّظ جملة تعاطف. وقد خرجت من فمي مُلعثَمة. دفعني شيء مّا إلى مخاطبته بنبرة الاحترام.

- ما اسمكم؟

ابتسم. ولا شكّ أنّ ضمير الـ«أنتم» هذا قد أدهشه. ولكن، لا يلتقي المرء كلّ يوم عُلجومًا يتكلّم. هذا يفرض عليّ الاحترام.

حكّ رأسه قليلًا. وأجابني:

- آدم.

- آدم ماذا؟

---

(1) يشير الكاتب إلى نوع معيّن من العلاجيم، وهو العلجوم كورورو أو الشنايدريّ نسبة إلى مصنّفه.

- آدم فحسب. ليس لديّ لقب عائليّ.

شعرتُ بالانفعال والتّأثّر مُجدّدًا. ولكنْ لِمَ يجدر بي، بحقّ الشّيطان، أن أتأثّر لحال علجوم؟

- ألا تريد أن تحمل لقبي؟ لا يقلقني ذلك. انظر كم هو جميل: آدم دي فاسكونسيلوس.

- شكرًا يا صديقي. سأسكنُ بشكلٍ أو بآخر قريبًا جدًّا منك، حتّى إنّني سأستفيد على نحو غير مباشر من لقبك العائليّ.

- هل سمعتُ حقًّا ما قاله للتّوّ؟ سيسكن معي؟ يا ربّ السّماوات، يا سيّدتنا! إذا لمحتهُ أمّي المتبنّيةُ لي داخل غرفتي، فإنّها ستطلق صرخة تمتدّ مدوّية حتّى شاطئ بونتا نيغرا. ثمّ ستنادي إزاورا بمكنستها لتدفعه حتّى أسفل الدّرج. وبما أنّ ذلك غير كاف، فإنّ إزاورا ستمسك آدم من قوائمه الصّغيرة وتلقي به من فوق كاتدرائيّة بيتروبوليس.

- إنّني أخمّنُ ما تفكّر فيه. اطمئنّ، ليس هناك خطر في الأمر.

- هذا أفضل.

- وأنت؟ كيف يجدر بي أن أناديك؟ زيزا؟

- أرجوك، زيزا لم يعد موجودا. إنّه ولد الأيّام الخوالي، الصّغير الأحمق. لقد كان ذلك اسم صبيّ الشّوارع... أمّا الآن، فقد تغيّرتُ كثيرًا. أصبحتُ طفلًا مهذّبًا ذا تربية حسنة...

- وحزينًا، حزينًا بالأخصّ. قد تكون واحدًا من أحزن الأطفال في العالم. أليس كذلك؟

- أعرف.

- هل تريد أن تصير زيزا من جديد؟

- لا شيء يعود في الحياة إلى سابق عهده. من جهة مّا، أحبّ أن يحدث ذلك. ومن جهة أخرى، لا أريد. سئمتُ أن أتعرّض للضّرب والجوع...

أتذكّر ذلك الألم القديم الذي يرغب دومًا في اللّحاق بي. هل أكون زيزا من جديد وأملك جذع برتقال حلو، وأفقد البرتغاليّ مرّةً أخرى؟...

- اعترف بالحقيقة. كنتَ تملك في تلك الأيّام شيئًا لم تعد تشعر به منذ زمن بعيد. إنّه الحنان.

أومأت برأسي موافقًا في إحباط.

- لم تفقد كلّ شيء بعد. مازلتَ تملك الحنان إزاء الأشياء، وإلاّ لما كنتَ بصدد الثّرثرة معي الآن.

توقّف قليلًا. ثمّ أضاف بجدّيّةٍ أكبر:

- اسمعني زيزا. أنا هنا خصّيصًا لهذا الأمر. جئتُ لأساعدك. سأساعدكَ لتدافع عن نفسك ضدّ كلّ شيء في الحياة. ولن تعاني بهذا الشّكل من كونك طفلًا وحيدًا... سأساعدك أيضًا على تعلّم البيانو.

كيف اكتشف آدم أنّني أتعلّم العزف على البيانو؟ وأنّ ذلك من أشدّ الصّعوبات التي أواجهها في حياتي؟

- إنّني أعرف كلّ شيء، زيزا. لقد جئتُ من أجل هذا. سأسكنُ قلبك وأحميك. إنّك لا تُصدّقني. أليس كذلك؟

- بلى. إنّي أصدّقك. فقد كان عندي في ما مضى عصفور في صدري، يغنّي معي أجمل الأشياء في العالم.

- وأين هو؟

- لقد طار بعيدًا. ورحل.

- هذا يعني إذن أنّ لديك مكانًا فارغًا تُخبّئني فيه.

تشوّشت الأفكار في رأسي. ولم أعد متيقّنًا ما إذا كنتُ أحلم أم أنّني أشهدُ معجزة. لقد كنتُ نحيفًا جدًّا ولي صدرٌ أجوفُ بضلوع تشبه أطواق الكروكيت. فكيف له أن يسع علجومًا ضخمًا كهذا؟ ومرّةً أخرى، خمّن كلّ أفكاري.

- سأنقلبُ صغيرًا جدًّا في قلبك. فلا تخف. لن تشعر بأيّ شيء.

وإذ لاحظ تردّدي، طفق يشرح لي بالتفصيل:

- اسمعني يا زيزا. إذا قبلتَ بي معك، فسوف يتيسّر كلّ شيء بالنّسبة إليك. أريد أن ألقّنك حياة جديدة، وأعلّمك كيف تحمي نفسك من كلّ ما هو سيّء وكيف تكنسُ شيئًا فشيئًا حجاب الحزن هذا الذي يلاحقك أينما ذهبت. ستكتشف أنّك لن تعاني بهذا الشّكل حتّى حين تكون وحيدًا.

- هل الأمر ضروريّ حقًّا؟

- إنّه كذلك كي لا تتقدّم وحيدًا في نهر أيّامك. فعندما أسكن قلبك، سينفتح أفقٌ جديدٌ أمامك. وستلاحظ تحوّلًا في حياتك.

- تحوّل؟ ما معنى ذلك؟

- إنّه تغيير وتبدّل.

- فهمت عنك.

لقد فهمت في الحقيقة شيئًا آخر، وهو أنّني لم أعد خائفًا أو مروّعًا من العلجوم. بل إنّني شعرتُ بأنّنا صديقان منذ قرنين.

- وماذا يحدث إذا وافقت؟

- ستوافق.

- ماذا يجدر بي أن أفعل حينئذ؟

أنت؟ لا شيء. أنا الذي سيفعل كلّ شيء. عليك فقط أن تتحلّى بكثير من الشّجاعة والإرادة حتّى تسمح لي بالنّفاذ إلى صدرك.

لقد تملّكت الرّجفة جسدي كلّه، كأنّ تيّارًا كهربائيًّا دغدغ قدميّ من الأسفل.

- عبر الفم؟

- لا أيّها الأحمق. لن يكون هناك متّسع على أيّة حال.

- كيف إذن؟

- تغمض عينك. فأستلقي على صدرك، وأظلّ أنفذ، أنفذ...

- ولن يؤلمني ذلك؟

- مُطْلَقًا. سأُطْبِق على عينيك نعاسًا ثقيلًا.

كنتُ أصارع خوفي، وأنا أحسّ على جلدي برودة بطنه اللّزج. وواصل آدم قراءةَ أفكاري.

- هبني يدك.

استجبتُ له، والعرق البارد ينزّ من جبيني.

- ستشعر أنّ يدي ناعمة هي الأخرى.

حدثت معجزة حينئذ. فقد كبرت يد العلجوم كورورو وصارت بحجم يدي. وكانت مفعمةً بدفءٍ ودّيٍّ وحنون.

- أرأيت؟

- تفحّصتُ بأصابعي كفّه كلّها. وشعرتُ بالحيرة تلفّني.

- أتدرسون البيانو كذلك؟

أطلق ضحكةَ ابتهاجٍ. وقال:

- لماذا؟

- لأنّ يدك خالية من أيّ خدش أو اهتراء. أنا أيضًا كذلك. لا يمكنني أن أتسلّق الأشجار أو أسلخ أصابعي. وليس مسموحًا لي حتّى أن أفرقع مفاصلي. كلّ هذا ممنوع كي لا أفسد تمارين البيانو.

تنهّدتُ مُحْبَطًا.

- أترى؟ إنّك في حاجة إليّ.

- وهل يأتي عليّ يوم أتوقّف فيه عن دراسة العزف على البيانو؟

- أتكره الموسيقى إلى هذه الدّرجة؟

- ليس الأمر أنّني أكره الموسيقى. ما أمقته حقًّا هو أن أقضي عمري جالسًا إلى هذه المفاتيح، منغمسًا في سلسلة من التّمارين والسّلالم الموسيقيّة التي لا تنتهي.

وفي تلك اللّحظة، تذكّرتُ شيئًا مّا.

- أتعرف يا آدم، إنّني أحبّ السّلّم الكروماتيكي[1] كثيرًا.

- أعرف يا زيزا.

اكتشفتُ حينئذ أنّ بيننا ألفة أكبر من أن أناديه بضمير الـ«أنتم». وانفجرنا ضحكًا في الآن ذاته.

- هل تساعدني على اعتزال تعلّم البيانو؟

- انظر يا زيزا، لا يمكنني حقًّا أن أعدك بهذا. ولكنّني قد أجد طريقة لتخفيف معاناتك أثناء ذلك.

- هذا في حدّ ذاته مكسب حقيقيّ.

ظلّ يحدّق فيّ من الأسفل بنوع من الإصرار. ثمّ نظر في سواره السّاعة، كأنّه يذكّرني بأنّ السّاعات تمرّ وأنّ الوقت قد ينفد.

لم يعد بمقدوري التّردّد. فمجرّد تجنّبي للسّأم أثناء دروس البيانو قد عجّل بقراري.

- ماذا يجدر بي أن أفعل؟

---

(1) سلّم موسيقيّ يتكوّن من اثنتي عشرة نغمة. ويفصل بين كلّ نغمتين متتابعتين نصف بعد. وتتوزّع أنصاف الأبعاد هذه بشكل متساو على البيانو الحديث.

- افتح سترة منامتك. ولا تخف.

- لن أخاف.

- عليك الآن أن تساعدني. ألق بطرف الإزار على الأرضيّة. واحملني.

نجح الأمر. وأصبح آدم الآن قريبًا جدًّا منّي. وإزاء النّور، لاحت عيناه بزرقة السّماء حين تكون السّماء متوهّجة الزّرقة. ولم أعد أجده قبيحًا أو منفّرًا.

- أريد منك أن تخبرني الحقيقة. هل سيؤلمني الأمر؟

- مُطْلَقًا.

- ولكنّك لن تأكل قلبي؟ أليس كذلك؟

- بلى، ولكن برفق شديد، كأنّني أمضغ سحابة.

- وماذا لو صوّرني أبي ذات يوم بالأشعّة؟

- لن يكتشف أحد أيّ شيء، لأنّني سوف أصبح مع مرور الوقت قلبًا له نفس شكل قلبك القديم.

- أريد أن أرى كلّ شيء.

- ألا تفضّل أن تكون نائمًا؟

- لا. سأسند ظهري إلى الحائط وأنحني قليلًا حتّى أتابع ما يحدث بشكلٍ جيّد.

- إذن، سأجعلك تسمع موسيقى جميلة جدًّا.

- هل يمكنني أن أختار؟

- نعم، يمكنك ذلك.

- أريد أن أستمع إلى *سرينادة* شوبرت[1] و*حلم يقظة* لشومان[2].

- على البيانو؟

- نعم.

مسّح آدم بيده على شعري. وابتسم.

- زيزا! زيزا! اعترف أنّك لا تكره البيانو إلى هذا الحدّ...

- نعم، في بعض الأحيان أجده جميلًا.

- هل نذهب؟

- فلنذهب.

انعزفت في المكان موسيقى جميلة. واستلقى آدم على صدري. وكان كلّ شيء ناعمًا مثل النّسيم.

- إلى اللّقاء.

رأيتهُ، وهو يضغط فمه على صدري ويشرع في النّفاذ إلى الدّاخل. حقًّا، لم يكذب آدم. إذ لم تؤلمني العمليّة. وقد انتهت سريعًا. خلال لحظات قليلة، كانت قوائمه الصّغيرة بصدد الاختفاء في لحمي. ثمّ مرّرت يدي. وكانت البقعة ملساء تمامًا. ومع ذلك، كان قلبي ينبض في قلق.

انتظرتُ لوهلة. ثمّ قلت:

---

(1) فرانتز شوبرت (1797-1828)، مؤلّف موسيقيّ نمساويّ شهير.

(2) روبرت شومان (1810-1856)، مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو ألمانيّ.

- آدم، هل أنت هنا؟

- أنا هنا زيزا.

- هل أكلتَ قلبي وقُضي الأمر؟

- إنّني آكله الآن. لكنّني لا أستطيع التّحدّث بفمٍ ممتلئ. انتظرْ قليلًا، أرجوك!

أستجيب لطلبه، متلهّيًا بإحصاء أصابعي. سيكون الأمر رائعًا. ولا أحد يمكنه اكتشاف أنّني لا أملك قلبًا مثل الجميع، باستثناء عُلجوم كورورو، صديقي.

- هل تمّ الأمر؟

- نعم. ولقد كان لذيذًا. عليك الآن أن تنام. وسيكون الغد نهارًا جديدًا.

أنسحبُ مفعمًا بالسّعادة. وأرفع الغطاء من جديد كي أدفئ صدري وقلبي الذي ظلّ ينبضُ بانتظام وبلا خوف.

وفجأةً، انتفضتُ وجلستُ على السّرير.

- ماذا هناك زيزا؟

- لقد نسيتَ أن تطفئ النّور.

- سأعلّمك كيف يكون الأمر. املأ خدّيك بالهواء. ثمّ انفخ بقوّة.

استجبتُ لطلبه. فغلّفت الظّلمة من جديد كلّ ما في غرفتي. ثمّ حطّ النّعاس على عينيّ. وأغمضتُ جفنيّ بتثاقل. وظللتُ أبتسم.

- آدم، هل أنت نائم؟

- لا، لماذا؟

- شكرًا لكلّ شيء. ويمكنك أن تناديني زيزا دومًا، حتّى حين أصبح رجلًا. يمكنك ذلك. وهذا يفرحني. هل نحن متّفقان؟

جاءت الإجابة بعيدةً، بعيدةً جدًّا، حتّى إنّني سمعتُها بصعوبة:

- نم يا صغيري! نم! فالطّفولةُ في غاية الجمال.

(2)
بول لويس فايول

طرقت دادادا باب غرفتي. وبما أنّني لم أجب، فقد أدارت المقبض بيدها القاسية. وفتحته. تفاجأت في البداية لسماعها آهاتي. لكنّها لم تحملها مَحْمَلَ الجِدّ.

- قف يا ولدي! حان وقت المدرسة. هل ستظلّ نائمًا طيلة اليوم؟

ولأنّ تأوّهي ظلّ مُسترسلًا، اقتربت من السّرير. واندهشت لخدَري. إذ لم أكن يومًا واحدًا من أولئك الأطفال الكسالى. وحين ينبغي عليّ أن أستيقظ، هووب! أكون واقفًا.

دنت دادادا من السّرير أكثر. وشعرت بالقلق حين لاحظت عينيّ المحتقنتين. فوضعت يدها فورًا على جبهتي. وصرخت، في فزع:

- بحقّ الدّين! يا قدّيسي فرانسوا الكانينديّ[1]! هذا الصّغير تُحرقه الحمّى.

(1) قدّيس يُنسب إلى كانيندي، وهي مدينة برازيليّة في مقاطعة سيارا.

أغلقت سترة منامتي. وسحبت الأغطية فوقي. ثمّ خرجت بسرعة بحثًا عن المساعدة. هجم النّعاسُ مجدّدًا على عينيّ. كان ضعفي شديدًا جدًّا، حتّى إنّني لم أعد أحسّ بذراعيّ. قدمت أمّي محتجّة:

- عليه أن يدبّر حيلة أخرى. إنّه يبحث عن ذريعةٍ كي لا يذهب إلى الإعداديّة وكي لا يحضر درس البيانو اليوم.

ولكنّها حين لمست جبيني، غيّرت رأيها. وأخذت تتّهم كلّ من يحيط بها. إنّهما اللّوزتان. لقد نام والنّافذة مفتوحة. فأصابته رطوبة الصّباح بالبرد. لم يكن ينقص إلاّ هذا.

كانت دادادا قد ضجّت، وانحازت إلى صفّي:

- يا للمسكين الصّغير! هذا الصبيّ مريض. إنّه هادئ دومًا ورصين. علينا أن ننتظر عودة الدّكتور من القدّاس.

وعندما رجع أبي من القدّاس، لم يتردّد في إطلاق حكمه الفصل:

- إنّه التهاب رئويّ. وهو حادّ كذلك.

وحينئذ، عمّت الفوضى بين ذهاب إلى الصّيدليّة ووخز الحُقن وأقراص الدّواء...

- إذا لم تتحسّن حالته، فإنّه من الضّروريّ أن نستخدم المحاجم.

أجبتُه متراخيًا:

- لا حاجة إلى ذلك. سينقشع المرض قريبًا.

- كيف لك أن تعرف أنّه سينقشع؟ نعم، سيكون ذلك.

- لكنّه ليس التهابًا رئويًّا. أليس كذلك؟

رفع أبي ساعديه إلى السّماء. وهتف:

- أترى هذا يا إلهي؟ يقضّي المرء حياته بين الكتب، فيما يرغب فرْخ أخرق كهذا أن يعلّم الكاهن كيفيّة آداء الصّلوات.

لقد أرعبني منظر هذه المحاجم.

- ما هذه؟ هل هي محاجم؟

- إنّها شيءٌ بسيطٌ جدًّا من أجل استخراج البلغم، شيء سيسمح للدّم بالدّوران في جسدك. هيّا! هذا يكفي. لا يمكنك فهم الأمر.

- كيف يتمّ ذلك؟

- مثلما ينبغي له أن يتمّ. ولا تطرح المزيد من الأسئلة. سترفع من درجة حرارتك وتهاجمك الحمّى من جديد.

ثمّ أشفق عليّ. وراح يشرح لي برفق أكبر:

- ليس الأمر معقّدًا. إنّنا نضعها على الصّدر ومن ثمّ على الظّهر. ويمكننا على أيّة حال استخدام فنجان قهوة بسيط. لا تخف. لن تشعر بالألم.

كنتُ أتعذّب في سرّي كلّما فكّرتُ في كورورو، هل سيتألّم؟ لا شكّ أنّه سمع كلّ شيء وصار يرتجفُ من الخوف.

- وهذه الحقنة التي تظلّ تغلي لساعات!

أوشك أن يحتجّ مُجدّدًا. فظهرت الحقنة والعلاج داخلها.

- التفِتْ إلى الجهة الأخرى. وعرِّ مؤخّرتك.

التفتُّ. وسمعت احتجاجًا آخر يسقط من فمه:

- هذا الشّقيّ الصّغير ليس سوى جلدٍ على عظم.

حينئذٍ، وبّخته أمّي قائلة:

- كفّ عن الغضب والتّجهّم. لقد عدتَ للتّوّ من القدّاس. ففيم كلّ هذا؟

رغبتُ في الضّحك، لأنّه كان دومًا على تلك الحال؛ يغضبُ لأيِّ سببٍ تافه. وتمرّ السّحابة سريعًا. ولكن، بدلًا من أن أضحك، أطلقتُ صرخةً مُدويّةً أدركَتْ لقُوّتِها أغصانَ النّخيل في الجوار.

- حسنًا، حسنًا. لقد انتهى الأمر. إنّه مؤلم حقًّا. لكن، لو أخبرتك بذلك سلَفًا، لازداد الألم.

ضاعفت رائحة الدّواء الذي تُمسّحُ به مؤخّرتي من شعوري بالغثيان.

جلس أبي بعد ذلك على حافّة السّرير. وراح يتأمّلني. لقد كان من النّادر جدًّا أن ينتبه إلى وجودي ويتيح لي النّظر إلى بشرته الملوّنة ولحيته الكثيفة والتّحديق في عينيه السّوداوين تقريبًا.

أمسكتُ يده. وكم تفاجأتُ لأنّه لم يسحبها منّي.

- لا. لستُ مُصابًا بالتهاب رئويّ.

- ماذا لديك إذن؟

- إنّه العلجوم كورورو قد أكل قلبي.

فتح عينيه على وسعهما. ومسّح من جديد على جبهتي:

- إنّه يهذي مرّةً أخرى.

وَشْوَشَ صوتٌ صغيرٌ في الأسفل. لقد كان آدم:

- أيّها الأحمق الغبيّ، ألا ترى أنّ الأشخاص البالغين لا يفقهون شيئًا؟ يمكنك أن تقول لهم أكبر الحقائق الموجودة في العالم وأهمّها. ولكنّ ذلك لن ينفع في شيء.

- المعذرة آدم.

- علامَ تعتذر؟

تفاجأ أبي.

- لا شيء، لا شيء. لا شكّ أنّني كنتُ أحلم.

- إنّك تغالي في هذيانك يا فتى. تتحدّث عن علجوم ابتلع قلبك، ومن ثمّ تناديني آدم؟!

همّ بالنّهوض. فأمسكتُ يده، دون أيّ جهد تقريبًا.

- هل سأموت؟

- أيّ حماقة هذه! سيمرّ الأمر سريعًا. وإذا لم تتحسّن عند الظّهر، سأستخدم المحاجم.

- والإعداديّة؟

- ابق هادئًا. عليك أن تمكث مرتاحًا. ليس هناك مدرسة ولا حصص بيانو، حتّى تُشفى تمامًا. سيستغرق الأمر أسبوعًا

على الأقلّ.

غادر. وبقيت بمفردي. أقصد بمفردي مع آدم الذي تجلّى لي على الفور.

- زيزا، زيزا. عليك أن تنتبه أكثر في المرّة القادمة لما تقوله. لا يمكنك أن تروي الأمر لأحد.

- لن أروي شيئًا لأيّ كان. أردتُ فقط أن أتحدّث في الأمر، لأنّني خشيتُ أن تؤلمك المحاجم.

- طبعًا، ولكنّك لا تتّخذ احتياطاتك بما يكفي.

غالبني النّعاسُ مُجدَّدًا. فأحضروا لي قهوة بالحليب إلى السّرير. لكنّني شربتُها مرغمًا. وقد مكثتُ جامدًا كأنّي غائبٌ عن العالم.

- آدم!

- ماذا هناك؟ لا تناديني من أجل أيِّ شيءٍ تافه. ألم تسمع ما قاله أبوك؟ عليك أن ترتاح، وحالما تُشفى ستبدأ معي حياةً جديدة.

- أريدُ فقط أن أقول لك شيئًا. هناك شخصٌ يجب أن أروي له كلّ شيء. وستحبّه كثيرًا. إنّه الأخ فيليسيانو في الإعداديّة. إنّه طيّب جدًّا. وهو صديقي.

- وهل سيفهم الأمر؟

- دون شكّ. هو يفهم كلّ ما أقوم به.

- حسنًا، سنرى. والآن، اصمُتْ قليلًا.

- هناك شيء آخر صغير جدًّا أريد أن أطلبه منك. ألا نستطيع أن نجد طريقةً مّا نتواصل عبرها دون أن نتكلّم؟

- أتقصد عن طريق التّخاطر بأفكارنا؟

- نعم. وهكذا لن أرهق نفسي. ولن يكتشف أمرنا أحد.

- إنّه حلٌّ جيّد. هيّا فكّر في أيّ شيء. ولْنرَ ما إذا كانت خطّتنا ستنجح.

فكّرتُ في سرّي: «سأقضّي أسبوعًا كاملًا دون دروس البيانو أو الذّهاب إلى الإعداديّة».

انفجر آدم بضحك رجّ صدري من الدّاخل. وأجابني على الفور عبر التخاطر: «أيّها الصّعلوك الصّغير! لِنرَ الآن ما إذا كنتَ ستنام».

أغمضتُ عينيّ راضيًا. فلقد نجحت العمليّة. ولن يكتشف أيّ شخص سرّنا المشترك. كان كلّ شيء يتدرّج نحو الأفضل في صداقتنا. لقد عثرتُ على صديق. وها إنّي أفوز بأسبوع من العطلة وأتحرّق شوقًا لمعرفة الطّريقة التي ستتحسّنُ بها حياتي.

دخلتُ الإعداديّة. وصعدتُ الدّرج بخطى واثقة. فقد امّحى كلُّ ملمح للمرض. كنتُ أرغبُ في أن أُطلِعَ آدم على كلّ الأركان والزّوايا التي تحتضن حياتي.

- انظُرْ يا آدم. ستتعرّف الآن على الأخ فيليسيانو.

دخلتُ مكتب الإدارة وأنا أجرّ حقيبة كتبي التي كانت ثقيلةً جدًّا بالنّسبة إلى قامتي القصيرة ونحولي.

لمحتُ خلف مكتب السّكرتير رأس الأخ فيليسيانو الأحمر. كان منخفضًا دون شكّ، وهو يكتب. لطالما كان يكتب بلا انقطاع. فهو يُقضّي حياته على تلك الحال، بما أنّه مساعد المدير.

انزلقتُ إلى جانبه. وانتظرتُ حتّى يلاحظ وجودي. وعندما تأخّر في ذلك، لم أستطع صبرًا فنطقتُ:

- بول لويس فايول.

ألقى كلّ شيء من يده، كأنّ صعقةً كهربائيّة قد أصابته فجأةً. وألقى بنظّارتيه كذلك على المكتب. ثمّ توهّج وجهه كأنّه شمسٌ هائلة:

- شوش!

لقد اشتقت إلى سماعه، وهو يناديني شوش. لم أكن أعرف معنى الاسم في الحقيقة. ولكنّني لم أسأله قَطُّ. لقد كان اسمًا في النّهاية، اختراعًا مّا وشيئًا مفعمًا بالحنان تخيّله الأخ فيليسيانو من أجلي. وهو الشّخص الوحيد الذي يناديني به.

ظلّ يتأمّلني لوهلة، سعيدًا ومنشرحًا. ثمّ فتح ذراعيه ليقبّلني. وحتّى حين جلستُ على الكرسيّ المجاور له، تابع النّظر إليّ وتفحّصني بدقّة.

- ها قد عدتَ إذن يا شوش.

- نعم. ولقد سئمتُ البقاء في البيت.

كنتُ هانئًا إلى جانب شخص لن يؤذيني مُطلَقًا ولن يسمح لأيٍّ كان بأن يفعل ذلك. لقد كان هو الأخ الأوّل الذي اكتشف

عزلة روحي، حزنَ الطّفل الذي لا يفهمه أحد والذي تكتفي عيناه بالإفصاح عن الكآبة واللاّمبالاة. كان يعرف كلّ شيء عن كفاح سنواتي الإحدى عشرة؛ قصّة الطّفل الفقير الذي مُنح لعرّاب ثريّ بلا أبناء كي يربّيه، الاجتثاث المباغت لطفل نبت في الشّوارع ونشأ فيها سيّدًا للشّمس والحرّيّة والحيل الماكرة ووَصْلِه بعائلة جديدة ليمكث بينها تائهًا أبديًّا، متجاهَلًا ومنسيًّا. كم مرّةً اهتمّ فيها فايول بأدقّ مشاكلي وأبسطها! وكم مرّةً مسح دموعي وواساني قائلًا إنّه من المستحيل أن أعود إلى شارعي البعيد وضاحيتي التي لا طريق تفضي إليها! إنّه هو، هو من دون غيره أوّل من اكتشفني وحماني. ووحدهم الإخوة المريميّون الآخرون يعرفون أنّ اسمه بول لويس فايول. أمّا أنا، فقد اكتشفتُ سرّه ذاك. ويمكنني أن أناديه فايول وأخاطبه بلا كلفة حين نكون رأسًا برأس. أمّا أمام الأطفال الآخرين، فإنّه يعود مجدّدًا ليكون الأخ فيليسيانو.

– حدّثني عن كلّ شيء. لقد ازددتَ نحولًا يا شوش.

ابتسم. وقبل أن أنطلق في الكلام، تذكّر شيئًا مّا:

– ظللتُ أتّصل كلّ يومٍ ببيتك لأطمئنّ عليك. هل علمتَ بذلك؟

أومأتُ برأسي إيجابًا.

– كنتُ مشغولًا يا صغيري. أمّا الآن، فقد مرّ كلّ شيء. ووجّهتُ أوامري لمطعم الإخوة. عند استراحة السّاعة الثّانية،

بعد درس الدّين، ستذهبُ لتأكل قطعة مرطّبات أتركها من أجلك كلّ يوم. ليس عليك سوى أن تتوجّه إلى مانويل. وهو على علمٍ بالأمر.

- شكرًا.

نظر إلى ساعته. ولاحظ أنّ لدينا متّسعًا من الوقت.

- مازال لدينا وقت يا فايول. لقد وصلتُ باكرًا في سيّارة أبي، بينما غادر هو إلى المستشفى من أجل معاينة المرضى.

- حدّثني إذن.

لم أكن أرغب في الحديث عن مرضي. فقد ولّى وانقضى. ولا فائدة في ذلك. أمّا النّبأ العظيم، فهو وجود آدم. ولم أكن أعرف من أين أبدأ في قصّ حكايته.

- هل تعدني ألاّ تسخر منّي؟ ألن تفكّر أنّني فقدتُ عقلي تمامًا؟

بدت على فايول ملامح الجدّ والانتباه. ورحتُ أقصّ عليه كلّ شيء وأنا أثبّتُ نظري في عينيه مباشرةً. فقد كنتُ أخشى أن ألمح ظلّ ريبةٍ أو سخريةٍ فيهما. ولم يكن هناك أيّ شيء من هذا في عينيه الكستنائيّتين الطّيّبتين جدًّا. ولهذا السّبب كنتُ مطمئنًّا.

- إذن، يا شوش. لديك علجوم كورورو على شكل قلب؟

مكثتُ مرتبكًا من الحيرة. إذ لم يسألني أحدٌ من قبل ما إذا كان قلبي يملك شكل علجوم أم العكس صحيح.

- أعتقد أنّ الإجابة هي «نعم». الأمرُ رائعٌ. وسيساعدني كثيرًا.

ومع ذلك، قرّرت ألاّ أخبره حتّى تلك اللّحظة أنّ للعلجوم اسمًا، وهو آدم. فقد ينزعج آدم لذلك.

- حسنًا، هل تصدّقني يا فايول؟

- طبعًا، أصدّقك. نحن نصدّق في الحياة أشياء كثيرة ونؤمن بها. وإنّه لمن الحسَن أن يأمل المرء دومًا في أشياء سعيدة تسكن قلبه.

شعرتُ أنّ فايول كان متفاجئًا بعض الشّيء ولم يرد أن يخيّب ظنّي.

وفجأةً، خطرت ببالي فكرةٌ خرقاء من ذلك النّوع الذي يخيّم في رأسي باستمرار:

- أعتقد أنّه ليس من الصّعب التّصديق بأنّ لي علجومًا في قلبي. فعلى أيّة حالٍ، لقد رأيتُ بأمّ عيني ما حدث لي. أمّا الآخرون فيعتقدون جازمين أنّ في خبز القدّاس جسد سيّدنا يسوع المسيح ودمه.

تأمّلني فايول بلطفٍ شديد. ثمّ ابتسم.

- اعلم يا شوش أنّني لا أشكّ في أيّ شيء ممّا قلته. ألم تحدّثني بنفسك من قبلُ أنّك حين كنتَ صغيرًا ظللتَ تحمل عصفورًا يغنّي في صدرك.

- بلى.

- إذن، كلّ ما أرجوه لك ألّا يعلّمك علجومك إلاّ الأشياء الحسنة وأن يحتفظ بقلبك سليمًا مُعافى.

صمت قليلًا. وتابع الابتسام وهو يحدّق فيّ طويلًا. ثمّ ألقى نظرة على ساعته. وأعادني إلى الواقع، قائلًا:

- أوشكت السّاعة أن تحين يا شوش. وسيرنّ الجرس قريبًا.

نهضتُ واقفا. فأردف فايول:

- سنتحدّث في الأمر أكثر لاحقًا.

اتّجهتُ نحو الباب. ثمّ التفتُّ لأودّعه. فرأيته يدير نظّارتيه في يده، منتظرًا أن أختفي داخل الرّواق.

فكّرتُ مُخاطبًا آدم:

- إذن، هل أحببته؟

- جدًّا. هذا هو الصّديق!

أضاءت الشّمس الرّواق كلّه. وبدت السّماء الزّرقاء مُقطّعةً بواسطة النّوافذ إلى قطعٍ صغيرة. ألن يندم آدم ويحنّ إلى حرّيته السّابقة؛ الشّمس والمطر وغناء الجنادب وصرخات الأطفال وهم يطلقون الطّائرات الورقيّة وأزيز الخذاريف وهي تُدوّم في الشّارع؟

- لن يكون ذلك، ولو ثانيةً واحدة.

تعجّبتُ. وأضفتُ قائلًا:

- إنّك فظيع. سنرى ما إذا كنتَ قادرًا على تحمّل ثمان ساعات في القسم وثلاثٍ من درس البيانو في المنزل.

- عزيزي زيزا، لكلّ واحدٍ قدَرُهُ في هذا العالم. أمّا أنا، فعندما جئتُ إليك كنتُ أعرف كلّ شيء.

(3)
موريس

– إيهِ يا جواوزينيو الكسلان! تعال إلينا نحن الاثنين!

لم أكن في حاجة إلى أن أقدّم جواوزينيو لعلجومي الكورورو. فلقد كان على الأرجح يعرفه جيّدًا.

فتحتُ ستائر الصّالون لاستقبال ضوء النّهار، حتّى تأتي الشّمسُ الرّائعة وتملأ كلّ ركن بالحياة. وكالعادة، بدأتُ متردّدًا. ثمّ قمتُ بتمارين الإحماء وتقدّمتُ إلى الأمام. وقبل أن أفتح غطاء البيانو، نظرتُ إلى رأس الزّنجيّة. وهي زنجيّة من الطّين المجفّف كانت جدّتي قد تلقّتها من باريس حين أدركت عامها الخامس عشر. ووفق ما يقوله أبي، سوف يصير هذا التّمثال الصّغير بعمامته البيضاء وعينيه الحزينتين ميراثي الخاصّ يومًا مّا. كنتُ أعامله باحترام شديد، معتقدًا أنّ بِرْبرا السّوداء تحبّ موسيقاي دون شكّ وتتابعني بانتباه كلّما سارت الأمور بخير. ولكنّني نصحتُها هذه المرّة، قائلًا:

– دونا بربرا، من الأفضل لك أن تغطّي أذنيك بعمامتك، لأنّني لم أدرس شيئًا منذ أسبوع وأصابعي غلّفها الصّدأ.

ثمّ رفعتُ غطاء جواوزينيو وأعليتُ ببطء الوسادة الخضراء المطرّزة عن محمل ذي نوتات صفراء صغيرة. فكشف جواوزينيو

جميع أسنانه الموغلة في بياضها ونوتاته الحادّة والمسطّحة. لم أستطع يومًا أن أفهم سبب هذه التّقسيمات، بما أنّ نوتة حادّة يمكن أن تكون هي نفسها نوتة أخرى مسطّحة. لماذا كلّ هذه التّعقيدات؟ وفي الحقيقة، كنتُ أجد النّوتات الحادّة أكثر لطفًا، لأنّها أشبه بأقفاص عصافير صغيرة معلّقة. كم كنتُ أحبُّ الرّائحة المتجدّدة دومًا والنّائمة في حضن البيانو! لن أنسى هذه الرّائحة طيلة حياتي. تأهّبتُ لأضع أصابعي على المفاتيح عندما نفذ شعاعُ شمسٍ طويلٌ وراح يرقص على وجه بربرا السّوداء. كم تصير الشّمسُ جميلة حين يكون المرء في صحّةٍ جيّدة! لا شكّ أنّ توتوكا يستعدّ في تلك السّاعة من مكانه البعيد للذّهاب إلى مدرسة مارتان الابن. وكذلك الرّفاق؛ الجنادبُ تنشد في الصّيف بين الأدغال، غودويا تكنس الصّالون وتنظّف الغرفة ومن ثمّ تعدّ الطّعام، فيما أقبع هنا حبيسًا في هذه الصّالة، حيث لا شيء يُرى سوى خيطٍ رقيقٍ من الشّمس. كانت عيناي قد اغرورقتا بالدّموع، حين بلغني صوت آدم:

- انس يا زيزا. لن تفيدك الذّاكرة في شيء. ستنسى شيئًا فشيئًا. تنسى إلى درجة أنّك حين تفكّر في الأمر مُجَدّدًا، سوف تجده بعيدًا جدًّا. ولن يعذّبك التّذكّر ساعتها.

عدتُ إلى الواقع. ومرّرت أصابعي في البداية على المفاتيح بلُطفٍ. كم كنتُ أحبّ جواوزينيو. إذ لم يكن قادرًا على فعل شيء. ولم يكن يلومني أو يوبّخني حين أخطئ في العزف عليه. يكتفي بالاستجابة لي وبطاعتي. وحين يقع في الخطإ، فإنّني المسؤول عن ذلك.

أسمع قدَمًا تدقّ السّقف. وهذا يعني أنّ أمّي متعجّبة من بطئي. وإذا دقّت مرّتين، فالمطلوب أن أعيد من جديد. وأمّا الثّالثة، فهي الإنذار العامّ. وإذا لم ألتزم بالعزف بشكل صحيح، فستنزل على الفور لترى ماذا يحدث معي. أحيانًا، أسمع الدّقّات الثّلاث متتالية بسرعة، فأعرف أنّ عليّ أن أنجز كلّ شيء بدقّة عالية. فالوقتُ يمرّ سريعًا والعاصفة في طريقها إليّ.

وهكذا كانت تمرّ حياتي؛ نصف ساعة من البيانو قبل فطور الصّباح وعشرون دقيقة إضافيّة بعده، أي قبل موعد الذّهاب إلى الإعداديّة. وعند الظّهر، أربعون دقيقة قبل الغداء ثمّ أعود إلى الدّراسة. أنجز واجباتي دومًا في المدرسة. وأرجع إلى البيت على السّاعة الخامسة والنّصف. أتحمّم. ألبس ثيابي النّظيفة. وأمرّ إلى المزيد من البيانو في انتظار العشاء. أتناوله. وأقضّي نصف ساعة أخرى في اللّعب. ولكن، مع من ألعب؟ لم يكن لديّ أصدقاء. لا أحد في هذا البيت يرغبُ في أن يأتي صديق للّعب معي، حتّى إنّني صرتُ قلقًا من تلقاء نفسي من أن يحدث الأمر. أكتفي بمداعبة الكلب الصّغير تولو الذي كان أعرج بسبب حادث قديم. عليّ أن أعترف أنّ هذا الحيوان الصّغير يعشقني. أجلسُ عادةً على عتبة الدّرج خلف المنزل الذي يفتح على حديقة شرطة الميناء. نشاهدُ نهر ريو بوتانجي قبل هبوط اللّيل، حيثُ تنزلق القواربُ ببطء تحت أشعّة شمس الغروب وهي تضيء بالذّهب أشرعتها البيضاء، فتحضنها الرّياح. الآن، يصير الوضع أحسن من قبل. فقد أصبحنا ثلاثةً نحلم معًا، أنا وآدم وتولو.

- سوف نفرّ ذات يوم عبر قاربٍ في البحر. أليس كذلك يا آدم؟

- فكرة رائعة!

هزّ تولو ذيله بقوّة، ما إن سمع صوتي.

- سآخذك معنا يا تولو. يمكننا أن نصطحب هذا المسكين معنا. أليس كذلك يا آدم؟

- طبعًا.

لقد كانت أقصر نصف ساعة في العالم. إذ هجم صوت أمّي من الخلف فجأةً:

- يكفي. لقد لعبتَ بما فيه الكفاية. وحان وقت الذّهاب.

دخلتُ. وغسلتُ يديّ، متأمّلًا أصابعي الرّقيقة كأنّني أمقتُها. اتّجهت إلى الصّالون. وفتحتُ غطاء جواوزينيو. وظللتُ أقرأ كالعادة اسم علامته التّجاريّة؛ «رونيش». نقرتُ بشراسة على النّوتات الأولى. فرجع الصّدى مُزمجرا: رونيش، رونيش، رونيش. ثمّ أسلمتُ نفسي لعالم مقطوعات تشيرني[1] والسّلّم الموسيقيّ والتّمارين حتّى ساعة النّوم.

يوم الأحد، أقضّي معظم اليوم في الدّراسة حتّى أوظّف هذا الوقت خارج الإعداديّة في شيء مفيد. أبدأ بالدّروس الرّسميّة، ومن ثمّ أمرّ إلى البيانو لتغيير الجوّ قليلًا. وكان من النّادر جدًّا أن

(1) كارل تشيرني (1791-1857) مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو نمساويّ.

يقرّر أبي الذّهاب إلى الشّاطئ خلال الآحاد. وهناك، كان ينتظرني حقًّا عالم من البهجة. كنتُ أسبح مثل سمكة. وحتّى هذا التّفصيل يصلح لإدانتي: «لا يمكنك أن تنكر أنّك تملك دمًا هنديًا، دم بيناجيه[1] حقيقيّ».

لم أكن أتوخّى الحذر والانتباه. إذ يجب عليّ أن أستمتع جيّدًا بتلك الدّقائق العشرين المخصّصة للحمّام البحريّ. والشّاطئ كان عبارة عن سلسلة من التّنبيهات؛ احذرا الشّمس! لا تمكثا كثيرًا في الماء بسبب حنجرته! إذا مرض وأصيبت حنجرته، فإنّه سيحضر دروس البيانو حتّى إن كانت حرارته أربعين درجة.

بعد الغداء، يُطلب منّي تقديم دفتري. كان كلّ شيء على ما يرام: درجات جيّدة. ثمّ يأتي الامتحان الأساسيّ: «هل اعترفتَ وشاركت في القدّاس؟». نعم. نلخّص معًا ما دار خلال الأسبوع، لنرى ما إذا كنتُ قد اقترفتُ خطأً مّا أو حماقة. يمكنني أن أذهب بعد ذلك. يتمّ الاعتناء بي وتجميل مظهري من أجل حصّة السّينما على السّاعة الثّانية. وحين أهمّ بالمغادرة، تتهاوى التّوصيات عليّ: «ضع قبّعتك الجلد. لديك ربع ساعة كي تغادر السّينما وتصل إلى المنزل». وفي حال تأخّرتُ خمس دقائق، أجد من ينتظرني عند البوّابة. «اذهب إلى سينما كارلوس غوميز. إنّهم يعرضون فيلم جاكي كوبر، «مغامرات سكيبي». عليك أن ترويه لي لاحقًا».

---

(1) بيانجي: اسمٌ يُطلَق على جماعةٍ من الهنود من سكّان البرازيل الأصليّين يعيشون في مقاطعة توكانتينس.

أذهب غير متحمّس. وكان لديّ بعض الوقت لأمرّ بسينما روايال كي أرى الصّور. ولحسن الحظّ، أنّهم تنازلوا عن وجوب إلقاء التّحيّة. فقد مُنعت من السّينما لأحدين متتالين، لأنّني رفضت أن أقول مساء الخير وليلة سعيدة. كانت لديّ أسبابي الخاصّة طبعًا. هما ليسا أبويّ. أخذاني يافعًا جدًّا. ولم يكن بمقدوري أن أختار. يتحوّل كلّ شيء معهما إلى ذريعة لمعاقبتي. وبلا هوادة، يذكّرانني دومًا أنّني لستُ ابنهما. وأسوأ من ذلك، وجدتُ نفسي أقول في أيّ مناسبة تافهة: «إنّهما على هذا النّحو معي لأنّني لستُ ابنهما». يريدان أن يجعلاني مثاليًّا. ولا أعرف لم قد يفعلان ذلك.

أظلّ أمشي، مشوبًا بنوع من اللاّمبالاة.

- أتعرف ماذا فعل بي يا آدم؟ لا، لستَ على علم بالأمر. إذ لم تكن تسكنني بعد. حسنًا، ها قد رأيت أنّني أصغر سنًّا من جميع التّلاميذ الآخرين في القسم وأصغرهم حجمًا أيضًا. أليس كذلك؟

هزّ آدم رأسهُ إيجابًا، وقد تحوّل برمّته إلى آذان صاغية.

- عندما انطلقت السّنة الدّراسيّة وتمّ تسجيلي في الصّفّ السّادس، كنتُ سعيدًا وفخورًا جدًّا. مُنحتُ قائمة كتب ودفاتر لا نهاية لها. ثمنها الإجماليّ خمس وعشرون ألف ريال. اتّجهتُ إلى عيادة أبي ركضًا، كي أطلب منه المبلغ. أنت تعرف أنّ الصّفّ السّادس يتضمّن أكبر عدد من الموادّ. أليس كذلك يا آدم؟

- اسمعني يا زيزا! في ما يتعلّق بمسألة الدّراسة، أنا صفر لا يفقه شيئًا. فأنا لا أعرف إلاّ الحياة الحقيقيّة.

- عفوًا؟

- حسنًا، واصل كلامك.

- صعدتُ درج عيادته. وجلستُ منتظرًا، حتّى يكمل عمله، ويفتح الباب. لم يَطُل الأمر كثيرًا في الحقيقة. لكنّني مكثتُ نافد الصّبر حتّى بدت لي تلك الفترةُ أسبوعًا. فتح الباب أخيرًا. وأومأ إليّ بأن أنتظر. أجاب على الهاتف. وقام بتدوين موعد. ثمّ ناداني. وأجلسني. وفتح قائمة الكتب. ثمّ راح يحصي سعرها ببطء ودقّة شديدين، إلى أن نحّى نظّارتيه جانبًا، وحدّق فيّ بنظرة جافّة.

- إنّك لا تستحقّ ثمن هذه الكتب. حسنًا، سأعطيك المبلغ في البيت.

نفد صبر آدم، وهو يستحثّني لأتابع الكلام. فهو يريد أن يعرف نهاية قصّتي. أمّا أنا، فقد توقّفتُ، لأنّني، وبغباء شديد، سمحتُ لعينيّ بأن تبلّلهما الدّموع في وسط الشّارع.

- وأنت، ماذا فعلت زيزا؟

واصلتُ ابتلاع مشاعري، مِزَقًا صغيرة تلو أخرى...

- تكلّم يا زيزا. لا تكن بهذا الجمود. أنا هنا لأساعدك. ماذا حدث؟

- أُصبتُ بالموت في قلبي. خرجتُ بالقائمة في يدي، كما لو أنّ تلك العناوين تزنُ قطعًا نقديّةً عملاقة. وفكّرتُ في سرّي: «لو كنتُ ابنه حقًّا، لما كلّمني بهذه الطّريقة».

- هوّن عليك يا زيزا. سوف ننسى معًا كلّ شيء. هيّا، لنذهب إلى السّينما. لديك ساعتان من الحرّيّة.

توقّفتُ لأشاهد الملصقات؛ «درس في الحبّ»، موريس شوفالييه وهيلين تويلفتريس. هذا مغر حقًّا. إذ لم أشاهد من قبل هذا الممثّل ذا القبّعة الشّهيرة. إنّه السّعر نفسه. والفيلم الآخر، «سكيبي»، لقد شاهده صديقي تارسيسيو ميديروس من قبل في عرض مسائيّ. وقد روى لي قصّته. ويمكنني إذن أن أعيدها في المنزل. هممتُ بالتّحرّك. فعثّرني التّردّد وشلّ ساقيّ، عندما أسرع آدم لنجدتي:

- ادخل يا زيزا!

- ولكن، هل سيكتشفان الأمر؟

- ولِمَ سيفعلان ذلك؟

لم أستطع أن أقرّر. ظللتُ ممزّقًا بين وازعي الأخلاقيّ وبين آدم. لا شكّ أنّه غاضب جدًّا من الحكاية التي رويتها له، ويريد أن يمنحني تعويضًا.

اقتنيتُ تذكرتي بسلاسة مثاليّة. فلا أحد يشغل نفسه بالتّثبّت ما إذا كان الفيلم مخصّصًا للأطفال أم لا. ولو لم يكن كذلك، لما برمجوا عرضه في الصّباح. جلستُ في ركن خفيّ. رفعتُ قبّعتي. ومكثتُ

أنتظر انطلاق العرض. ولحسن الحظّ، لم نر أيّ شخص نعرفه.

ليلا وأثناء العشاء، لم يسألني أحد خلافًا للعادة عن الفيلم. لم يخطر ببال أيّ منهما أنّني قد أعصي أمرهما، فأخسر شهرًا من السّينما عن طريق المجازفة بخرق الأحكام النّافذة.

ذهبتُ في تلك اللّيلة لتفقّد جواوزينيو، دون أن يطلب منّي أحد فعل ذلك.

درستُ بمتعةٍ شديدة. وعزفتُ بأصابع الحلم. وظللتُ منهمكًا إلى درجةٍ جعلت أمّي تستغرب لحالي:

– لقد تجاوزت الوقت. ماذا حدث لك اليوم؟ هيّا، هذا يكفي. ستتابع العزف غدًا. شعرتُ بابتهاجها. لكنّني كنتُ أفوقها رضًا وبهجة. ارتديتُ منامتي. واتّجهتُ لأنظّف أسناني. وقرّرت حتّى أن أقتصد في صلواتي. وبدل إتمام المسبحة كلّها، اكتفيتُ بتلاوة «السّلام عليك يا مريم» ثلاث مرّات. وقلت لنفسي ليس هناك مشكلة إذا قصرت صلاتي عليها لليلة واحدة فحسب. فنحن نصلّي بلا هوادة في الإعداديّة إلى درجة أنّ المرء يُصاب بتشنّجات في الفم. كلّ ما كنتُ أريده حقًّا هو أن أثرثر مع آدم ومع وسادتي التي كانت هي الأخرى شريكة متواطئة في أحلامي.

– هل تعتقد أنّ الشّيطان سيتجلّى لي، لأنّني لم أختم المسبحة كلّها؟

– هذه سخافات يا زيزا. لا وجود للشّيطان. الشّيطانُ لم يوجد

قَطُّ. لقد اخترع النّاس هذه القصص ليخيفوا بها الآخرين.

- ولكنّه الشّيء الوحيد الذي يخيفني.

- لماذا؟ لست في حاجة إلى الخوف من أيّ شيء بعد الآن. فأنا هنا معك. لا خوف من الأشباح ولا السّاحرات ولا أيّ حماقة أخرى.

- هذا لأنّك شجاع. أمّا أنا، فلا أستطيع أن أنسى دروس الدّين. إنّها تغرز الشّيطان في كلّ مكان. وباستثناء فايول، يتحدّث الجميع بنفس الطّريقة.

- إذن صدّقه هو من دون الجميع.

تذكّرتُ شيئًا مّا. فأضفتُ:

- هل رأيت من قبل بادري مونتي؟

- النّحيل ذو النّظّارتين؟

- نعم. كاهن الاعتراف في المدرسة. لا يمكنك أن تتخيّل كم جميل أن يعترف المرء له. فهو يبدو ساهمًا في مكان آخر، غير منتبه لما يُروى له. وفي النّهاية، يقدّم لك ثلاث «السّلام عليك يا مريم». ثمّ يغفر لك. إنّه قدّيس حقيقيّ.

توقّفتُ لوهلة.

- وماذا بعد؟

- حسنًا، ذهبتُ ذات مرّة للاعتراف، ولم أكن أعلم أنّ بادري مونتي مسافر إلى مدينة ريسيفي، وسيمكث فيها طيلة

أسبوعين. وعندما دخلتُ إلى حجرة الاعتراف، لاحظتُ الفرق. إذ وجدتُ كاهنًا ضخم الجسد، له علامات النّقرس في الأنف وأذنان تشبهان مروحتين يدويّتين. لقد سألني الحيوانُ عن تلك الأشياء، ممّا جعلني أتجمّد في مكاني. لم أكن أريد أن أفكّر فيها مُطْلَقًا. قدّم لي قطعة صابون فظيعة. وطلب منّي أن أتلو ثلاث مسابح تكفيرًا عن ذنوبي.

- وما هي هذه الكبائر التي يمكن لصبيّ مثلك أن يقترفها؟

- حسنًا، يا آدم. لا أعرف. إنّها ذنوب كتلك التي يقترفها الأطفال. ولكنّني كنتُ مجبرًا على تذكّر المرّات التي أخطأتُ فيها. كنتُ متوتّرًا جدًّا حتّى إنّ ذاكرتي ابيضّت. وكان كلّ شيء ليمرّ في خير لو أنّني لم أعد للاعتراف في الأسبوع التّالي. أتعرف ماذا قال لي؟

- لا.

- سألني وهو يتكلّم من أنفه: «حسنًا، هل أحصيتَ ذنوبك هذه المرّة؟». تجمّد صوتي في حنجرتي. فقد تعلّمنا في الدّروس الدّينيّة أنّ الكاهن الذي يغادر حجرة الاعتراف يُسقط من ذاكرته كلّ ما سمعه فيها. ولذلك، مكثتُ مشدوهًا. وكدتُ أغادر الحجرة، وأنا أركض دون أن أتمّ اعترافي. ولكنّني تماسكتُ. إذ كان عليّ أن أذهب إلى القدّاس في الغد، حتّى يُسمح لي بجولة البحر والسّينما. استجمعتُ شجاعتي في النّهاية. ورويتُ له كلّ شيء. وغضب الكاهنُ

بشدّة. وقال لي إنّني لم أحاول حتّى أن أصحّح نفسي وأتوب عن ذنوبي. وقال أيضًا إنّ طفلًا مثلي محكوم بالوقوع رأسًا في الجحيم. ماذا لو حدث لي حادث ومتّ حاملًا للذّنب المميت؟ سأودَع فورًا في الجحيم. سيستقبلني الشّيطان بشوكته الهائلة، يغرزها فيّ ويلقي بي في اللّهيب الأبديّ. جعلني ذلك مريضًا ومرعوبًا. وفي الختام، أمرني بالتّكفير عن ذنبي. أتعرف كيف يكون ذلك يا آدم؟ تسع مسابح من الصّلوات. وعليّ أن أتلوها كلّها في يوم واحد، حتّى يُسمح لي بالمشاركة في القدّاس خلال اليوم التّالي.

- ومن ثمّ؟

- ثمّ عاد لحسن حظّي بادري مونتي. ورجع كلّ شيء كما كان من قبل؛ إذ لا حاجة إلى أيّ كفّارةٍ في وجوده. ولكن في الحقيقة، قضّيتُ بعد ذلك ليالي مرعبة. أنام والمصابيح تعمل والسّكون مخيّم، وأنا أرتجف من رأسي حتّى قدميّ، متوجّسًا من الشّيطان الذي يخضّ شوكته الهائلة.

- لا وجود بعد الآن لكلّ هذا. فقد صرتُ معك.

- صحيح.

مطّطتُ ذراعيّ فوق الوسادة. وتنهّدتُ.

- ماذا هناك أيضًا يا زيزا؟

- لا شيء. أردتُ فقط وبشدّةٍ أن أذهب للنّوم وأتحدّث عن

مسألة أخرى. وها نحنُ قد أضعنا الكثير من الوقت... عليّ أن أنام الآن، لكي أستيقظ في السّاعة السّادسة.

- إذا كانت الحكاية طويلة، يمكننا تأجيلها إلى الغد. اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

- تثاءبتُ مُطوَّلًا. ثمّ هتفتُ به:

- آدم!

- نعم.

- منذ قدومك للعيش معي، صرتُ أرى الحياة أجمل.

- أليست رائعة؟

- نعم. ولكنّني أفكّر كثيرًا...

- فيم؟

- لن تموت. أليس كذلك؟

- لا. لن أموت. أنا لا أموت أبدًا.

بدأت عينيّ في الانغلاق شيئًا فشيئًا.

- وهل سترحل ذات يوم؟

- هذا ممكن. ولكنّه لن يحدث إلاّ حين أكون متيقّنًا من أنّك لم تعد في حاجة إليّ. هل ننام الآن؟

- لديّ سؤال آخر بسيط. هل أعجبك؟

- ماذا؟ الكاهن؟

- لا، أتحدّث عن الفيلم. عنه هو.
- الممثّل؟ السّيّد موريس شوفالير الشّهير؟
- طبعًا. ولكنّنا لا ننطق حرف الرّاء في آخر لقبه العائليّ. شوفالييه.
- تعرف أنّني لا أفقه شيئًا في الدّراسة، وخصوصًا الفرنسيّة.
- هذا ليس مُهمًّا. سأشرح لك كلّ ما يلزم. هل تعرف شيئًا يا آدم؟
- ماذا بعد؟
- لقد اكتشفت أعجوبة. ولا أريد التّحدّث عنها. سيكون الأمر رائعًا.
- حدّثني بها.
- هل يمكنه أن يصير أبي؟
قفز آدم في صدري. وسرّح النّوم بعيدًا.
- أب؟
- نعم، أب... أبي.
كان متفاجئًا تمامًا، حتّى إنّه لم يجبني. وعندما همّ بذلك، هيمن على صوته الحذر:
- اسمعني يا زيزا. لقد حصلتَ على أب من قبل. ثمّ إنّك عثرت على آخر، مثلما أخبرتني. وكان برتغاليًّا. ثمّ تمّ تسليمك بعد ذلك لهذا الأب بالتّبنّي. ماذا تريد بعد كلّ

هذا؟

- من بين كلّ من ذكرت، وحده البرتغاليّ يمكن أن يكون أبًا حقيقيًا. لكنّه توفّي سريعًا، ولم أتجاوز بَعْدُ سِنَّ السّادسة. والآن، أريد أبًا مثل موريس، أبًا يكون مبتهجًا ويرى الحياة دومًا جميلة.

- والخلاصة أنّه أبو الأحلام.



- هل تساعدني في ذلك؟

- فيم أساعدك؟

- لقد قلت لي إنّك تريد أن تراني سعيدًا، وإنّك جئت لتعيش معي كي تخترع من أجلي عالم الآمال وأشياء أخرى. ها قد حان الوقتُ إذن لتساعدني. ساعدني على العثور على أبٍ مثل موريس. هل تفهمني؟

- لقد فهمتُ قصدك. لكنّ هذه الحكاية كلّها غريبة جدًّا بالنّسبة إلى علجوم.

- ألم تحصل مرّةً على أب؟

- بلى، طبعًا. لكنّ الأمر يختلف في عالم العلاجيم. فنحنُ نولد في كومة من البيض المجمّع بواسطة خيط. وعندما يحين الوقت، نصير نوعًا من السّمك الصّغير الأسود بذيول لصيقة بأجسامنا. ثمّ نقضّي حياتنا بعد ذلك في السّباحة هنا وهناك. ثمّ نكبر. ويسقط الذّيل. فنخرج من الماء. ويمضي

كلّ منّا إلى طريقه وجِهَتِه الخاصّة، إلى أن نصير كبارًا بالغين، يقضّون كلّ وقتهم في التهام البعوض والحشرات الأخرى أو يخضع الواحد منّا لقانون أسمى، مثلما حدث معي ودفعني إلى القدوم إليك.

وفي تلك اللّحظة، تبخّر النّعاس من عينيّ أيضًا.

- ألم تلتق أيَّ واحدٍ من إخوتك؟

- بلى، ولكن عبورًا فحسب. لقد ذهب أخي للعيش في غابات غوياس. فهو يرغب في الحياة قرب نهر كبير. وإذا لم أكن مُخطئًا فاسم النّهر أراغوايا. كنّا شبيهين بغريبين يلمح أحدهما الآخر صدفة. رجوت له رحلة طيّبة. ثمّ مضى. ولكن، يجب علينا أن ننام. أطفئ الأنوار، وإلاّ سيأتي أحدهم للتّثبّت ممّا يحصل هنا قريبًا. وستسوء الأمور.

- حسنًا.

استجبتُ لطلبه. والتصقتُ بوسادتي. وكان آخر شيء قلته له:

- سوف تساعدني. أليس كذلك يا آدم؟

- نم يا زيزا. من أين تأتي بهذه الأفكار؟

(4)
نقيق الدّجاجة

انقطعت أنفاسي، وأنا أصعد زقاق جونكوايرا آيرس مهرولًا، أكاد أركض. كان عليّ أن ألتقي تارسيسيو ميديروس، صديقي الوحيد. كنّا نجلس مُتجاورِيْن في القسم. هناك شيء مّا اقترفته في حقّه، لم يغفره لي تارسيسيو بتاتًا. إنّها خيانة، على حدّ عبارته هو. كان فتى هادئًا، يتحدّث دومًا في اتّزان ورصانة. وذات يوم، قدم الأخ المدرّسُ حاملًا تماثيل صغيرة جدًّا في يده، كي يكافئ بها أكثر التّلاميذ انضباطًا. حدّق في شتّى أنحاء القسم، مُفتّشًا ومتفحّصًا. ثمّ سأل، وهو يثبّت بصره في عيوننا:

– من منكم حضر كلّ الدّروس دون أيّ تشويش.

وقف في البداية أولئك الذين لا شكّ في انضباطهم. ثمّ من هم أقلّ منهم، أولئك الذين يعادل احتمالُ صمتهم احتمال تلفّظهم بكلمات أثناء الدّرس. وفجأةً، رأيت هذا المنافق تارسيسيو يقف ويتّجه بكامل الجدّ في ملامحه ليأخذ واحدًا من بينها. وعاد مزهوًّا بنفسه، حاملًا التّمثال الصّغير في يده. وتوجّه إليّ بابتسامة الظّافر.

اهتزّ الشّيطانُ في داخلي. ونفخ آدم فيّ:

– هيّا يا زيزا، تحرّك!

وقفتُ. فانفجر الجميع ضاحكًا. فمن منهم لا يعرف أنّني أثرثر باستمرار، وأقضّي حياتي في اختراع الحيل الماكرة. ومع ذلك لم أتراجع. بل تقدّمتُ محمرّ الوجه إلى المنصّة الخشبيّة. ومددتُ يدي. تقلقل التّمثال الصّغير في الهواء، كأنّه يستجيب لتردّد الأخ الذي تفحصّ ملامحي بفضول، قبل أن ينطلق صوته شبيهًا بمن يعلن حُكمًا:

- لم تتكلّم يا فاسكونسيلوس؟!

أومأتُ برأسي.

- هل تقول الحقيقة؟

- نعم.

- أتعرف، يمكنني ألاّ أصدّقك.

وومض في رأسي فجأةً إلهامٌ مبهر:

- ولكن، بما أنّ جاري تارسيسيو استحقّ التّمثال، فلِمَ لا أكون مثله؟ إذا لم يكن هو قد تكلّم، فمع من سأتكلّم أنا حينئذ؟

هدر كلّ التّلاميذ ضاحكين دُفعةً واحدة. وحتّى الأخ المدرّس حجب بيده ابتسامة ارتسمت على فمه. أنزلتُ التّمثال. وعدتُ إلى مكاني، محمرّ الوجه أكثر من قبل، واعيًا بخيانتي وخبثي.

ظلّ تارسيسيو عابسًا مستاءً طيلة يومين كاملين. لكنّه أحضر معه لاحقًا ثومًا رمليًّا من حديقة بيتهم. ووضعه خلسة في حقيبتي. وعند الاستراحة، كنّا نتحدّث كأنّ شيئًا لم يكن.

أصل الآن كالمجنون، والفزع يغلّف قلبي. وحتّى آدم شعر بالقلق. وقال لي: «ستكون محظوظًا هذه المرّة يا زيزا إذا نجوت بجلدك». فكّرتُ مجيبًا: «ماذا تريد أن أفعل. لقد اشتعلت النّيران. وسوف يصير الجوّ حارقًا لا محالة».

كان تارسيسيو ينتظرني على المقعد. جلستُ إلى جانبه، وأنا أنفخ ووجهي شبيه بالفلفل. لم نتبادل حتّى التّحيّة. وعلى الفور انطلق تارسيسيو في الحديث:

- سمعتُ أنّ الأخ مانويل ينوي أن يحاصرك اليوم.

- أعرف.

- ولكن، أحقًّا أنت من اخترع نقيق الدّجاجة؟

- لا أعرف شيئًا.

- كيف يعقل أنّك لا تعرف؟ لا شكّ أنّك تملك الإجابة.

- بطريقة مّا، نعم.

وصمتنا، بينما ازداد خوفي وشُبّه إليّ أنّني سمعتُ في أذنيّ أصوات جوقة تنقّ نقيق الدّجاجة. لقد انتشر هذا في شتّى أنحاء الإعداديّة. ما إن يحدث أيّ شيء خارق للعادة، حتّى ينتشر في المكان صوت النّقيق. أعترف أنّ الأمر كان مُضحكًا في البداية. لكنّه، راح يتعاظم شيئًا فشيئًا إلى أن تحوّل إلى كارثة، تُطلّ حينًا في غرفة الطّعام وحين آخر عند الاستراحة. وحتّى في ذلك اليوم الذي ركع فيه «جْواو الحوت» خلال القدّاس فكسر المقعد، تردّد صوتُ النّقيق في المكان. يا ربّ السّماء، أيعقل هذا؟! في وسط الكنيسة! في قلب

شهر مايو! لقد سُمع النّقيق في كلّ مكان، حتّى في المهجع حيث السّكون هو القاعدة. أصدر أحد الأسرّة صريرًا مكتومًا. ثمّ انطلق هذا الكوكوروكو ذو النّبرة المزيّفة ليزرع الفوضى. اجتمع الإخوة لاتّخاذ التّدابير اللاّزمة. فللأمر أثر سلبيّ على مدرسة إعداديّة راقية، تضمّ أبناء العائلات المحترمة. وانطلقوا في أبحاثهم من أجل اكتشاف مؤلّف هذا الاختراع. وفي النّهاية، لم تتأخّر النّتيجة. «إنّه فاسكونسيلوس!»، اندهش بعض الإخوة. إذ كان من العسير عليهم تصديق أنّ أصغر ولد في القسم، هذا الضّامر الهشّ... خشيتُ حتّى أن أروي الحكاية للأخ فيليسيانو، لأنّه -بوضوحٍ تامّ- لن يقدر على مساعدتي.

قفزتُ واقفًا على قدميّ. وقلت:

– أتعرف، يا تارسيسيو؟ لن أزعج نفسي بهذا الأمر.

تفاجأ لردّة فعلي. فقد اعتاد أن يجدني حذرًا جدًّا وخوّافًا.

– ماذا أصابك؟ أكاد لا أتعرّف عليك.

– لا شيء. ستتغيّر حياتي من هنا فصاعدًا. وقريبًا جدًّا، سأكون مستقلاًّ وإلاّ فمرحبًا بالموت.

واتّسعت عيناه أكثر من قبل.

– إذن فلنتوقّف عن الحديث في هذه المسألة. وقد قرّرتُ أيضًا أن أخبرك منذ الآن أنّني تسلّلتُ أمس وشاهدتُ ذلك الفيلم، «درس في الحبّ».

– إنّك مجنون!

- أبدًا. وليس في الفيلم أيّ شيء خارق للعادة؛ مجرّد سلسلة من القُبَل، ولا شيء آخر.

- هل سُمح لك في البيت بمشاهدته؟

- لم يُسمح لي بأيّ شيء. ولم يعلم أحد بالأمر. قلت لك سأتغيّر.

- ولكن، من الذي يحشو رأسك بهذه الأفكار يا زي؟

كاد سِرّي يُفلت منّي وينكشف. لكنّ آدم لكزني من الدّاخل.

- لا أحد. والآن، فلنذهب إلى المدرسة! وليحدث ما سيحدث.

دخلنا بخطى ثابتة. وكان الجميع يحدّق فيّ بفضول. لقد انتشر الخبر بسرعة. ولم أخطُ عشر خطوات حتّى أوقفني صوتٌ غاضب:

- فاسكونسيلوس!

رفعتُ بصري نحو أرخميدس. وهو تلميذ أكبر منّا سنًّا. وله سلطة في الإعداديّة تلي سلطة الإخوة المدرّسين. إنّه ذراعهم اليمنى ومحطّ ثقتهم.

لمحتُ شيئًا من الشّفقة في عيني أرخميدس. تحدّث إليّ بلطف، رغم أنّه متسلّط في العادة. وقد شكّلنا سويًّا، في تلك اللّحظة، مشهدًا من الكتاب المقدّس بامتياز؛ مشهد داود وجالوت.

- اتبعني!

أستجيب لأمره، بينما اختفى تارسيسيو في الطّبيعة. قادني إلى قاعة فارغة.

- اجلس!

أستجيبُ لأمره. انحنى أرخميدس على مكتب. شابك ذراعيه. وراح يتأمّلني طويلًا. وبدا لي أنّه لم يصدّق بعْدُ أنّني المذنب في الحكاية.

- إذن، فاسكونسيلوس؟

- لا أعرف شيئًا.

- حسنًا.

صمتنا. وظلّ يُدير بين أصابعه سلسلة ساعته الصّغيرة. وانتظرنا في صمت ما يفوق عشر دقائق. لو كنت كما عهدتُ نفسي في السّابق، لكنتُ أرتجف الآن من الخوف تلتهمني رغبةٌ ملحّة في التّقيّؤ. ولكنّ الأمر يختلف الآن. فقد كان آدم معي، واقفًا في صفّي.

حكم الجرس الكبير بالصّمت المُطبق. ثمّ سُمع بعد لحظاتٍ صوتُ الأحذية، وهي تكشط الإسمنت أثناء دخولها إلى الأقسام، قبل أن ينطلق ضجيج الصّلوات.

- تعال الآن.

أمسكني من ذراعي كي لا أهرب.

- أرجوك يا أرخميدس، اتركني.

- هل يمكنني أن أثق بك يا فاسكونسيلوس؟

- أعدك وعد شرف.

أطلق ذراعي. لكنّه اقترب منّي. وكنت أعرف إلى أين يقودني.

إنّه يصطحبني إلى قسم الصّفّ الثّاني، القاعة الأكبر والأكثر احتشادًا. دخلنا. وكانت القاعة مزدحمة جدًّا. وتجمّد تلاميذ آخرون في الأروقة.

وبينما كنتُ أعبر مع أرخميدس بين صفوف المقاعد، انفجرت موجة تصفيق صارخة. ظلّ الأخ مانويل يحدّق فيّ من خلف مكتبه على المنصّة الخشبيّة. ولم يبد لي وجهه ولحيته السّوداء مخيفين كريهين من قبل على ذلك النّحو قَطُّ. كانت عيناه السّوداوان مهدّدتين بشكل مروّع لا نظير له، حتّى إنّ آدم تركني معه وجهًا لوجه واختبأ. ثمّ خيّم صمتُ الموتى في المكان.

- شابك ذراعيك.

أطعته غير متعجّل.

- اصعد على المنصّة.

أطعته كذلك. ولكنّني فتحت ذراعيّ في الآن نفسه. فجاء الصّوت عنيفًا أكثر:

- لقد قلت لك أن تشابك ذراعيك.

استجبت لأمره، محدّقًا فيه بكبرياء.

- أخفض بصرك.

حدّقتُ في طرف حذائي وسروالي الرّيفيّ غير الرّسميّ. ثمّ بدأ الكلام. وقد أوجز، حمدًا للرّبّ. تحدّث عن نقيق الدّجاجة. وسرد آثاره الشّريرة السّيّئة. ثمّ أعلن مرسومه بصوت كان الشّيطان نفسه بشوكته العملاقة ليستجيب له:

- إذا تمّ القبض على أيّ شخص بصدد إطلاق هذا النّقيق الشّنيع، فإنّه يُطرد على الفور من الإعداديّة.

صادق كلّ من في القسم على كلامه. إذا لا مجال للمزاح مع الأخ مانويل، وهو رجل يفوق عقابُه وعيدَه.

التفت نحوي:

- ولكي نحتفل بهذا الاجتماع الذي لا يُنسى، لكي ننتهي مرّة وإلى الأبد من نقيق الدّجاجة الفظيع هذا، أدعو هؤلاء لإنشاد الوداع لهذا الشّيء الرّهيب، معًا وبأعلى صوت ممكن. إنّه آخر وأقوى نقيق يشهده صاحبه... حين أعدّ إلى ثلاثة.

عدّ مانويل. وحينئذ، استطعتُ أن أقيس امتداد هذه الوحشيّة المتمثّلة في النّقيق المصطنع. امتدّ الأمر ثلاث دقائق. ثمّ طالب الأخ مانويل بالصّمت. وقال كي يختم القصّة كلّها:

- لا أريد أن أسمع بعد الآن أيَّ قوقأة، فما بالكم بالنّقيق... أمّا بالنّسبة إلى هذا السّيّد...

امتدّت سبّابته نحوي:

- ستمكث على امتداد أسبوع كامل في طلب التّوبة، ذراعاك متشابكتان طيلة ما بعد الظّهر. يمكنك أن تنصرف الآن.

خرجتُ وساقاي خدرتان تمامًا. لكنّ كبريائي كان يُسندني. وكان آدم مشدوهًا لشجاعتي. ظهر تارسيسيو من جديد. وانضمّ إليّ.

- زي، لقد احتفظت بحقيبتك. خذ!

اتّجهنا نحو صفّنا. وكنتُ أثبّت بصري في الأرض. تكلّم تارسيسيو بصوتٍ منخفض:

- عندما أدرت رأسك، شرع الأخ مانويل في الابتسام. لا أعرف ما إذا كان يعتبر الموقف مضحكًا أم أنّه ندم على ما فعله معك.

ولكنّ الحقيقة التي انتهت إليها الأمور هي أنْ لا أحد سمع نقيق الدّجاجة في الإعداديّة بعد ذلك اليوم.

- سأضع حقيبتك في مكانك.

لم أملك الجهد حتّى لأشكره. اكتفيت بالاتّجاه صوت المنصّة الخشبيّة. صعدتُ. وشابكتُ ذراعيّ. وبقيتُ جامدًا كأنّني مُسختُ حجرًا. وعندما انتهى عقابي مع رنين الجرس، جلستُ فورًا على الأرض، لأنّني كنت مرهقًا إلى حدّ بعيد حتّى إنّ بصري تشوّش. وكان بإمكاني أن أفقد وعيي ويُغمى عليّ. لكنّني تماسكتُ ومنعتُ نفسي من الانهيار.

فتح تارسيسيو حقيبتي. وأخذ كوبي معه إلى المصفاة. ملأه ماءً. وجاء به إليّ. لقد قضّيتُ طيلة ذلك الوقت دون أن أستريح أو أشرب ماءً. وفجأةً، أسرّ لي:

- يريد الأخ فيليسيانو أن يراك ويتحدّث إليك عندما يُعلن عن انطلاق الدّروس. إنّه ينتظرك في مطعم الإخوة. أمّا الآن، فعليّ أن أذهب. هل ستصل الأخبار إلى بيتك؟

رفعتُ كتفيّ غير مكترث لأيّ شيء.

- نلتقي غدًا صباحًا عند ساحة القصر.

وأومأتُ برأسي إيجابًا.

عندما رنّ الجرس، ذهبتُ مُطَأطَأَ الرّأس لألتقي فايول. وكان شاحبًا حائرًا.

- شوش المسكين! اجلس. فأنت ميت من التعب بلا شكّ. أليس كذلك؟

جلستُ. ولكنّني افتقدت الشّجاعة لأرفع بصري. كان فايول يحاول أن ينسيني الإهانة التي تعرّضت لها.

- احتفظتُ لك بقليل من المرطّبات. أعرف أنّك تحبّها. إنّها نوع من البسكويت الملفوف.

- شكرًا. ولكنّني لا أرغب فيها.

- هل أنت غاضب منّي؟

- أبدًا.

ومع ذلك، حافظتُ على عينيّ مصوّبتين إلى الأسفل. ولذلك، فعل شيئًا جرحني في داخلي. لقد رفع ذقني بأطراف أصابعه، تمامًا مثلما كان يفعل عزيزي البرتغاليّ، مانويل فالاداريس.

- إذا لم تكن غاضبًا منّي، فكُلْ قليلًا منها إذن واشرب شيئًا من الغوارانا[1].

استجبتُ لدعوته على مضضٍ وفي بطءٍ شديد.

---

(1) نبتة من منطقة الأمازون البرازيليّة، تتركّز في بذرتها مادّة الكافيين.

- أتعرف يا شوش، لا يمكنني أن أفعل شيئًا من أجلك.
- لا أحد يستطيع ذلك.
- ولكن، يجب أن نتحدّث بجدّيّة. هل تثق بي؟
- طبعًا، فايول.
- لم تخترع نقيق الدّجاجة ذاك. أليس كذلك؟
- نعم ولا.
- لا أعتقد أنّك قادر على ذلك. قل لي من ألقى خطأه عليك. أخبرني الحقيقة. وبهذا الشّكل، يمكنني أن أكلّم الأخ مانويل كي يخفّف عقابك.
- يمكنك أن تشكّ في ما أقوله فايول. لكنّ الذّنب ذنبي أنا. سأروي لك كلّ شيء. لقد كانت مزحة يقوم بها أطفال المدرسة العموميّة، هناك في بانغو قرب ريو. ولهذا أقول لك، لستُ من اخترعها. في المقابل، اقترفتُ حماقة إطلاع زملاء الصّفّ على قصّتها أثناء الحديث والثّرثرة في ما بيننا. وحينئذ، طلبوا منّي أن أحاكي النّقيق لهم. فاستجبت لأكثر من مرّة. ووجدوا ذلك مُضحكًا. وأنت تعرف كيف يتصرّف الأطفال في مثل هذه المواقف. لقد سمّوا ذلك «نقيق الدّجاجة». وانتشر الأمر واستمرّ كذلك إلى أن شمل الإعداديّة كلّها...
- أوه يا شوش! لست مذنبًا بشكل كلّيّ. وعلى كلّ حال، سأتحدّث في الأمر مع الأخ مانويل. وأحسب أنّك لن تعاقب

أكثر من أسبوع. بل إنّني سأقلّص عقوبتك لساعة واحدة فحسب. يكاد الأمر يكون محسومًا بالنّسبة إليّ. وسأؤكّد لك ذلك غدًا.

نهضتُ. وحملتُ حقيبتي.

- لقد تظاهرتَ بالأكل. ولكنّك لم تفعل.

- بعد كلّ هذا، من المستحيل أن يجد المرء رغبة في الأكل.

- إلى أين تذهب؟

- عليّ أن أذهب للدّراسة وإعداد واجباتي حتّى الخامسة.

- هل ترغب في الذّهاب؟

- أشعر بأنّ الإحراج يقتلني.

إذن سنثرثر معًا قليلًا. أنا أعفيك من الدّراسة. هل تريد ذلك؟

- مؤكّد. لكن أحتاج الذّهاب إلى الحمّام. إذ لم أعد أستطيع التّحمّل بعد.

أشار إلى الباب:

اذهب إلى حمّام الإخوة. إنّه أنظف بكثير.

انتظر عودتي. ولكنّني حين رجعتُ، لاحظت أنّ حيرته قد تبدّدت. أجلسني أمامه. وقال:

- إذن، كيف قضّيت أمس عطلة الأحد؟

- كالعادة... ذهبتُ إلى القدّاس. أنجزتُ واجباتي. وعزفتُ قليلًا على البيانو كي أروّح عن نفسي.

كانت الكلمات تخرج من فمي بصعوبة. فقد كان حزنٌ جامحٌ لا حدّ له ولا نهاية يخضّني في صدري، ويؤلمني.

- شوش! لقد فكّرتُ طويلًا في محادثةٍ جمعتنا من قبل.

- أيّها؟ إنّ محادثاتنا بلا عدد.

- تلك التي حدّثتني فيها عن علجوم كورورو يسكن قلبك.

- نعم...

- أريد أن أطلب منك، من باب صداقتنا، ألاّ تقصّ الخبر على أحد.

- أتخشى أن أودَع في المعزل.

ابتسم بلطف.

- لا. ليس هذا. أريد أن أشير إلى تشبيهه بخبز القدّاس. هل تفهم قصدي؟

- فهمت عنك.

- تلك الطّريقة التي تحدّثت بها عن الأمر ستجعل الكثير من النّاس ينظرون إليه باعتباره هرطقة أو تجديفا.

تفاجأت:

- هل تعتقد ذلك أنت أيضًا؟

- لا، لأنّني أعرفك جيّدًا وأعرف أن لا شيء ممّا هو سيّء أو شرّير يسكن قلبك. ولهذا السّبب، فكّرتُ في الأمر طويلًا. وأودّ مع ذلك أن تغيّر طريقة تفكيرك حيال المسألة.

- لا أفهمك بشكلٍ جيّد.

- الأمر بسيط. السّيّد المسيح هو الأمل الأعظم بالنّسبة إلى البشر. أليس كذلك؟

- نعم.

- أنت لا تشكّ في خبز القدّاس المكرّس لذلك؟

- فليغفر لي الرّبّ. ففي المنزل يُمنع عليّ أن أقسم بخبز القدّاس.

- إذن، افعل ما يلي: فكّر في أنّ المسيح هو أمل النّاس ورجاؤهم، وأنّ علجومك هو أيضًا أمل ورجاء، شيء مّا وهبك إيّاه السّيّد المسيح نعمةً منه.

فكّرتُ لوهلة في ما بدا لي معقّدًا جدًّا، لكنّه لم يكن في الحقيقة كذلك. فبما أنّ فايول هو الذي يقوله، فهو على حقّ دون شكّ.

- حسنًا، لن أقول هذا بعد الآن. وعلى أيّة حال، فأنا لا أريد أن أتحدّث عن آدم مع أيٍّ كان، باستثنائك أنت.

- رائع، رائع! والآن كل قليلًا من المرطّبات.

فجأةً، ألحّت عليّ فكرة أن أخبر فايول بكلّ مشاريعي الأخرى. ولاحظ هو أنّ نفحةً من السّعادة بدأت ترسل حزني إلى الجهة الأخرى.

- ألستَ تخفي عنّي شيئًا يا شوش؟

- كيف حدست ذلك؟

- من خلال النّظر في عينيك. ماذا هناك؟

توسّلته متأثّرًا جدًّا:

- هل تصدّقني؟

- أنا أصدّقك دومًا.

- حسنًا، هل تحبّ موريس؟

قطّب حاجبيه، مفكّرًا لوهلة قبل أن يجيبني:

- أيّ موريس؟

- موريس شوفالييه.

- آه، تقصد الممثّل الفرنسيّ؟

- نعم، هو. لقد عصيتُ الأوامر. وكان آدم متّفقًا معي. فبدل أن أذهب لمشاهدة فيلم مخصّص للأطفال، تسلّلت إلى شريط «درس في الحبّ».

- أوه يا شوش! كان عليك ألاّ تفعل هذا.

- لماذا؟ من هو موريس شوفالييه؟ حدّثني رجاء عن كلّ ما تعرفه عنه.

- لست أعرف الكثير في الحقيقة. ما أعرفه هو أنّه ممثّل، فنّان أغانٍ وفنّان فودفيل[1].

- ما معنى كلّ هذا؟

(1) نوعٌ مسرحيٌّ ترفيهيّ، كان شعبيًّا خصوصًا في الولايات المتّحدة وكندا ما بين 1880 و1930.

- فنّان أغان... يعني أنّه مغنّ. الكلمة مشتقّة من أغنية وتسند إليها، كما ترى. أمّا الفودفيل فهو مسرح مُغنّى وراقص.

- ولكن، لم يكن هناك الكثير من الموسيقى والرّقص في الفيلم. وقد غنّى بشكل محتشم ومقلّ حسب رأيي. ولكن لا تخش شيئًا، فلن يلوّثني بالفضيحة كما يُقال في بيتي.

- ورغم ذلك، فهو ليس فيلمًا لمن هو في مثل سنّك. هل رآك شخص مّا في السّينما؟

- لقد اختبأتُ بشكل جيّد في ركن مظلم.

مكثنا صامتين لبعض الوقت. حكّ رأسه الأحمر ذا الشّعر القصير جدًّا. وأطلق صفيرًا من دون موسيقى، كدأبه كلّما شعر بالحرج.

- ولكن في نهاية المطاف، لماذا تهتمّ يا شوش بهذا الممثّل إلى هذه الدّرجة؟

- هل شاهدت تمثيله من قبل؟ لا، أعرف ذلك. ولكنّه إنسانيّ جدًّا. له ابتسامة رائعة الجمال. وهو طريف مضحك. لا يلبس إلاّ الملابس الأنيقة. وقدّ قرّرتُ بصحبة آدم أن يصير أبي.

- بحقّ الإيمان يا فتى! ها هو ذا اختراع جديد من اختراعاتك.

ولكنّه عندما لاحظ ملامح الجدّ في وجهي، غيّر قسماته. واكتشف فيّ من جديد الطّفل الوحيد الذي عرفه منذ البداية.

- لا تبق هكذا يا شوش. تابع حديثك.

- هذا كلّ شيء. حقًّا، كلّ شيء.

أمسك يديّ. وسألني بتجهّم:

- ولكن، لماذا تريد كلّ هؤلاء الآباء؟ أبوك يا شوش رجل طيّب لا يريد لك إلاّ السّعادة والخير...

- ربّما، ولكنّني أريد أبًا يعتبرني شخصًا ذا كرامة، أبًا لا يقول عندما يهبني هديّة إنّني لا أستحقّها، أبًا ينسى أنّني ابن هنديّة، أبًا...

سحبتُ يديّ من كفّه. وأرخيتُ رأسي على الطّاولة. ثمّ حجبته بذراعيّ. وانطلقتُ في النّشيج، مسترسلًا في الكلام:

- أريد أبًا يأتي إلى غرفتي ليقول لي تصبح على خير، أبًا يضع كفّه على رأسي ويمسّحه، يدخل غرفتي وإذا وجد الغطاء مُنحًى عن جسدي يغطّيني مُجَدّدًا بلطف، أبًا يقبّلني وهو يرجو لي ليلة سعيدة.

وضع فايول يده على ذراعي. وانتظر أن تمرّ أزمة بكائي:

- إنّني أفهمك يا شوش. أفهم الأمر...

ثمّ أخرج منديلًا ذا مربّعات سوداء وبيضاء كي يمسح دموعي. وأسوأ ما في الأمر أنّه يشبه منديل مانويل فالاداريس.

- هيّا، هيّا جفّف دموعك. وتمخّط. لقد قضّيت نهارًا سيّئًا، امتزج كلّ شيء فيه من أجل أن تكون الآن حزينًا. ولكنّه سيمرّ ويمضي. وغَدًا نهارٌ آخر.

وفجأةً وقف كمن هجمت عليه فكرة عظيمة. وقال:

- اسمعني يا شوش. هل يمكنك أن تنتظرني ربع ساعة؟ أتعدني ألاّ تتحرّك من هنا؟

أومأتُ مُوافقًا. فأضاف:

- سأعود بعد حين.

خرج. وغاب طيلة الفترة التي أعلن عنها. ثمّ عاد بملامح الرّضا:

- لقد نجحت. تحدّثت مع الأخ مانويل. وهو ينتظرك الآن في الرّواق. سيرفع عنك العقوبة. ولذلك اذهب يا شوش، اذهب شُجاعًا ولا تخف.

خرجتُ إلى الرّواق. فلمحتُ في طرفه الأخ مانويل، وهو يلعب بحزامه. أخذت خطواتي تثقل شيئًا فشيئًا كأنّها من رصاص. ولكن، وجب عليّ أن أتابع المشي. وفي تلك اللّحظة، أثبت لي آدم مرّةً أخرى أنّه صديق حقيقيّ:

- هيّا يا زيزا. وإيّاك والوقاحة!

بدا لي الأخ طويلًا بعيدًا كأنّه بطول مائتي متر. وها إنّي أبعد عنه مسافة خمس خطوات، ذراعاه متشابكان. تقدّمتُ إليه مرتجفًا. ولم أستطع أن أرفع عينيّ عن الأرضيّة الإسمنتيّة.

- فاسكونسيلوس!

تغيّر صوتُه تمامًا. لا شكّ أنّه رجل آخر. ارتجفت أكثر من قبل،

وجعلت الدّموع تتدفّق من عينيّ بقوّة. وإذ رأى أنّني كنتُ أستند إلى نافذة حتّى لا أسقط، دنا منّي، وركع، فرفع ذقني.

- ما كلّ هذا أيّها الرّضيع الكبير؟

غطّس يده في جيب ثوبه. وسحب منديلًا ذا مربّعات سوداء وبيضاء كذلك. مسح دموعي دون أن يتلفّظ بكلمةٍ واحدة. ثمّ ألقى عليّ هذا الاعتراف:

- وجب عليّ أن أفعل ذلك يا صغيري. هل تحسب أنّ الأمر يُمتعني؟ أتعتقد أنّه من السّهل أن أقول كلّ ما قلته لولد صغيرٍ مثلك؟

نهض. وحملني بين ذراعيه.

- والآن، انتهى الأمر. لن نتحدّث فيه بعد الآن. لقد أخبرني الأخ فيليسيانو بكلّ شيء. ولستَ مُذنبًا. هل صرتَ بخير؟

وضعني على الأرض. وابتسم في لحيته السّوداء.

- اتّفقنا؟

مدّ يده ليصافحني. واستجبتُ له.

- والآن، اذهب وانس كلّ شيء.

أمسكني من كتفيّ. وجعلني ألتفّ في الاتّجاه المعاكس. ثمّ ضربني ضربةً ودّيّةً لطيفة، وهو يدفعني إلى الأمام.

(5)
الحلم

كان سلوكي في البيت يُحيّر الجميع ويُقلقهم. كلّ الذين يأتون إلى منزلنا يوجّهون مديحهم وإطراءهم لأختي. أمّا أنا، فكنتُ أمقتُ كلّ هذا. ويكفي أن أعرف أنّ شخصًا مّا في منزلنا حتّى أختفي تمامًا. وإذا كنتُ ساعتَها في الخارج، فإنّني أدبّر أمري كي أدخل عبر نافذة غرفتي، دون أن يلاحظني أحد.

كم كان يرعبني أن أمدّ يدي للمصافحة أو أبتسم أو أُتمتم بكلماتِ لُطفٍ لأيٍّ كان. وإذا أنهيتُ تمرين البيانو ووُهبتُ نصفَ ساعةٍ للّعب، كنتُ أستعيض عنها بالذهاب إلى غرفتي مباشرةً. لذلك لم يعد هذا السلوك يثير تعجّبَ أحدٍ لفَرْط تكراره.

وفي كلّ مرّة تقريبًا، أجد موريس جالسًا على المقعد الكبير الذي لم يعد يرغب فيه أحد لأنّه صار قديمًا بلا لون ومُخرَّبَ النّوابض. وفي أحيان أخرى، يلوح لي عندما أكون مستلقيًا بصدد إنهاء صلاتي. يأتي دائمًا بهذا الملمح الذي يميّزه، لطيفًا ذا ابتسامة عريضة وعينين برّاقتين ينتقل لونهما من الرّماديّ إلى الأزرق.

– كيف حالك يا ولدي؟

ينحني. فيقبّلني. ويسأل عن كلّ ما فعلته، كلّ ما حدث لي في

غيابه. كانت ملابسُه جميلةً جدًّا وطيّةُ سرواله مثاليّة. ويضوع منه دومًا عطرٌ فاخر أتلذّذ بتشمّمه.

ولكنّه تأخّر كثيرًا في تلك اللّيلة. وهو ما أزعجني، صحيحٌ أنّه يستيقظ باكرًا جدًّا للذّهاب إلى التّصوير في الاستوديو كما شرح لي من قبل، ولكن، إذا جاء إليّ متأخّرًا فإنّه سيُضطرّ إلى عدم البقاء معي طويلًا.

- إنّني قلق يا آدم.
- إنّك أبله يا زيزا. انتظر قليلًا. وكفاك ذعرًا.

شرحتُ له مخاوفي.

- قد يكون موريس في عطلة يوم غد، فيستطيع أن يبقى معك لفترةٍ أطول. لقد حدث هذا مرّة من قبل.
- ثلاث مرّات.
- إذن...

صمتُّ. وأخذتُ أتلو صلاة نوتردام دو لورد التي أعشقها. فقد كانت، في نظري، أعظمَ سيّدةٍ من بين كلّ النّوتردامات. كنتُ مخلصًا لها على نحو يجعلني أنقص من قيمة الأخريات. فمثلًا، كنت أعتقد دومًا أنّ نوتردام دو فاطمة[1] هي خادمة لدى نوتردام دو لورد، التي كانت تستجيب لكلّ ما أطلبه منها.

---

(1) فاطمة هي مدينة في البرتغال سُمّيت على اسم فاطمة، ابنة النّبيّ محمّد. ونوتردام دو فاطمة هو الاسم الذي تعيّنُ به السّيّدة مريم وتُستحضر، كما تجلّت ستّ مرّات لثلاثة أطفال في مدينة فاطمة، سنة 1917.

ثمّ جاء موريس، وقد فاجأني كعادته. دخل من حيث لا أعلم. وهو نادرًا ما يستخدم الباب، كي لا يثير انتباه أحد. كان الأمر رائعًا. فقد نزل هذه المرّة من السّقف. وهو لا يجد أيّ صعوبة في النّفاذ عبر الجدران أو حتّى النّافذة المغلقة. وللأسف، لم تكن هناك طريقة تسمح له بأن يعلّمني مثل هذه الحيل العجيبة.

- إذن؟

- كدتُ أنام. لقد تأخّرت كثيرًا يا موريس.

كنتُ أُسند وجنتي إلى يدي.

- لقد أنهينا التّصوير في وقتٍ متأخّر. ولكن بما أنّني في عطلة يوم غد...

- هذا ما قاله آدم.

- آدم هذا ماكرٌ عظيم.

- صحيح. ألم تجلب معك اليوم قبّعتك القشّ؟

- الطّقس بارد هناك. ولذلك ارتديتُ بذلة أثقل لا تتماشى مع القبّعة.

لم يفسّر لي مُطْلَقًا أين يوجد هذا الـ«هناك». ولم أتجرّأ أنا أيضًا على سؤاله. عبَرتْ وجهي فكرةٌ مقلقة. واصطادت انتباه موريس.

- ماذا هناك الآن؟

- شيء مّا، فكّرتُ فيه كثيرًا خلال هذه الأيّام.

- حدّثني عنه إذن، فلا أسرار بيننا. ألم نتفّق على ذلك؟

- ولكن، من الغباء أن يسأل المرء عن هذا الأمر.

وبما أنّه ظلّ مستفهمًا من خلال نظراته المصوّبة نحوي، استسلمتُ وقلت له:

- إنّني أخشى أن يحدث لك شيء مّا.

- ولماذا تفكّر في هذه المسألة؟

- شعرتُ بالحزن الشّديد. وسألته في اندفاع مفاجئ:

- لن تموت. أليس كذلك يا موريس؟

ضحك بقوّةٍ وفي ابتهاج:

- أنوي أن أنتظر طويلًا قبل أن يحدث ذلك. وصحّتي جيّدة جدًّا.

وحين لاحظ أنّني مازلتُ مسترسلًا في البكاء، عبس وتجهّم قائلًا:

- ما كلّ هذا الآن؟ كيف يناديك ذلك الأخ في الإعداديّة؟

- شوش.

- حسنًا يا شوش. ما الأمر إذن؟

- إنّني لا أحبّ كثيرًا أن أحبّ النّاس. وعندما يحدث هذا، أخشى أن يموتوا.

- هل مات سلفًا الكثيرُ من النّاس الذين تحبّهم؟

- الكثير؟ لا... رجل واحد كان قد علّمني أنّ الحياة بلا حنان لا تساوي شيئًا.

رويتُ له بسرعةٍ قصّةَ مانويل فالاداريس، عزيزي البرتغاليّ الطّيّب الذي انتزعه منّي قطار يُدعى مانغاراتيبا.

أمسك موريس بيدي متأثّرًا جدًّا:

– كم كان عمرك حينذاك يا شوش؟

– بين الخامسة والسّادسة؟

– نعم، للحياة مثل هذه المظالم يا صغيري. إنّه أسًى عظيم بالنّسبة إلى سنّك.

– أحدّثك عن هذا يا موريس لأنّني أحبّك كثيرًا. ومن الصّعب جدًّا أن يلتقي المرء شخصًا مثلك في الحياة التي لا أعرف...

– يمكنك أن تطمئنّ. يمكنك ذلك. سيكون كلّ شيء بخير. لن أموت. ولن تكون حزينًا بعد الآن.

– أودّ كذلك أن أسألك سؤالًا آخر، طرحته من قبل على آدم. هل سترحل ذات يوم؟

– من يدري؟ سأمكث معك حتّى تصبح في غنًى عنّي، حتّى أتيقّن من أنّك أصبحت رجلًا فتيًّا يجيد التّصرّف بمفرده. هل هذا جيّد؟

– نعم. ولكن شرط أن يكون هذا بعد زمنٍ طويلٍ جدًّا.

شعرتُ بالاطمئنان قليلًا. ومع ذلك، رغم وجود موريس إلى جانبي فإنّ شيئًا مّا مؤلمًا كان يسكنني.

- أيمكنني أن أحدّثك مرّةً أخرى عن شيء محزن؟
- حسنًا. ولكن هذه المرّة فحسب.
- إنّها مسألة وجيزة يا موريس. لم أعرف مُطْلَقًا أين حُمل عزيزي البرتغاليّ عندما مات... مُطْلَقًا. وعلى أيّة حال، ما الذي يمكن لطفل في السّادسة أن يفعله حيال ذلك؟ لقد انتقلنا إلى بيت جديد بُعيْد موته. ثمّ عدنا إلى بانغو. وسريعًا جدًّا جدًّا بعد ذلك، وُهبت لأبي بالتّبنّي كي أدرس وأصبح شخصًا مُعتبَرا، فأخفّف البؤس عن عائلتي.
- إذن، عليك أن تنسى الأشياء التي تركتها خلفك وتدرس كثيرًا وبجدّ حتى تساعد أهلك.
رغبتُ في الضّحك.
- لماذا تضحك؟
- لأنّك تتحدّث في كثير من الأحيان مثل آدم، كأنّكما متّفقان معًا على ما تقولانه لي.
- حسنًا، صديقنا الطّيّب آدم ولَدٌ حكيم. كما أنّ الجميع يكتسب مع مرور الوقت تلك المَلَكة التي بدأت منذ فترةٍ تنمو في داخلك والّتي تُسمّى المنطق السّليم. والآن، سأمكث لوقت وجيز ثمّ أغادر. فقد تأخّر الوقت لا بالنّسبة إليّ وإنّما بالنّسبة إليك أنت. إذ تستيقظ غَدًا باكرًا.
- هل تتناول فطور صباحك في السّرير مثلما حدث في الفيلم؟
- دومًا. الأمرُ رائعٌ جدًّا.

- النّاس هنا في البرازيل من الطّراز القديم. وفي نظرهم، مثل هذا لا يجوز.

- ولكنّه ليس ضروريًّا كذلك. فحين يستوجب الوضع، أجلس إلى الطّاولة مع الآخرين.

فكّر موريس:

- أوشكتَ أن تقول لي شيئًا ليلة أمس. ولكنّك نمتَ قبل أن تفعل ذلك. قصّة حرب الأزياء الموحّدة... هل تذكر؟

- لقد كانت حربًا رائعة. ولكن لا أعرف ما إذا كانت ستعجبك كثيرًا. اعلم أنّها لا تتضمّن نهايةً فظيعة كما هو الحال في حكاية نقيق الدّجاجة.

- هل هي إحدى دعاباتك في الإعداديّة؟

- نعم. ولكن لم توجد أيّ دعابات أخرى بعدها. عندما دخلتُ الإعداديّة في السّنة الماضية، كانت أزياء التّلاميذ الموحّدة مزرّرة حتّى الذّقن. لا يمكنك أن تتخيّل كم هي غير مريحة. وخصوصًا إذا فكّرت في هذه الحرارة التي تسود النّهار كلّه وفينا نحن، سجناء الأقسام المشتعلة... العرق الذي ينزلق على العنق وما إلى ذلك. وذات يوم، كنتُ أرتدي ملابسي في المنزل. فوقفتُ أمام المرآة. وفتحتُ أعلى الزّيّ الموحّد. لويتُ الياقة إلى الخلف. ورفعتُ فوقها ياقة القميص. وتركتُه نصف مفتوح. لقد كان مشهدًا عجيبًا. فقلتُ في نفسي: «منذ هذه اللّحظة فصاعدًا، سأرتديه بهذا الشّكل». وغادرتُ

المنزل بتلك الهيأة. لكنّ الأمر لم ينجح كما خطّطتُ له. فقد اعترضني في مدخل الإعداديّة الأخ جوزيه، وهو السّيّد المدير. هذا الأخ فرنسيّ مثلك يا موريس. لكنّ له حاجبين كَثّين جدًّا، ملتحمين كأنّهما جسر. وعندما يغضبُ، تهتزّ هذه الأجمة السّوداء على جبينه مثل الشّيهم[1].

- ما هذه المستجدّات سينيور فاسكونسيلوس؟

كان صوتُه مرعبًا.

- ارتد زيّك بشكل سويّ!

أطعتُه مرتجفًا، وأنا أقبّل يده المكسوّة بالزّغب والعرق.

في طريق عودتي إلى البيت، توقّفتُ في حديقة الكاتدرائيّة. ألقيتُ حقيبتي على مقعد. وفتحت الزّيّ. أيّ متعة تلك! لقد تفاجأ صديقي.

- جرّب ذلك يا تارسيسيو. إنّه ممتع بشكل شيطانيّ.

- لا. إذا مرّ أخٌ من هنا، فإنّه سيعاقبنا.

- من سيمرّ من هنا في مثل هذه السّاعة؟ إنّهم بصدد تلاوة كتيّب الصّلوات أو شيء من هذا القبيل.

ومع ذلك، ظلّ تارسيسيو متردّدًا:

- سأجرّب الأمر في غرفتي، في البيت.

وفجأةً، نفخ الشّيطان فكرةً خبيثةً في داخلي.

---

(1) عائلة من القوارض يميّزها غطاء من الأشواك الحادّة الذي تستخدمه للدّفاع عن نفسها من الحيوانات المفترسة.

- يمكننا أن نطلق حربًا نسمّيها حرب الأزياء الموحّدة.

- وننتهي معاقبين مثلك عندما ابتدعت نقيق الدّجاجة؟

- إذا كنتَ لا تريد ذلك، فلا مشكلة لديّ. سأنطلق في الأمر وحدي. وسترى كيف تسير الأمور.

وفعلًا، رحتُ أقتنص كلّ فرصة سانحة لأعدّل زيّي الثّوريّ، حتّى إنّ جرأتي ظلّت تتعاظم لتسمح لي بالذّهاب إلى الاستراحة بالزّيّ نصف مفتوح. دخلتُ القسم. فانفجر الصّوت:

- الزّيَّ يا فاسكونسيلوس!

استجبتُ له. ولكنّني أعدتهُ كما كان في أوّل مناسبة مواتية، كأنّ الشّيطان يحرّضني بلا هوادة على ذلك. وتحوّل الأمر إلى لازمة تتكرّر باستمرار وبلا هوادة؛ الزّيّ يا فاسكونسيلوس! فاسكونسيلوس، الزّيّ! الزّيّ يا فاسكونسيلوس! فاسكونسيولس، الزّيّ!

ثمّ تطوّر الأمر. واحتدّ:

- فاسكونسيلوس، أنت مُعاقب.

أزرّر الزّيّ. وأقف إزاء الحائط، مشابكًا ذراعيّ.

ثمّ هجم الوعيدُ:

- سوف تسوء علاماتك في بطاقة الدّرجات.

وتحصّلتُ على علامات سيّئة. عوقبتُ. ووبّختُ. وتمّ تهديدي بالاتّصال بالبيت. كان الأمر ليسوء أكثر. ولكن لحسن حظّي، لم يحدث ذلك في النّهاية.

لقد قاتلتُ طويلًا في حربي هذه حتّى تؤتي أكلها. انتشرت الحماقات بسرعة. وظهر المحاكون أخيرًا. لقد تحوّل القسم إلى صفّ متمرّدين. الزّيّ! أنت معاقب! سوف تسوء علاماتك في بطاقة الدّرجات! وهكذا دواليك... ويكفي أن نبتعد قليلًا عن الإعداديّة حتّى تبدأ الأزياء الموحّدة في الانفتاح.

صرتُ الآن أمام فايول.

شوش، لا تفعل هذا. أغلق زيّك.

أشفقتُ عليه. فأغلقتُه:

- المعذرة يا فايول.

- والآن، يجب أن تأتي معي إلى قاعة اجتماعات الإخوة. لماذا تفعل هذا يا شوش؟ لم أرَ ولدًا صغيرًا مثلك من قبل، وهو يخترع كلّ هذه المشاكل لنفسه.

مشيت خلف فايول ببطء شديد. دخلنا القاعة الكبيرة. كان كلّ إخوة الإعداديّة متحلّقين حول الطّاولة، ينتظرونني في صمت. وُجّهت إليّ الأوامر بأن أقف قبالتهم تمامًا، ولكن من دون أن أشابك ذراعيّ. كم هو فظيع أن يُراقَبَ المرء من قِبَل كلّ هذه النّظرات الجادّة! وحتّى فايول نفسه، جلس في الجهة المقابلة. وكلّما أفلتُّ من نظرة الأخ مانويل وقعتُ تمامًا في سهم نظرات الأخ جواكيم. كان الأخ فلافيو الوحيد الذي يلوح شيء من التّعاطف في نظرته. ظلّ يحجبُ ابتسامته. وكان بإمكاني أن أستمتع بها. لكنّني لو حدّقت فيه مليًّا لانفجر ضاحكًا. من سيبادر بإلقاء الاتّهام يا ترى؟

ثمّة شيء مؤكّد؛ إنّهم يتقاذفون الكرة، كلٌّ لصاحبه. لن يقوم الأخ لويز بهذه المبادرة أبدًا. والأخ أونيسيمو يفتقد الشّجاعة لفعل ذلك. فلسانُه البرتغاليّ مشوّش مرتبك. أمّا الأخ إستفاو الذي يلقّب في ظهره بفرانكشتاين، فهو يفضّل دون شكّ أن يوجّه إليّ صفعةً وينتظر أن تستقيم الأمور. إنّه المدير، من اتّخذ القرار بالحركة الأولى في النّهاية. اهتزّ حاجباه العملاقان ببطء. وقال لي:

- سنيور فاسكونسيلوس.

لقد تمّ الأمر. وها نحنُ نؤثّث المشهد معًا. كان شعري الأشقر الذي يكاد يبيضّ لونه يلتصق بجبهتي، مبلّلًا بالعرق. وما خرج من حنجرتي لم يكن صوتًا، بل شيئًا مّا يكاد يشبه الصّوت:

- حاضر أيّها الأخ جوزيه.

ظلّ فايول يحدّق ثابتًا في الطّاولة. لا شكّ أنّه كان يُحصي كلّ المهامّ، أو لعلّه يصلّي من أجلي.

- إذن يا سنيور فاسكونسيلوس. سوف تمتعنا بعرض طريقتك في ارتداء الزّيّ الموحّد. أليس كذلك؟

تردّدتُ قليلًا. لكنّ حاجبيه الكثّين ارتفعا عاليًا، ليجعلاه صحبة العينين السّوداوين اللاّمعتين شبيهًا بالبومة الغاضبة.

- ما الذي تنتظره؟ ألستَ تتباهى بارتدائه بتلك الطّريقة، منتهكًا قواعد الإعداديّة؟

ارتجفت أصابعي المتجمّدة. ولم تنجح في أن تفكّ طرفي الياقة. ثمّ ارتجف جسدي كلّه.

ومع ذلك، كان من العاجل أن أطيع أمره. ولذلك، نجحتُ في النّهاية في تحرير ياقة قميصي.

- إنّك أنت من اخترع هذه الموضة. أليس كذلك؟

لم ينجُم صوتي. فجازف الأخ مانويل بتقديم رأيه:

- لن تنفي هذه المرّة أنّك من ابتدع الأمر. لقد قبلنا تبريراتك وشروحاتك في ما يخصّ نقيق الدّجاجة. والآن؟ ماذا ستقول؟

- إنّه أنا أيّها الأخ المدير. أنا بمفردي.

- ولماذا؟

ولِمَ الإنكار؟ عزمتُ على أن أجرّب حظّي مع قول الحقيقة.

- لأنّ الزيّ الموحّد قبيح جدًّا.

- وماذا أيضًا؟

- ولأنّ المرء، على هذا النّحو، لا يشعر بالحرارة بنفس الشّكل القديم. كما أنّه لا يكون شبه مختنق.

- هل هناك سبب آخر؟

- هكذا أجمل.

- سبب آخر؟

- مع الياقة المفتوحة، لا يؤلمني رأسي كثيرًا. هناك لحظات في القسم نتنبه فيها كثيرًا ويكون الجوّ حارًّا جدًّا. فينفجر رأسي. صمتُّ. وامتلأت عيناي بالدّموع. وأصبح صوت الأخ جوزيه ناعمًا جدًّا حتّى إنّني انتفضتُ في مكاني.

- هل تعرف ما ينتظرك؟

- لا شكّ أنّني سأظلّ معاقبًا طيلة حياتي. سأكتب ألف سطر أقول فيها إنّه لا يجدر بي أن أرتدي الزّيّ الموحّد بهذا الشّكل. وفي النّهاية، سيتمّ الاتّصال بالبيت فأحرم من السّينما والشّاطئ.

يُقال إنّ قلبَ المرء لا يتسبّب في ألمه. ولكنّ قلبي كان يؤلمني. ظهرت في البداية شبكة رقيقة من الدّموع. ثمّ انفجرتُ لاحقًا. فتحوّلت إلى فيضانات حقيقيّة تغمر وجهي.

- أنا... أفضّل أن أموت، أن أكسر زجاج خزانة الكيمياء وألتقط حجرًا مسمومًا. وهكذا، لن يعاقبني أحد بعد الآن.

- حسنًا، حسنًا. ليس من الضّروريّ أن تموت هذه المرّة. أمّا بالنّسبة إلى العقاب، فسيكون شيئًا مّا للدّراسة. والآن انسحب. واذهب لتجلس في مكتب الأخ فيليسيانو. سوف نناديك لاحقًا.

أطعت الأمر. ورحتُ أمشي كأنّني مُصاب بالهُزال ولا أزن شيئًا. مكثتُ في مكاني أشاهد رسم البلاط الأرضيّ وأوقّع نشيجي بلحظاتٍ من الصّمت، آملًا أن يبتلعني أوّل ثقب يعترضني. ثمّ فقدتُ إحساسي بالزّمن. ولم أنتبه إلاّ حين وجّه الجرس الكبير أمره بالانضمام إلى الأقسام. رفعتُ رأسي. فوجدتُ فايول يتقدّم ببطء نحوي. وبدا في عينيه ملمح الرّضا العظيم. اقترب منّي. ولم أشعر هذه المرّة بالرّغبة في إمساك حزامه كي أنفجر ضاحكًا.

- شوش!

لم أجب. إذ لم أكن أملك الشّجاعة حتّى للنّظر في عينيه.

- اسمع يا شوش. لديّ نبأٌ عظيمٌ أُنبئك به.

لا شكّ أنّه قد توصّل إلى تقليص عقوبتي وتخفيفها، أو أنّ الاتّصال الهاتفيّ بالبيت قد ألغي.

- لن أخبرك به إلاّ إذا نظرت إليّ. لا تغضب منّي. كنتُ أودّ ملء إرادتي لو لم يحدث كلّ هذا.

رفعتُ رأسي. فوجدتُ وجهه قد عاد من جديد شمسًا من الطّيبة. يمسك بيدٍ مسطرةً صغيرة من المطّاط ينقر بها نقرات خفيفة على كفّ يده الأخرى.

- هل تثق بي يا شوش؟

- دومًا. لو لم أكن أثق بك، فبمن سأثق في الحياة؟

- إذن، تعال هنا.

أطيعه. فيرفع وجهي بلطف.

- لقد حدثت معجزة يا شوش، معجزة لم أكن أنا نفسي آمل حدوثها. أتعرف ما الذي حدث؟ لقد ربحت الحرب.

- ألن أعاقب يا فايول؟

- لا. بل العكس من ذلك. لقد أدهشتهم كثيرًا. وقد وجدوا أنّك ذكيّ جدًّا. تحدّثوا في ما بينهم طويلًا. وتوصّلوا إلى استنتاج مفاده أنّك على حقّ.

لو لم يكن أخًا في المدرسة لقفزتُ متشبّثا بعنقه.

- والآن لن أخبرك بالبقيّة، أي بقرارهم إلاّ إذا أجبتني بصدق.

رسمتُ صليبًا على صدري. وأقسمتُ به.

- لم يكن حقيقيًّا ما قلته منذ حين... قصّة السّمّ هذا الذي تريد أن تسرقه من قاعة الكيمياء. أليس كذلك؟

- لقد كذبتُ يا فايول.

تنهّد بعمق، وفي ارتياح شديد.

- لقد كذبتُ يا فايول، لأنّني لستُ في حاجة إلى أن أكسر زجاج الخزانة. كان الأخ آرماندو ذات مرّة يمسح الغبار عن الحجارة وأنا أساعده في ذلك. وفي لحظة لم يكن يراقبني فيها سرقتُ قطعةً من الحجر، ظللتُ أحملها دومًا معي. أرغبُ في معظم الأحيان أن أموت.

ومرّةً أخرى، أوشكت الدّموع أن تظهر من جديد.

- ولكن يا شوش. مازلتَ طفلًا صغيرًا. إنّك لم تدرك الثّانية عشْرة بعْدُ. فلماذا تفكّر في مثل هذه المسائل؟

- لأنّني طفلٌ حزين. يقضّي الجميع وقتهم في القول لي إنّني لا أساوي الطّعام الذي أتناوله، إنّني هنديّ ومجرّد بيناجيه متوحّش ولا أصلح لشيء.

وفي تلك اللّحظة، انفجرتُ باكيًا.

- كلّ هذه الأشياء مجرّد حماقات. ليس صحيحًا ما تقوله.

الحقيقة أنّك طفلٌ مجتهد، ذكيٌّ جدًّا وحيويّ جدًّا. ألم تقل لي إنّ الجميع مندهشٌ لأنّك صغير جدًّا ومع ذلك تتجاوز سنّك بدرجات بعيدة؟ هل نسيت أنّك سوف تكون التّلميذ الوحيد الذي يختم الإعداديّة في سنّ الخامسة عشرة؟ إذن؟ هيّا يا شوش، لا تبكِ. سوف تستقيم الأشياء مع مرور الوقت. وأنا متيقّن من أنّك سوف تصير طفلًا سعيدًا مثل الآخرين. ألستُ صديقك؟ حسنًا، اعلم أنّ الكثير من النّاس على الأرض لا يملكون صديقًا واحدًا. ألا تصدّقني؟

اصطدم فزعي بطيبة الأخ فيليسيانو التي عدّلت مزاجي.

- هيّا، خذ.

مدّ لي مرّةً أخرى المنديل ذا المربّعات السّوداء والبيضاء.

- هل تحسّنت؟

- نعم.

- إذا طلبتُ منك شيئًا مّا، هل تقوم به؟ لكنّه شيء يظلّ بين صديق وصديقه. أتعدني بذلك؟

- أعدك.

- حذار! لقد وعدتني. وإذا وفيت بوعدك سأشتري لك باقة صور من تلك الصّور الكبيرة التي يؤلّف بها جميع الأطفال ألبومات رائعة. ألست مولعًا بجمعها؟

- لا. لم أملك يومًا المال لاقتنائها. فعندما أرغب مثلًا في

تناول المثلّجات التي تؤلم حنجرتي، أستخدم المال المخصّص للتراموای وأعود إلى البيت مشيا على القدمين.

حرّك فايول كفّيه معًا. وقال لي:

- باقة كبيرة بهذا الحجم.

ابتسمتُ.

- لا حاجة إلى ذلك يا فايول. فمن أجلك أنت أفعل أيّ شيء دون مقابل. قل لي إذن. ما الأمر؟

لاح التّردّد على ملامح فايول، كأنّه يخشى أن يخسر رهانًا.

- اسمح لي بأن أرى الحجر المسموم.

لم أعترض. بل غمستُ يدي في جيب سترتي. فسُمع ارتطام ثلاث كريّات، كان الحجر محشوًّا بينها. وضعتُه في تجويف يدي. فانبسط إزاء الضّوء جميلًا أزرق.

- جميل. أليس كذلك؟

- إنّه جميلٌ حقًّا. لكنّه حزين وخطيرٌ أيضًا.

حدّق في عينيّ طويلًا، بشكلٍ لم يقم به من قبل. ثمّ خرج صوته متوسّلًا:

- ألا تريد أن تعطيني هذا الحجر يا شوش؟

- لماذا تريده يا فايول؟ إنّك سعيد. وتحمل الرّبّ في قلبك. أليس هذا ما تقوله؟

- طبعًا. ولكنّني لا أريد أن يقوم صغيري شوش بأيّ حماقة

أو يفكّر فيها مجرّد تفكير. أيمكنك أن تتخيّل كم سأظلّ قلقًا على الدّوام إذا عرفتُ أنّك مازلت تحمل هذا في جيبك وظللتُ أفكّر في الخطر الذي تعرّض نفسك له؟

- حسنًا، يمكنك الاحتفاظ به. إذا أردتُ الموت سأجد أيّ طريقة أخرى. لا مشكلة في الأمر.

- نعم. أفضّل هذا. لديك الكثير لتعيشه يا صغيري. أمّا قصّة الموت هذه، فمن الأفضل أن نتركها بين يدي الرّبّ الرّحيم.

لقد فاز برهانه.

- والآن، ما البقيّة يا فايول؟

- أيّ بقيّة يا شوش؟

لقد نسي في غمرة تأثّره كلّ شيء. ضرب جبينه. وقال:

- يا إلهي! ماذا حدث لي؟

ضحك مبتهجًا. وأردف:

- لقد حدثت معجزة كما قلت لك. إذ أنّهم لم يكتفوا بالعدول عن معاقبتك، وإنّما أيضًا سمحوا لك بارتداء زيّك الموحّد كما تشاء. إنّنا نوشك أن ندرك نهاية شهر يوليو. ولذلك سيكون مسموحًا لجميع التّلاميذ أن يرتدوا زيّهم الموحّد على الطّريقة التي يفضّلونها. أمّا بالنّسبة إلى السّنة القادمة، فقد تقرّر الأمر. سوف يتمّ تغيير الأزياء. لقد فزت في الحرب يا شوش. والآن، هيّا اذهب. يمكنك أن تصل متأخّرًا. لن يعترض الأخ آمادو على ذلك. هل سمعتني؟

ظللتُ واقفًا دون حركة، متأمّلًا سعادته.

- أترى يا شوش كم الحياة جميلة في بعض الأحيان؟

- فعلًا، هذا صحيح.

مشيتُ إلى الوراء حتّى وصلتُ إلى الباب، كي لا أفوّت على نفسي أيّ لحظة من لحظات سعادته. توقّفت قليلًا أمام العتبة، فقط لأصغي إلى تعليقه: «يا قلب الذّهب!».

التفتُّ إلى موريس. وكان يتأمّلني بعطفٍ وحنان.

- لقد أطلتُ عليك يا موريس. أليس كذلك؟

- لا. كان حديثك شيّقًا.

- حسبت أنّني دفعتك إلى الضّجر.

- مُطْلَقًا... ولو لدقيقة واحدة. أتعرف يا صغيري أنّك أحد أكثر الكائنات العاطفيّة التي التقيتها في حياتي؟

جعلتني كلمات موريس أشعر بالفخر الشّديد. أمّا هو، فقد نظر إلى ساعته.

- كم هي جميلة! هل هي ذهبيّة؟

- كلّها من ذهب. حتّى سوارها كذلك.

لم أر ما هو أجمل منها في حياتي. صحيح أنّني لم أر الكثير من السّاعات أصلًا. ولكنّني حين أكبر، سوف أشتري ساعةً مثلها.

- دون شكّ. ولكن، أتعرف ما الذي تقوله ساعتي؟ حانت السّاعة التي يغمض فيها الأطفال عيونهم كي يحلموا.

- هل تحلم كثيرًا موريس؟

- نادرًا. يصبح المرء رجلًا، يشقّ طريقه في الحياة وتتغيّر الأشياء من حوله.

- أوه، بالنّسبة إليّ فأنا أحلم بشكل فظيع. ما إن أضع رأسي على الوسادة، وأرخي قلبي كما علّمني آدم حتّى تنطلق الأحلام.

- لو كان بإمكاني... لو كان بإمكاني... إذن، فلنر كيف يحدث الأمر. أرني كيف تستعدّ للحلم.

- هكذا.

ربّتُّ على وسادتي. ووضعتُ رأسي عليها. رفع موريس الغطاء حتّى صدري. وهمس:

- والآن «يا صغروني»، عليّ أن أنبّهك إلى شيء حتّى لا تحزن في ما بعد كثيرًا. اتّفقنا؟ سأقضّي أسبوعًا كاملًا دون أن أتمكّن من الظّهور لك. ولكنّني سأعود حالما يُصبح الأمر مُتاحًا. ولن يتمّ ذلك قبل الخميس المقبل.

أمسكتُ بيديه بشدّة. فأفلتهما ببطء. ثمّ مسّح على شعري.

- موريس، ما معنى كلمة «صغروني»؟

- إنّها تصغير «صغيري».

- فهمت.

أغمضتُ عينيّ بقوّةٍ حتّى لا أراه وهو يرحل. لقد كانت تلك

هي اللّحظة التي شعرتُ فيها بأبوّته أكثر من أيّ لحظةٍ أخرى. قبّلني موريس. وتمتم:

- ليلة سعيدة يا شوش. احلم يا طفلي الجميل.

نزل سلام اللّيل والظّلام على غرفتي. وهجم النّعاس عليّ بقوّة، حتّى إنّني كدتُ لا أسمع صوتًا صغيرًا بعيدًا وودّيًا، وديًّا جدًّا، وهو يقول لي:

- طابت ليلتك يا زيزا.

- طابت ليلتك يا آدم.

(6)
هيّا نوقظ الشّمس

– يكفي يا زيزا، بحقّ محبّة الرّبّ! يكفي. توشك أن تبلغ الحادية عشرة. وعليك أن تتغيّر أخيرًا. هذا التّباكي الذي يستبدّ بك في كلّ مرّة يدفع المسيحيّ إلى الكفر. كفى!

– أعرف هذا يا آدم. غير أنّك ترى بوضوح ما أنا فيه؛ أودّ أن أتوقّف عن ذلك حقًّا. وفي كلّ مرّةٍ أجد عينيّ مبلّلتين على الدّوام.

– وما المشكلة؟ ألستَ رجلًا؟

– بلى. أنا رجل. ولكنّني أرغب في البكاء. وهذا كلّ ما في الأمر.

أوشكتُ أن أحبط. فانتبه آدم إلى ذلك. وغيّر من خطّته:

– انظر عبر النّافذة يا زيزا. النّهار جميل جدًّا. السّماء زرقاء. والسّحب تشبه قطيعًا من الخرفان... كأنّه اليوم الذي أطلقتَ فيه العصفور الصّغير من صدرك.

بدأتُ ألاحظ أنّ آدم محقّ في ما يقوله.

– وخصوصًا الشّمس يا زيزا. إنّها شمسُ الرّبّ، زهرة الرّبّ

الأجمل... الشّمسُ التي تدفئ وتُنبتُ البذور.

تذكّرتُ شعرًا درسناه في الصّفّ كان يتحدّث عن الشّمس التي تنبتُ البذور. يا لآدم هذا! إنّه رهيب!

- الشّمسُ التي تنضج كلّ شيء، التي تمنح لونها للذّرة وتنزع اللّون عن مياه النّهر. أليست جميلة يا زيزا؟

- هي كذلك حقًّا. أنا لا أحبّ أن تغيب الشّمس. فمثلًا، أجد المطر جميلًا إذا هطل واختفى على الفور. وعندما يدوم طويلًا، أشعر بأنّني أتعفّن.

- إذا كانت شمسُ الرّبّ جميلةً جدًّا، فما بالك بالأخرى.

فوجئتُ تمامًا لكلامه. وسألته:

- أيّ شمس أخرى يا آدم؟ لا أعرف إلاّ هذه. وهي بطبيعة الحال كبيرةٌ جدًّا.

- أتحدّث عن شمس أخرى أكبر بكثير، تلك التي تولد في قلوبنا... شمسُ آمالنا العظيمة، الشّمس التي نوقظها في صدورنا حتّى تستيقظ كذلك أحلامنا.

أذهلني ما قاله آدم.

- آدم، أنت أيضًا شاعر. أليس كذلك؟

- لا. لستُ كذلك. كلّ ما في الأمر أنّني شعرتُ من قبلك بأهمّيّة شمسي.

- وشمسي أنا؟

- شمسك أنت يا زيزا حزينة. إنّها شمسٌ تحيطها الدّموع بدل المطر، شمسٌ لم تكتشف بعدُ كلّ قوّتها وسحرها ولم تجمّل كلّ لحظاتك، شمسٌ صغيرة ومتجهّمة بعض الشّيء.

- ماذا يجدر بي أن أفعل؟

- أشياء قليلة يسيرة لا غير... يكفي أن تريد. عليك أن تفتح نوافذ روحك وتسمح لموسيقى الأشياء أن تنفذ إلى داخلك... شِعر اللّحظات المفعمة بالحنان.

- أهي موسيقى كالتي أعزفُها؟

- ليس الأمر على هذا النّحو بالضّبط. إنّك تصنع موسيقى برّانيّة لا أكثر، موسيقى لا تفضي إلى أيّ شيء. أنتَ من يجبُ أن يستحمّ في الموسيقى يا زيزا، بدل أن تصنع موسيقى باردة من أجل الآخرين.

ظللتُ مشدوهًا من كلّ ماقاله آدم.

- المهمّ يا زيزا أن تكتشف أنّ الحياة جميلة وأنّ الشّمس التي ندفئها في صدورنا قد وهبها لنا الرّبّ كي نزيد في كلّ هذه الأشياء الجميلة.

- هل تقصد أنّني حين أبكي أبلّل أشعّة شمسي؟

- دون شكّ. ولقد جئتُ لكي لا أسمح لشمسك بأن تبرد. أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي إيجابًا.

- إذن صافحني مثلما يفعل الصّديقان. وهيّا نوقظ الشّمس!
- كيف يمكنني أن أصافحك وأنت مكنون في صدري؟
- تخيُّلاً مثل المرّات السّابقة.

أغمضتُ عينيّ. وتخيّلتُ المشهد. وعلى الفور، شعرتُ بيده الدّافئة تمسّح كفّ يدي.

- آدم، هل نتحدّث قليلًا؟
- الوقت ليس مناسبًا يا زيزا. عليك أن تركّز في دراستك. عندما نخرج إلى الشّارع لنذهب إلى الإعداديّة، سنتحدّث كما نشاء.
- لا خطر في الأمر. أليس كذلك؟ يمكنني أن أعزف هذا مغمض العينين. هل تريد أن ترى ذلك؟
- لا يا زيزا، بحقّ الرّبّ. إنّني أسمع وقع خطوات في الأعلى. لا شكّ أنّ والدتك استيقظت. وستنزل إلى هنا قريبًا.
- حسنًا، لا بأس. إذا لم تكن تريد...
- عدتُ إلى النّظر في السّلّم الموسيقيّ بكلّ تفاصيله وتعقيداته. لقد انفكّ أحد النّوابض بداخلي. فأرسل حزني بعيدًا. بففف! لم يبق أمامي إلاّ ثلاث أيّام ويأتي موريس لزيارتي. ولا فائدة في أن يكون المرء نافد الصّبر. سيأتي ليلًا...

أبتسم سعيدًا. ألم يفاجئني موريس في مناسبتين بقدوم غير متوقّع؟ كانت أوّل مرّة في يوم الخميس الذي سكن فيه الشّيطان

جسدي وثاني مرّة عندما فتحتُ جواوزينيو في مزاج سيّء. رغبتُ في أن ألكم النوتات وأرى الأوتار تتكسّر والنّوابض الصّغيرة تطير في كلّ الجهات. وددتُ حتّى أن أعضّ مطارق اللّباد الصّغيرة في الدّاخل. كانت واحدة من تلك اللّحظات التي أعجز فيها عن القيام بتماريني، لحظة لا إمكان فيها على الإطلاق لكي أوقظ شمسي. جلستُ على المقعد الصّغير، وأنا أشعر بأنّ روحي تلهثُ. كانت أصابعي متيبّسة مثل خطافات حديديّة. وفجأةً، سمعتُ «بسستْ». فالتفتُّ مكتبة في فرح.

- هولا! شوش.

- إنّه أنت، في مثل هذه السّاعة؟

جلس موريس على إحدى مقاعد الصّالون. ووضع إصبعه على شفتيه ليسألني الصّمت. فهمستُ بلطف:

- لماذا جئتَ؟

- أحسستُ أنّك بحاجة إلى التّشجيع.

- أنا كذلك حقًّا، وخصوصًا اليوم.

- اعزف من أجلي، من أجلي أنا فحسب.

أطعتهُ. فتغيّر كلّ شيء. استغرقتني الموسيقى تمامًا، حتّى إنّني لم أسمع وقع خطوات أمّي التي نزلت لتتثبّت ما إذا كنت أدرس بجدّ أم لا. هي تفعل ذلك عندما تكون في غاية الرّضا عن التّقدّم الذي أحرزه.

- جئتُ في الوقت المناسب. كم أحبّ أن أراك تدرس بانضباط

وملء إرادتك.

كنتُ خائفًا بشدّة من أن تجلس على ساقي موريس. ولكنّها اختارت لحسن الحظّ مقعدًا آخر.

مرّةً أخرى، تجلّى لي موريس في غمرة الدّرس داخل الصّفّ. انحنى لتحيّتي. ورفع قبّعته. لقد كانت ابتسامته السّعيدة بحجم شمس روحه.

فجأةً، تحوّلت صورة موريس وصارت بعيدة. تخيّلتُ نفسي في المدرسة العموميّة. ولمحتُ في حناني ذاك البرتغاليّ وهو يلوّح لي. أوشكتُ أن أحزن لولا أنّ آدم هتف بي:

- زيزا! زيزا! انظر إلى الشّمس!

إنّه على حقّ. لن أتمكّن بعد الآن من لقاء مانويلي، مانويل فالاداريس... أبدًا! لقد قتله القطار الملعون.

- انس يا زيزا. فكّر في موريس. وستتحسّن. وهو محقّ. موريس لن يموت أبدًا. لقد وعدني هو نفسه بذلك. لا شيء بإمكانه أن يؤذيه، لا قطار، لا طائرة، ولا باخرة أو حتّى ركلة حصان...

ومع ذلك، كان موريس بعيدًا. وينبغي عليّ أن أنتظره ثلاثة أيّام حتّى يرجع.

- آدم، هل نستطيع التّحدّث الآن؟

- وأمّك؟

- لم تستعدّ بعد.
- ما الذي تلحّ على قوله لي؟
- هل أعجبك الأخ الطّويل النّحيف الذي جاء مُؤَخّرًا؟
- الأخ أمبروزيو؟
- نعم. إنّه هو. ألم تحبَّ درس الأدب الذي قدّمه لنا؟
- فلأقل الصّراحة يا زيزا. عندما لاحظتُ انتباهك الشّديد، اغتنمتُ الفرصة لأتّخذ قيلولةً وجيزة.
- أيّ جريمة هذه يا آدم! إنّه رائع. سوف يكون أستاذنا خلال السّنة المقبلة. كلّ ما يقوله جديد. وقد وعد بأنّه سيدفعنا إلى تشغيل سحايا المخّ.
- تشغيل ماذا؟
- سحايا المخّ. هذا ما قاله. ثمّ شرح ما يقصده. لو أنّك لم تنم لعرفت ما هي السّحايا. إنّها لا تختلف عن الدّماغ.
- آه!
- ولكن، لا تقل لي إنّك نمت اليوم أيضًا أثناء القدّاس؟
- لا لا مطلقًا. كنتُ مستيقظًا. وكان ما سمعته طريفًا جدًّا، من أطرف ما سمعتُ في حياتي.
- ماذا لو رأيت بأمّ عينك إذن؟
- كأنّني رأيت حقًّا...

كان المشهدُ ما يزال دافئًا في ذاكرتي. نُقشت على اللّوح الكبير إزاء عمود العدد 214، ترنيمة على شرف القدّيس جوزيف.

انطلقنا في الغناء، يُوجّهنا صوتُ الأخ جوزيه القويّ، ويرافقنا هناك في الأعلى أرغن الأخ أمادو:

حلّقوا طيروا يا رُسلًا سماويّين،
بكلّ الأجنحةِ هلمّوا إلى جوزيف
من يسوع في غشيته الأخيرة
فليذهب ويخفّف من المحنة[1].

كان هناك مقطعٌ ثانٍ يليه. ومن ثمّ نعود إلى اللاّزمة. وفجأةً، غرق الأخ جوزيه حرفيًّا في النّوم، حتّى إنّ رأسه مال جانبًا. ولم يتجرّأ أحد على أن يوقظه بها في ذلك الإخوة الآخرون، كان يُفترَض أن يتكفّلوا بذلك. ولكنّ الأمر لم يحدث مُطْلَقًا. وعندما رنّ جرس الإنجيل وأنهى الجميع نشيدهم وهمّوا بالمغادرة، استيقظ الأخ جوزيه، وانتفض في مكانه مرتّلًا بقوّة:

حلّقوا طيروا يا رُسلًا سماويّين،
بكلّ الأجنحةِ هلمّوا إلى جوزيف...

لقد كانت كارثةً بحقّ. فقد دوّى انفجار جماعيّ من الضّحك. واستوجبت عودة الهدوء والنّظام أن يمرّ الأخوان أمبروزيو ومانويل، كلٌّ من جهة، بين المقعد والآخر. ومع ذلك، فقد عوقب بعض التّلاميذ. أمّا أنا فقد نجوت، وإن كاد يُفتضح أمري، كما قال الأخ جواكيم.

---

(1) المحنة هنا كناية عن عمليّة الصّلب التي كابدها المسيح نيابة عن جميع النّاس وتكفيرًا عن ذنوبهم وصلبهم المفترض.

كان الأخ جوزيه أحمر تمامًا مثل حبّة الفلفل.

- هل تعتقد أنّ فايول قد شارك في الضّحك يا آدم؟

- بالتّأكيد لا.

- ولا حتّى في سرّه؟

- أشكّ في ذلك. فهذا الأخ ملاك.

- بكلّ ذلك الحجم؟ لم أر من قبل ملاكًا له مثل تلك الهيأة.

- إنّني أتحدّثُ مجازًا.

- كلامك معقّد.

حاولتُ لوهلةٍ أن أتخيّل فايول بأجنحةٍ كبيرةٍ مُذهَّبة، وذراعاه متشابكتان على صدره مثلما يقف جبريل في مشهد البشارة[1]. لكنّ الأمر لم ينجح.

ذهبتُ بعد الظّهر لأتحدّث إلى فايول. كنتُ أرغب في معرفة بعض الأشياء. ولكنّ أهمّ هذه الأشياء هي التّيقّن ما إذا كان قد ضحك في سرّه أم لا. وعندما سألته عن ذلك، نظر إليّ مبتسمًا:

- ألم تضحك فعلًا يا فايول؟

- أيّ فكرة هذه يا شوش!...

- ولكنّ الأمر كان مضحكًا!

- أعترف بذلك.

---

(1) يظهر جبريل على تلك الهيأة في رسم لميلوزو دا فورلي أو أمبروزي ميلوزو بعنوان البشارة. ويسجّل اللّحظة التي يبشّر فيها الملاك جبريل السّيّدة العذراء بحملها بيسوع المسيح.

- ألم تضحك حتّى في سرّك؟

- لم أستطع ذلك يا شوش. إنّه رجل عجوز. والمسألة ثقيلة ومذلّة بالنّسبة إليه. ألا ترى ذلك؟ مازلتَ على أيّة حال يافعًا جدًّا حتّى تستشعر مثل هذه الأمور.

لا شكّ أن آدم محقّ كعادته. لقد كان فايول ملاكًا. وظللتُ أحدّق فيه بإصرار محاولًا أن أتخيّل أجنحة كبيرة تنبتُ في ظهره.

- لماذا تتأمّلني بهذا الشّكل؟

- لا شيء. لا شيء يا فايول. أتعرف؟

- ماذا؟

- كيف تطير الملائكة؟

ابتسم.

- أهذه فكرة أخرى من أفكارك العجيبة؟

- الأمر جدّيّ. أريد أن أعرف ذلك. فنحن نرى الملائكة دومًا في ثبات، وأجنحتها مطبقة وساكنة، وأذرعتها متشابكة، كأنّها قد انتهت للتّوّ من الطّيران... كأنّها قد وصلت للتّوّ. هل تخفق أجنحتها مثل عصافير السّنونو والدّوريّ؟

حكّ فايول شعره الأحمر المجعّد. من المؤسف أنّه لا يحتفظ به على هذا النّحو دومًا. فهناك حلاّق يأتي من حين إلى آخر وززززز... يقصّه كلّه حتّى تلمع صلعته، ولا يتبقّى منها سوى خصلة صغيرة في المقدّمة.

- اسمع يا شوش، الحقيقة أنّني لا أعرف ولم أفكّر في الأمر من قبل. لا بدّ أنّ السّبب في ذلك عدم رغبة الملائكة في أن تُرى أثناء طيرانها، ولعلّها تطير في الظّلام فلا يتمكّن النّاس من رؤيتها.

لم تشف الإجابة غليلي. ولكنّني إذ لاحظتُ الجهد الذي بذله فايول ليوفّرها لي، قرّرتُ أن أصادق عليها.

- والآن؟

- هل أستطيع أن أكلّمك رجلًا لرجل؟

- شوش، من دون تعقيدات...

- لقد سمعتُ شيئًا

- أيّ شيء؟

- إنّني أشكّ في طبيعته. لكنّني أريد أن أتثبّت منها.

- حسنًا، قل.

- ما سأسألك عنه، قد سمعته مرّتين من قبل، في المرّة الأولى على لسان الأخ...

وهمستُ الاسم في أذنه.

- أمّا في المرّة الثّانية فقد كان ذلك عندما روى لي موريس حكايةً أغضبته.

- ما الأمر؟ هيّا، قل لي.

- حسنًا. ولكنّك سمحت لي بالكلام. ما معنى «ت»؟ تبًّا؟

وضع يده على فمه حتّى لا يُطلق ضحكةً صارخة:

- هل تريد أن تعرف حقًّا يا شوش؟

- من الجيّد معرفة كلّ شيء.

- حسنًا «ت» هي نفسها اللّعنة.

- آه فهمت... إنّها نفس الكلمة في الفرنسيّة والبرتغاليّة بفرق طفيفٍ في الرّسم.

- بالضّبط.

- هذا مضحك حقًّا!

- ما المضحك في الأمر؟

- تبدو الكلمة في الفرنسيّة جميلة، كأنّها اسم قطّة صغيرة ذات سُوَيْقات مخمليّة.

- لا يمكنك قولها أمام الجميع يا شوش.

- لن أقولها. في المنزل عندما أتناول فطور الصّباح بمفردي، أرى من خلال النّافذة جدار الحديقة. وهناك دومًا قطّتان هزيلتان تتجوّلان في المكان. سمّيتُ إحداهما الآنسة سونيا. وهو اسم سيّدة إنجليزيّة عجوز تقضّي كلّ وقتها في الحياكة. أمّا الثّانية، فقد سمّيتها الطّوفان، إذ كنتُ أفكّر في فُلْك نوح آنذاك. آه، كم أودّ أن أركبه. إنّني أمنح أيّ شيء من أجل ذلك. المهمّ، أمس ظهرت قطّة جديدة لا تملك اسما. وهي تمشي بعناية ورفق كأنّ سُوَيْقاتها من مخمل. سأسمّيها «ت».

مات فايول ضحكًا على كلامي.

- أحبّ أن أراك بهذا المزاج يا شوش، شويْطنًا صغيرًا يبتدع أشياء لا يمكن تخيّلها سلفًا، ومن دون هذا الحزن الذي يسكنك.

- منذ أن جاء آدم، صار لديّ شمسُ فرح صغيرةٌ في داخلي.

- هذا جيّد. ولكن قل لي يا شوش؛ كيف عرفت أنّها ثلاث قطط بالضّبط.

- الأمر بسيط جدًّا. لقد أخبرتني دادادا أنّ القطط وحدها من تملك ثلاثة ألوان. وقد تعلّمت ذلك في سيرتاو[1].

- فهمت عنك. يتعلّم المرء كلّ يوم أشياء جديدة.

لكزني آدم بكوعه في داخلي. ثمّ جاء صوته قلِقًا:

- يكفي يا زيزا. كفاك حلمًا. إنّ أمّك تنزل الدّرج وتتّجه نحوك.

- يا إلهي، ماذا يمكن أن يحدث حينئذ؟ لقد درستُ بجدّ. ولذلك لن تنذرني مُطْلَقًا.

- يمكنك أن تتوقّف قليلًا.

كانت تحمل في يديها لفافة ورق، وفي عينيها يلوح حزنٌ لم أره فيهما من قبل. اتّجهت نحو الموضوع مباشرة:

- هل تعرف أنّ أباك مريض وأنّه سيتلقّى عمليّة جراحيّة؟

كيف يمكن لي أن أعرف ذلك؟ لقد كان على الدّوام ورديّ البشرة وذا بأس. صحيح أنّه يصاب بالحمّى من حين إلى آخر،

---

(1) منطقة تقع في الشّمال الشّرقيّ للبرازيل تتميّز بمناخ شبه قاحل.

وتبلغ درجة حرارته الأربعين. لكنّه ينهض في الغد سليمًا معافى، كأنّ شيئًا لم يكن.

أومأت برأسي أنّني لا أعلم شيئًا عن مرضه.

- فلتعلم إذن أنّه سيخضع لعمليّة جراحيّة. ومن أجل ذلك، سوف نقضّي شهرين في ريو دي جانيرو.

لماذا تحدّثني بكلّ هذه المسائل؟ وقبل فطور الصّباح؟

- أرأيت هذا الورق؟

راحت تفكّه. ثمّ مدّته إليّ قائلة:

- اقرأ. إنّه شيء مّا «لا شكّ» سيسترعي انتباهك.

لقد كتبت يدٌ متمرّسة عليه ما يلي: الفالس الثّاني، الفالس السّابع (64)، القطعة اللّيليّة التّاسعة التّقسيم الثّاني لشوبان[1].

- هل تعرف ما هذا؟

- نعم.

- إنّها طلبيّة دونا ماريا دا بِينْها. تريدني أن أحضرها لها من ريو. فهي تعدّ لحفلة تخصّ بها تلاميذها في مسرح كارلوس غوميز. وعليك أنت أن تفتتحها. هي تقول إنّك إذا عملت أكثر فستقدّم امتحان التّسجيل في السّنة الرّابعة بالمعهد الموسيقيّ.

---

(1) فريديريك شوبان (1810-1849) مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو في الفترة الرّومانسيّة فرنسيّ من أصول بولونيّة.

كان كلّ شيء غامضًا بالنّسبة إليّ.

- عندما نذهبُ إلى ريو، ستصير مقيمًا بإعداديّة القدّيس أنطونيو.

انتفضت روحي في داخلي. أيّ حظّ هذا!

- وطيلة شهرين اثنين، لن يراقب أحد دروسك الموسيقيّة.

- ولكن كيف يمكنني فعل ذلك؟ أن أدرس وسط تلك الضّوضاء، مع التّلاميذ الذين يهدرون من كلّ الجهات؟ وبالإضافة إلى ذلك كلّه، بواسطة بيانو أصمّ، أعمى ومعوجّ... بيانو قديم مزيّف، مغبرّ وأبله...

- لا فائدة من التّعلّق بأيّ شيء. إنّني أعي جيّدًا ما أقوله. ولذلك، سأسألك سؤالًا مهمًّا جدًّا، سؤالًا سوف يكون في غاية الأهمّيّة بالنّسبة إلى حياتك... هل تريد أن تستمرّ في تعلّم البيانو أم لا؟ نعم أم لا؟

دفعني آدم ملء قوّته، هامسا: «أجب على الفور بلا أيّها الأحمق! ألم تنتظر هذه اللّحظة طيلة حياتك؟».

خرجت إجابتي جافّة ويابسة كأنّ شفتاي من حجر.

- لا.

أخذت الورق من بين يديّ. وقالت:

- حسنًا، لقد اتّخذت قرارك. ستتابع الدّراسة حتّى الحصّة القادمة. ثمّ تعيد هذا إلى مدرّستك. يا للخسارة!

وسرعان ما هدرت العاصفة. لا، لم تصرخ موجّهة كلامًا قاسيًا نحوي. بل طفقت تحدّث نفسها:

- عندما تغلق هذا البيانو في المرّة القادمة، لن تتمكّن من فتحه مرّةً أخرى، وإلى الأبد. أتسمعني؟ إلى الأبد... ولكنّني لن أعطيك كذلك أيّ طبشور أو أقلام ملوّنة كي ترسم. كلّ هذا سيصبح ممنوعًا. لن تحصل إلاّ على ما هو ضروريّ للإعداديّة. كنت عازمة على أن أحضر لك من ريو علبة ألوان مائيّة، وعددًا من الطّوابع البريديّة حتّى تستهلّ مجموعتك الخاصّة وأشياء أخرى كثيرة. لكن كلّ هذا انتهى الآن. ولا مجال للتّفكير فيه.

وقفَتْ، والورق في يدها.

- لقد اتّخذتَ قرارك الآن. فأغلق البيانو. وكفّ عن التّبختر، حتّى لا تتأخّر عن الدّرس.

ثمّ التفتت، وهي تبتسم.

- ما الذي أصابني يا آدم؟

- لا أعرف. ولكن، إذا اتّخذت قرارًا مّا فلا تتراجع إلى الخلف. ومن الآن فصاعدًا، يمكنك أن تتسلّق الأشجار وتتمرّن وتقوم بأشياء أخرى كثيرة. أليس هذا جيّدًا؟

- نعم.

أجبتُ دون اقتناع كبير. ولكنّني كنتُ متيقّنًا من أمرٍ واحد. لن أتراجع إلى الخلف. وضعتُ المخدّة اللّباديّة الصّغيرة على مفاتيح

جواوزينيو، بعناية لم أتوصّل إليها من قبل. تأمّلتُ اسمه مكتوبًا بحروف ذهبيّة: «رونيش». أنزلتُ الغطاء. وخرجتُ، دون أن أحسّ بجسدي، كأنّني في أعماق روحي كنتُ مُدانًا بخيانةِ صديق.



(7)
وداع جواوزينيو

- لم يعد أمامي سوى ثلاثة أيّام من البيانو يا آدم، بالإضافة إلى حصّة وحيدة أودّع فيها الأستاذة دونا ماريا دا بِينْها.
- هل ستكون حزينة؟
- لا أعتقد ذلك. لطالما قلتُ لها إنّني أريد التّوقّف عن دراسة البيانو. تذمّرتُ كثيرًا في حصّتها. وتكاسلتُ وتلكّأتُ، حتّى إنّها ستكون سعيدة دون شكّ بانتهاء تدريسها لي.
- عليك أن تقتنع بشيء مّا؛ لقد أعلنتَ عن قرارك. وانتهى الأمر. لا مجال للتّراجع إلى الخلف أو السّماح لأيّ كان بأن يؤثّر فيك. تذكّر يا زيزا. إنّها فرصة فريدة لن تتكرّر مرّةً أخرى. وإذا لم تتوقّف عن دراسة البيانو الآن، فإنّك لن تتمكّن من فعل ذلك أبدًا. سوف تصبح عجوزًا ضامرًا أشيب مثل ليشت[1]. وسوف تموتُ وأنت تعزف على البيانو.
- لن أتراجع أبدًا.

---

(1) فرانز ليستْ مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو مجريّ عاش بين 1811 و1886.

- وكن متأكّدًا أنّ أمّك ستفي بوعدها. لن تضع أصابعك على مفاتيح البيانو بعد الآن أبدا.

- وهل تحسبُ أنّني أريد ذلك؟ الأمر شبيه باحتفالات القدّاس. إنّني مجبر على حضورِ عددٍ هائل منها، ولكن عندما أكبر سوف أتفادى حتّى المرور من أمام الكنائس.

- ألن تصلّي؟

- تلك مسألة أخرى. فالصّلاة هي ثرثرة مع الرّبّ، حوار ظريف لطيف معه، يأخذ فيه المرء كلّ وقته. ويمكنه أن يفعل ذلك مُستلقيًا وسعيدًا. والآن، فلأصمت. هذا التّمرين عسير جدًّا. وعليّ أن أنتبه إلى يدي اليسرى.

ولكن ما إن أنهيتُ التّمرين حتّى عاد الهمس:

- سيرجع اليوم.

- موريس؟

- طبعًا أيّها الأبله. ومن غيره يمكنه أن يرجع؟ إنّني أموت بنفاد صبري. وأقدّر أنّه يأتي اللّيلة.

تنهّدتُ بحسرةٍ عميقة.

- ماذا بك يا زيزا؟ ألستَ تملك شجاعة الانتظار؟

- كنتُ أفكّر في العشاء.

- نعم. عليك أن تكون رصينًا جدًّا ومهذّبًا جدًّا وظريفًا.

- كيف سيكون ذلك الكاتب؟

- لا علم لي يزيد على علمك؛ إنّه برتغاليّ. ويسكن في ريو. وقد كتب كتابًا عنوانه مسحوق *الشّيطان*.

- هل هو جيّد؟

- وهل هناك من قرأ الكتاب؟

- أعتقد أنّ أبي قرأه. لكنّه أخفاه من بعد ذلك. لقد خبّأه بشكل جيّد يشي بأنّه ليس كتابًا للأطفال. ذات أربعاء، عندما نُعفى من الدّراسة، سأفتّش في كلّ مكانٍ في البيت. وسأقرؤه خلسة.

- أنت مجنون تمامًا يا زيزا.

- سأفعل نفس ما فعلتُه من قبل مع كتب الطّبّ.

- وماذا حدث مع كتب الطّبّ؟

- أتعرف تلك الكتب الضّخمة في المكتبة؟ لقد قرأتها خلسة، صفحة تلو أخرى.

- مستحيل!

- كان أبي جالسًا يومَ أحد حذو إحدى المكتبات، يتصفّح بعض الكتب. ولم أعرف أيّ معجزة جعلتني أمرّ من هناك. رفع نظّارتيه عن أنفه. وناداني. ثمّ حدّق فيّ بصرامة. وقال لي بصوت جهوريّ: «أترى هذه الكتب؟». وأشار إلى الرّفّ كلّه. «لا أريدك أن تلمسها مجرّدَ لمس. أفهمت؟». أومأتُ برأسي إيجابا. وانسحبتُ والفضول يعضّني. ماذا تخبّئ هذه الكتب ممّا لا يجدر بي رؤيته؟ أتعرف يا آدم، لم يسبق لي أن

لاحظتُ هذه الكتب قبل أن يشير إليها بكلماته تلك. إذن، فكّرتُ فيها طويلًا، مرارًا وتكرارًا. ثمّ همس الشّيطانُ في أذني: «هيّا أيّها الأبله! اذهب وانظر ما فيها. الأربعاء، تكون أمّك في اجتماع السّيّدات النّافذات وتكون وحيدًا مع دادادا في البيت... بفففت لن يعلم أحد بأيّ شيء».

- وماذا فعلت؟

- لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. فقد ذهبتُ أوّل أربعاء بعد ذلك لمشاهدتها. وقد قضّيت الكثير من أيّام الأربعاء وأنا أتفحّصها مليًّا. ولكن، لم تكن تستحقّ كلّ ذلك العناء.

- إذا كانت لا تستحقّ العناء فعلًا، فلِمَ قضّيت كلّ تلك الأيّام في تصفّحها؟

- لأنّني أردتُ رؤية كلّ شيء، من الألف إلى الياء. كانت تلك الكتب مليئة بنساء ورجال عراة، ذوي بثور وخدوش وطفح جلديّ وإصابات وسيقان مكسورة وأذرع ملتوية. كم كان ذلك فظيعًا!

- وما الذي ربحته إذن؟

- لا شيء. بل إنّني خسرت الكثير. لأنّه عندما يتمّ تقديم الطّعام على المائدة، حيث يوضع اللّحم المدمّى نصف المطبوخ، تنقلبُ معدتي تمامًا.

- وهل لاحظ أيّ شيء؟

- مُطْلَقًا. فالأشخاص البالغون يكونون في أحيان كثيرة حمقى

ومفرطين في الغباء. لقد كنتُ أتثبّتُ من مواضعها جيّدًا، وأعيدها مثلما كانت، دون أن أغيّر أيَّ تفصيل.

قلبتُ صفحة الكرّاس. وشرعتُ في القيام بتمرينٍ جديد. وسريعًا، استعدتُ محادثتي مع علجومي:

– أتعرف ما الذي اكتشفته أمس يا آدم؟

– وكيف تريدني أن أعرف بها أنّك لم ترو لي أيّ شيء؟

– اكتشفتُ أنّني حين أعتزل دروس البيانو، سأتمكّن من العودة باكرًا جدًّا إلى المنزل. ولن أضطرّ إلى القيام بواجباتي في المدرسة. سوف أنجزها في البيت. ويكون لديّ متّسع من الوقت لأستمتع... أقصد سأستمتع بحقّ. سأتسلّق شجرة المانجو وشجرة السابوديلا كذلك. وسأسرق حبّات الجوافة من الجيران. فعندما كنتُ صغيرًا، كنتُ فظيعًا في سرقة الجوافة ولا أحد بإمكانه أن يهزمني. ثمّ إنّ هناك شيئًا آخر. صار أبي يرسلني الآن إلى كاسكودينيو للبحث عن الكتب. وقد سألني ذات مرّة ما إذا كنتُ أحبّ الكتب. وقال لي إنّه سيعيرني كتب مغامرات لقراءتها خلسة حالما أصير «جاهزا».

– كيف ستفعل ذلك؟

– الأمرُ سهلٌ جدًّا. عندما أعدّ واجباتي المدرسيّة في المنزل، سأجلس إلى طاولة غرفة الطّعام. هل مرّرتَ يدك من قبل تحت تلك الطّاولة؟

- طبعًا لا. أيّ فكرة هذه يا زيزا؟!
- حسنًا، إنّها طاولة قابلة للتّمديد. هناك خشبتان في الأسفل تشكّلان معًا نوعًا من الدّرج، حيث يمكنك أن تخبّئ ما تشاء. وما عليك إلاّ أن تقرأ وتقرأ، حتّى إذا سمعتَ خطواتٍ على الدّرج تضع الكتاب بسرعة تحت الطّاولة وتستبدله بكتاب القسم. لا أحد سيكتشف هذا الأمر.
- إنّها حبكة متخيّلة بشكلٍ جيّد يا زيزا. فكرة رائعة!
- أتعرف شيئًا يخصّ المخبأ يا آدم؟ لقد اكتشفتُ مخبأ الكنز في المنزل.
- ما هو؟
- لم تكن ساعتها تسكنُ معي. ولذلك، لا يمكنك أن تعرف سلفًا بالأمر. لقد كنتُ مُصابًا بالفضول إزاء كلّ هذه المجلاّت التي تعترضني بصفحاتها المنزوعة. لا شكّ أنّ فيها شيئًا مّا لا يجدر بالأطفال رؤيته. ولكثرة ما بحثتُ حقّقتُ اكتشافًا عظيمًا. وسط هذا الأثاث الدّوّار، يوجد ركن يخبّئون فيه كلّ شيء. وبهذا الشّكل اكتشفتُ فينوس الميلوسيّة[1]؛ تلك المرأة الضّخمة، فاقدة الذّراعين... كلّ هذا ناتئ إلى الخارج!

ونقرتُ على صدري لأشرح له الأمر.

---

(1) يسمّى كذلك أفروديت الميلوس أو دي ميلوس نسبة إلى جزيرة يونانيّة. واحد من أشهر التّماثيل الكلاسيكيّة القديمة المنحوتة من الرّخام.

- إنّه هناك في ذلك الرّكن، يوجد كلّ ما لا أستطيع رؤيته.

تنهّدتُ بانشراح. فقد دقّت السّاعة مُعلنةً السّابعة والنّصف. قريبًا، قريبًا جدًّا سيتمّ إرسالي إلى الإعداديّة. وفي ساحة القصر، ينتظرني تارسيسيو بزيّه الموحّد الجميل المواكب للموضة، بسروال ساق الفيل المختلف عن سروالي الضّيّق الشّبيه بسروال أشعث أغبر. لا أعرف ماذا كان سيكلّف أمّي أن تجعل سروالي مثل الأطفال الآخرين. ما الصّعوبة في أن تحيك الجنّيّة العجوز سروالي؟ ولكن، لا. إنّني رهينُ هذا المصير المحتوم. إذ تخيط دونا بيليزا، شقيقة سيكاو، هذا السّروال البشع من أجلي كي يسخر منّي الجميع ويضطهدوني.

- إنّه صغير وحشيّ. كلّما جاء شخص إلى المنزل، اختفى هو في غرفته.

كانت تلك طريقة أمّي في تبرير نفاد صبري. بالإضافة إلى أنّ هذا العشاء الشّيطانيّ لا ينتهي أبدًا. لقد امتدّ في شكل محاورة مُضجرة تُخترع فيها الألغاز حول كلّ شيء. ويدور كلّ حديث فيها عن الرّواية. لكنّه حديث بالتّقسيط، يتمّ فيه التّوقّف عند المواضع التي يجدر بها أن تكون الأكثر إمتاعًا.

تنفّستُ الصّعداء أخيرًا عندما تمكّنت من إلقاء تحيّة الوداع وسماع باب غرفتي ينغلق من خلفي. كان موريس هنا، مليئًا بالشّمس في شعره وابتسامته وربطة عنقه الّتي تتّخذ شكل فراشة. نهض وحملني بين ذراعيه. فقبّلته بحماسٍ شديدٍ حتّى إنّه قال لي:

- تمهّل صغيري. إنّك توشك أن توقعني.

- آه موريس يا موريس! كم طال غيابك! لم يشأ هذا الأسبوع أن ينتهي. ولديّ الكثير من الأشياء والمستجدّات لأرويها لك.

- اسمح لي أن أنظر إليك.

تراجعتُ إلى الخلف، مُستجيبًا لطلبه.

- حسنًا، حسنًا. مظهرك جيّد. لكنّك مازلتَ نحيلًا وهشًّا كعادتك. وعليك أن تغيّر هذا.

وعاد إلى مقعده، بينما جلستُ قبالته على السّرير.

- موريس، عليّ أوّلًا أن أطلب منك شيئًا. وهو موجود في كتابٍ لم يتوقّف البيت عن الحديث عنه منذ ثلاثة أيّام. لقد تناول مؤلّفه العشاء معنا. ولذلك تأخّرتُ في القدوم إلى غرفتي.

- ما هو؟

- أطلقتُ السّؤال كأنّني ألقيتُ حجرًا:

- ما هو الكوكايين؟

جحظت عينا موريس على الفور.

- ماذا؟

- نعم. الكوكايين. أمس، سألتُ فايول. فارتبك تمامًا. وأجابني قائلًا إنّني أستطيع أن أعرف الإجابة عندما أبلغ الخامسة عشرة.

مسّح موريس على رأسي.

- حسنًا... أمّا أنا، فلن أكون صارمًا إلى هذه الدّرجة. وسأقدّم لك خَصْمًا. عندما تبلغ الرّابع عشرة ونصف، سأجيبك. إذا اكتشفت الأمر قبل ذلك، فلن يكون هناك أيّ فرق لأنّ الكوكايين شيء لا أهمّيّة له مُطْلَقًا. ولا يمكن مقارنته بكلّ تلك الأشياء الجميلة المهمّة التي يجدر بك أن تحدّثني عنها.

- هناك الكثير منها. وأنت؟ هل عملتَ كثيرًا في الأفلام؟

- نوعًا مّا.

- هل هناك مشاهد حبّ؟

لوّح بسبّابته بشكلٍ مضحك. فابتسمتُ.

- يا صغيري، يا صغيري! لقد صوّرتُ مشاهد كثيرة أغنّي خلالها في مقهى بالهواء الطّلق. في الحقيقة، ليس فيلمًا ممتعًا جدًّا. لكنّني أشارك فيه استجابةً لعَقْدٍ كنتُ قد وقّعته، في انتظار أن أجد شيئًا آخر أكثر أهمّيّة.

ثمّ حدّق فيّ بتلك النّظرة التي أحبّها. وقال:

- إذن؟ وما جديدك أنت؟

- أيّامي معدودة يا موريس.

- لا تقل لي مرّةً أخرى إنّك ستموت. هيّا يا شوش، لقد تجاوزنا هذه المرحلة.

- لا. لا أحد سيموت. كلّ ما في الأمر أنّني سأهجر دروس البيانو وأستعيد حياتي من جديد.

حدّثتُه عن كلّ شيء بالتّفصيل. وظلّ يسمعني بانتباه. وعندما أنهيتُ كلامي، كان موريس قلِقًا إلى حدٍّ مّا.

- لكن، هل أنت متأكّد من كونك راضيًا تمامًا عن هذا الحلّ؟

- أعتقد أنّ الإجابة هي «نعم» يا موريس. القرار نهائيّ.

- إذن، لقد ربحنا الحرب ضدّ العدوّ الأوّل.

أدهشني ما قاله.

- وهل هناك عدوّ آخر؟

- نعم. وقد يكون أهمّ من الأوّل. تعال إلى هنا.

جلستُ على ذراع المقعد. فعانقني. وأرخى جسدي على صدره، حتّى التصقت وجنتي برأسه. وكان ذلك كلّ ما كنتُ أرغب فيه من الأب. رفعتْ يدُه ذقني. وأحسستُ بنعومة أصابعه التي استقرّتْ على عنقي. لم يسبق لصوته أن كان بذلك الحنان من قبل. ولو كنتُ مثل الأيّام الخوالي لانفجرتُ باكيًا في تلك اللّحظة. ولكنّني كنتُ متحكّمًا في نفسي بما يكفي كي تتبلّل عيناي فحسب.

- يا صغيري، هنا يقع عدوّك الأكبر.

- حنجرتي؟

- نعم. علينا أن نقتلع هاتين اللّوزتين في أقرب وقت ممكن.

أخذتُ أتباكى في يأس:

- موريس. هذا أكثر شيء يخيفني بعد الشّيطان.
- ستكون بخير. ثمّ إنّك شجاع، رجل فتيّ يعرف كيف يهزم خوفه. ألم تقل لي من قبل إنّك تخاف من العلاجيم؟
- نعم، هذا صحيح.
- ومع ذلك، فإنّ مستشارك الأكبر علجوم يسكن قلبك.
- ولكنّ آدم «مسحور».

ظللنا صامتيْن. بالنّسبة إليّ، فقد خشيتُ أن أفقد ولو ذرّةً صغيرة من هذا الحنان الذي لم يسبق لي أن جرّبته في حياتي. ولكي أبقى على ذلك النّحو نصف ساعة فحسب، كنتُ مستعدًّا لأن أكابد مائة وخمسين عمليّة جراحيّة على اللّوزتين.

- إذن يا صغيري؟
- هل تريد هذا حقًّا يا موريس؟
- إنّه لصالحك يا صغيري.

ومسّحت يده شعري من جديد.

- كما أنّه ليس من الجيّد أن تكون حنجرة المرء ملتهبة على الدّوام. ألستَ تحبّ المثلّجات؟
- إنّني مجنون بحبّها.
- من دون لوزتيك، ستتمكّن من أكل الكثير من المثلّجات طيلة اليوم. وستمكث وقتًا أطول في البحر دون أن تُصاب بنزلة برد. هذا القيح الذي يتشكّل في حنجرتك سينزل لاحقًا إلى كليتيك ومعدتك، فيجعلك مريضًا.

يا ربّ السّماء، يا للغرابة! إنّ موريس يردّد حرفيًّا كلمات الطّبيب.

الفرق الوحيد هو أنّه يقولها لي بلطفٍ أكبر بدل أن يبدو مُنذرًا متوعّدًا.

- هل أنت صديق الدّكتور راؤول فرنانديز؟
- لم أسمع باسمه من قبل.
- هذا طريف. إنّك تقول نفس كلماته بالضّبط.
- الجميع يعرف هذا. ولا حاجة إلى أن يكون المرء طبيبًا أو صديقًا للطّبيب كي يدركه. ما رأيك؟
- لقد حاولتُ مرّةً أن أخضع لعمليّة. ولكنّها فشلت فشلًا ذريعًا.
- متى كان ذلك؟
- قبل أكثر من سنتيْن.
- حسنًا، كان ذلك إذن قبل زمن بعيد. أتعرف لماذا أريدك أن تخضع للعمليّة يا شوش؟
- أفترض أنّني أعرف السّبب. ولكن، ألا تريد أن تواصل مناداتي يا صغيري. أحبّ ذلك كثيرًا.

ضحك موريس:

- سأشرع قريبًا في مناداتك بالرّضيع الكبير. إذن يا صغيري، عندما تتخلّص من هاتين اللّوزتين اللّعينتين ستبدأ مرحلة

جديدة في حياتك. ستصير أطول في البداية وأكبر حجمًا. ثمّ تصبح أقوى وشديد العضلات. وسيكون لك صدر واسع من كثرة السّباحة.

- هل أُصبح قادرًا على ركل مؤخّرات هؤلاء الفتيان الذين يسخرون منّي لأنّني صغير الحجم؟
- طبعًا، ودون شكّ. ما قولك الآن؟

أطرد الخوف شجاعتي من جديد.

- ليس الأمر ممكنًا الآن، لأنّنا نسافر إلى ريو بعد ثمانية أيّام.
- لا تتهرّب من الإجابة. يمكننا الانتظار حتّى ذلك الوقت. ولكنّك ستقوّي شجاعتك. أليس كذلك؟
- سأفعل ذلك، بما أنّ هذا هو ما تريده. سيكون من الصّعب عليّ التّعوّد على هذه الفكرة. ولكنّ فايول سيكون سعيدًا.
- سنكون جميعًا سعداء، أنا وآدم وصديقك فايول...
- موريس، هل تصدّق حقًّا أنّ بإمكاني أن أحمل علجوم الكورورو في قلبي؟ تبدو الفكرة سخيفةً بعض الشّيء. أليس كذلك؟
- ولِمَ لا أصدّقها؟ يعتقد النّاس أشياء كثيرة في هذه الحياة. وأنتَ في سنّ تكون فيه كلّ الأحلام وقائع.

رفع يده ليتثبّت من السّاعة. كم هو رهيبٌ هوسُ الأشخاص البالغين بتفحّص الوقت! وخصوصًا حين يكون كلّ شيء بخير وعلى ما يرام!

خمّن موريس أفكاري:

- أعرف يا صغيري. ولكنّني قضّيتُ أسبوعًا ثقيلًا على نحوٍ لا يطاق. أتفهمني؟

وقفتُ. وكذلك فعل هو. واتّجهتُ نحو سريري.

- هل تنام اللّيلة بكلّ ملابسك وبحذائك أيضًا؟

وانفجرنا ضاحكيْن معًا.

خلعتُ حذائي بسرعة. وأخذتُ أنزع ملابسي. سحب بنفسه منامتي من تحت المخدّة. فارتديتُ السّروال بسرعةٍ ومن ثمّ السّترة. وراحت أصابعُ موريس تزرّرها. أمّا أنا، فقد أحسستُ برغبة عظيمة في ألاّ أكبر أبدًا، وأن يظلّ موريس دومًا حذو قلبي، وأن يكون في منامتي مائتان واثنان وثمانون زِرًّا.

قضّيتُ يومي كلّه وأنا أجيل هذه الفكرة في رأسي. ظللتُ أتذكّر كلّ تفاصيل عمليّتي الجراحيّة الأولى على الحنجرة. لقد فشلتْ فشلًا أعلنته لكلّ العالم، سواء أكانوا أصدقاء في الإعداديّة أم جيرانا. أحدثتُ ضجّة بلغت كلّ الشّياطين. وكنتُ أعظم بطل في العالم، فقط لأنّني أخضع لعمليّة. ولكن عندما حان الوقتُ وحُشرتُ بالقوّة في قميص غريب وظهرت أمامي إبرة كبيرة، انطلقتُ في الصّراخ والعويل. حاولوا إمساكي. وجاءت ممرّضات لتثبّتني. لكنّني ظللتُ أصرخ بقوّةٍ كبيرة حتّى إنّ صوتي أدرك دون شكّ آخر نقطة في ناتال[1]. كانت تراجيديا بأتمّ معنى الكلمة وعارًا

(1) تلفظ نتاو. وهي مدينة برازيليّة عاصمة ولاية ريو غراندي دي نورتي.

حطّ على رأسي. لم أكن راغبًا في التّفكير في الثّرثرة مع آدم. مكثتُ بعد الظّهر لأعمل في غرفة الطّعام، بما أنّ اليوم كان الأربعاء. كانت أصابعي تداعب المخبأ أسفل الطّاولة، حيث أضع كتبي وحيث تساعدني الكتب على أن أحلم أكثر.

كانت كلمات موريس تطنُّ حول أذنيّ.

وفجأةً، فكّرتُ في شيء. ونهضتُ. لكنّ آدم خمّن قصدي:

انتبه! لقد حرَّمَتْهُ أمّك يا زيزا.

– لن يعلم أحد بذلك. أمّا دادادا، فلن تكشف سرّي.

كنتُ قد هجرتُ البيانو منذ أسبوع. وقد بدأت تتجّلى مظاهر ندمي الأولى على فراق جواوزينيو. دخلتُ الصّالون. واتّجهتُ نحوه، على أطراف أصابعي. رفعتُ الغطاء. فملأت تلك الرّائحة التي لن أنساها أبدًا رئتيّ.

– مرحبًا، جواوزينيو.

أبعدتُ المقعد قليلًا. وجلستُ. مدّدتُ أصابعي على المفاتيح. وشرعتُ في عزف المقطوعات التي أحبّها. انتهت التّمارين. بدأت بـ«الأغنية الحزينة» لتشايكوفسكي. ثمّ مررتُ إلى مقطوعة ليليّة، ومن ثمّ «حلم يقظة» لشومان. عزفتُ بشغفٍ لم أعرفه من قبل. وعزفتُ لأنّي لم أكُن مُجبَرًا على العزف من أحد، كنتُ مُحبًّا لما أفعله. فعزفتُ ملء روحي، ملء قلبي. وقد أسعدني ذلك. وشرح صدري.

– أترى جواوزينيو، كم جميل أن يكون الأمر على هذا النّحو؟

تفاجأتُ لأنّ أسبوعًا من دون تمارين لم يبعث الصّدأ في أصابعي. عزفتُ مقطوعة أخرى. ثمّ أحسستُ بحزنٍ غريب لم أكن أتوقّعه، أو على الأقلّ ليس بتلك السّرعة.

أغلقتهُ من جديد، واضعًا الوسادة اللّباديّة بحنانٍ ورقّةٍ كبيرين. وعدتُ إلى واجباتي المدرسيّة. فهجمت عليّ من جديد كلمات موريس. كنتُ متيقّنًا من أنّني لن أفشل هذه المرّة. ولكنّني خائف. إذا فشلتُ مرّةً ثانية، فقد يغضب منّي ويتوقّف عن مناداتي بـ«صغيري». ومن دون هذه الكلمة، أفضّل الموت. أقصد الموت حقًّا.

في المساء، وبما أنّني توقّفتُ عن دروس البيانو، فقد كنتُ عند البوّابة مع أمّي وأختي، أتأمّل الحياة الهادئة في شارع جونكوايرا آيرس. كانت هناك فتاة عانس تعمل في المدرسة المنزليّة. ظلّت تصعد الشّارع بتثاقل. ثمّ توقّفت أمام المنزل لتحيّتنا. وحينئذٍ، حدث شيءٌ فظيعٌ وبشكل مفاجئ تمامًا. توجّهت المرأة إلى أمّي قائلة: «توقّفتُ بعد ظهر اليوم لفترة من الوقت أمام بابكم. إذ كان هناك ملاك يعزف على البيانو. كان ذلك رائعًا وعظيمًا».

حدّقت أمّي في عينيّ مباشرةً. ولم تقل أيّ شيء.

كنتُ أحمر اللّون مضطربًا تمامًا.

بعد يومين، عند عودتي من الإعداديّة، شعرتُ بأنّ شيئًا مّا يمزّق روحي... نوع من الانزعاج أو الإنذار كما يقول النّاس الطّيّبون.

- ما بك يا زيزا؟

- لا أعرف يا آدم. هناك شيء مّا يجعلني حزينًا.

دخلنا البيت. فألقيتُ حقيبتي على طاولة غرفة الطّعام. سحبني شيء غامض إلى الصّالون. وهناك، وقعتُ في مقعد موريس. كان هناك، في مكان جواوزينيو، فراغ هائل. سيموت هذا الصّالون الآن من الصّمت. بحثتُ في قلقٍ وارتباكٍ عن دونا باربرا، حتّى وجدتُها موضوعةً جانبًا على إسكملة[1]، كأنّها قد خلعت من عرشها.

- لا بأس يا دونا باربرا. عندما أصبح رجلًا وتصيرين ملكي بحقّ. سأشتري لك بيانو أجمل.

في الحقيقة، كانت روحي خاوية تمامًا. وبذلتُ جهدًا عظيمًا كي أمنع عينيّ من الامتلاء بالدّموع.

همس صوتُ آدم في داخلي، وبخفوتٍ شديد:

- انظر إلى الشّمس يا زيزا! هيّا نوقظ الشّمس!

(1) طاولة صغيرة مستديرة.

الجزء الثّاني

ساعة الشّيطان

(1)
القرار الصّعب

بدا المشهدُ كأنّ جواوزينيو لم يكن جزءًا منه منذ فترةٍ طويلة، ولا كان قابعًا في ذلك الرّكن من الصّالون، وكأنّ قطع الأثاث قد كبُر حجمُها وتقاربتْ مُكتسحةً مكانه. ولكنّ الحقيقة أنّ الصّالون من دونه كان ميّتًا وفظيعًا.

– انس يا زيزا! لا تشعر بالذّنب. فأنت لم تقترف أيّ جريمة. ومثل هذه الأشياء تحدث دومًا.

– أعرف يا آدم. وها إنّك ترى بعينك؛ إنّني أنساه شيئًا فشيئًا.

– لماذا لا تعود لقراءة كتاب طرزان؟

– سأفعل... سأفعل ذلك. آه! طرزان! لقد فتح لي كاسكودينيو عالمًا جديدًا يوقظ فيّ دمائي الهنديّة... طرزانُ القردة الذي يعيشُ في الغابة ويطير متمسّكًا بالنّباتات المتسلّقة، ذاك الذي يصارع الغوريلا ويسبح مع التّماسيح وفرس النّهر، تتبعه النّمره شيتا ويمتطي الفيلة.

لقد التهمتُ تقريبًا كلّ وحوش *طرزان*. ولم أعد أرغب في شيء سوى أن أكبر كي أتمكّن من الهرب إلى الغابة، أصنع مئزرًا من جلد غزال وأضع سكّينًا في حزامي. وحينئذ، يصبح كلّ شيء

سهلا يسيرًا. ألستُ حفيد هنود؟ أليس الدّم المُتدفّق في عروقي متوحّشًا بريًّا؟ صحيح أنّ غابة الأمازون لا تضمّ أسُودًا بنفس القدر الموجود في إفريقيا. لكنّ أنهارها شاسعة جدّا، مليئة بالتّماسيح والسَّناد[1]. لم أكن أشعر بالضّجر من تصفّح كتاب العلوم الطّبيعيّة. فقد كنتُ أعشق العلوم الطّبيعيّة، وخصوصًا تلك التي يدرّسها فايول. يتأمّلني كاسكودينيو... (بالنّسبة إليّ هو كاسكودينيو. أمّا بالنّسبة إلى أولئك القادمين من بعيد لزيارته، مفعمين بالاحترام والإعجاب تجاه معرفته، فهو الدّكتور لويز دا كامارا كاسكودو) قلتُ إذن إنّ كاسكودينيو يتأمّلني، وهو يخمّن في ما كنتُ أعرفهُ. لقد اكتشف من خلف مظهري الواهن عالم المغامرات المكبوتة ونفادِ الصّبر الذي يسكنني. وعندما أنهيتُ سلسلة طرزان، قدّم لي سلسلة *سكاراموش*[2]، ومن ثمّ *صقر البحار* وقراصنة عجيبين آخرين.

عدتُ إلى طاولة الألغاز. وظللتُ أوقّع بأصابعي عليها. لكنّ نفاد صبري للقاء طرزان قد اختفى.

- زيزا، ما بك اليوم؟

- لا شيء يا آدم، باستثناء انسدادٍ في حنجرتي... هناك شيء مّا يُشبه بداية حزن يطفو في داخلي.

- هل عاودك ألم الحنجرة؟

---

(1) حيوان ثدييّ من ذوات الظلف الواحد. وهو بصدد الانقراض بسبب تدمير الغابات في أمريكيا الجنوبيّة.

(2) هو شخصيّة شهيرة ثابتة في مختلف مسرحيّات القرنين السّادس عشر والسّابع عشر. وهو رجل إسبانيّ ثريّ يرتدي ملابس سوداء. وهو مدّع كاذب وطريف.

- ليس هذا هو الأمر يا آدم. إنّني أتحدّث مجازًا، مثلما تفعل أنت والأخ أمبروزيو.

- إذن، ما بك؟

وانفلتت منّي كذلك الرّغبة في الحديث والثّرثرة.

- أعرف أنّك منزعج، لأنّك ستصير مقيمًا في المدرسة. أليس كذلك؟ ولكن، لا تقلق. سيكون كلّ شيء على ما يرام... إنّها حرّيّة رائعة لا حدّ لها. يمكنك أن تلعب بالكرة كما تشاء. ومن يدري، قد تنضمّ حتّى إلى فريق لويز دي ميلّو!

- أتعتقد هذا؟ لا يقبل فريق الإيتاراري إلاّ اللاّعبين الجيّدين. أمّا أنا، فأخرق بشكلٍ لا يُصدّق.

- إذا تمرّنتَ قليلًا...

- لا فائدة ممّا تقول يا آدم. نقطة قوّتي هي السّباحة. فعندما يتعلّق الأمر بالمياه، أصير مجنونًا لا مثيل له.

صمتُّ مرّةً أخرى.

- أعرف يا زيزا. ستظلّ طيلة شهرين كاملين من دون موريس. فلن يتمكّن دون شكّ من الذّهاب لزيارتك.

كان هذا الموضوعُ الذي أتجنّب الحديث فيه حتّى مع نفسي يؤلمني بعض الشّيء.

- إنّه موضوع مزعج.

- ولكن عليك أن تعتاد هذه الفكرة.

- أعرف أنّه لن يتمكّن من زيارتي في الإعداديّة هناك... لن يُتاح لنا أن نتحدّث طيلة اللّيل كما هو الحال هنا. ولهذا السّبب، يكمن الحلّ الوحيد في النّوم وفي تجلّيه لي في أحلامي كلّما اشتقت إليه كثيرًا.

تنهّدتُ بقوّةٍ. ثمّ استأنفتُ كلامي:

- ولكن ما يجعلني حزينًا ليس غياب موريس ولا كوني سأصبح مُقيمًا في الإعداديّة.

- قل إذن...

- إنّه هو. ألا تلاحظ كم صار حزينًا ومهمومًا؟ لم يعد يدندنُ الآن بتلك الكلمات في الحمّام: «استيقظي، افتحي النّافذة يا ستيلا». كما أنّه فقد ذلك الهوس بالغضب لأيّ سبب والانزعاج من كلّ شيء. يمكثُ ساكتًا. ولا يفعل شيئًا سوى القراءة، تائهًا في عالم الكتب والصّحف.

- هذا طبيعيّ. فالعمليّة الجراحيّة تبقى عمليّةً جراحيّةً دومًا.

- نعم.

عدتُ إلى صيامي عن الكلام.

- حسنًا يا زيزا. أنا أحترم مشاعرك. وإذا كنتَ لا تريد التّكلّم، فلك ذلك. أعرفك جيّدًا. ولا حاجة إلى الإلحاح إذن.

واستمرّت المحادثة على حِجر موريس. إذ ظللتُ أروي له مخاوفي.

- صلِّ من أجله يا زيزا. ولكنّ عمليّةً جراحيّةً تظلّ دومًا عمليّة جراحيّة. ألم تقل لي إنّه ذو بأس شديد كأنّه صخرة؟

- هذا صحيح.

- إذن، سيُشفى سريعًا. وسيكونُ بخير عند عودته. وتُستأنفُ الحياة مثلما كانت من قبل.

- حتّى الآن، مازلتُ غير مرتاح معه.

- أنت لا تحبّه. أليس كذلك؟

- بلى، قليلًا فحسب. ففي النّهاية، هو أبي رغم كونه أبًا بالصّدفة. أقصد أنّه ليس عدوًّا. كما أنّني أعرفُ أنّ الأطفال لا يفهمون أحيانًا ما يريده الأشخاص البالغون من حولهم. لذلك، أحسبُ أنّه يريد لي الخير على طريقته الخاصّة.

- أنا سعيد لسماعك وأنت تتكلّم وتفكّر بهذا الشّكل.

ثمّ أضاف:

- اجلس قليلًا على سريرك. الطّقسُ حارّ اليوم بشكلٍ لا يُصدّق.

استجبتُ لطلبه، دون أن أبتعد عنه كثيرًا. فقد كنتُ راغبًا في اغتنام هذه اللّحظات، لحظةً لحظةً، عارفًا أنّنا لن نلتقي طيلة شهرين كاملين.

- أتعرفُ الحقيقة يا صغيري؟ أنتَ تحبّه كثيرًا، دون أن تعي ذلك حقًّا. وهذا أفضل.

- لا يبلغ حبّي له مقدار نصف ما أكنّه لك من حبّ.

ضحك موريس.

- بلى. إنّك تحبّه. وذات يوم، عندما تتوصّل إلى قبول الأشياء كما هي، فإنّك ستحبّه كثيرًا.

- أهذا صحيح؟

- إنّني أقسم لك. ستحبّه ذات يوم كما هو، وعلى طبيعته، لأنّ المرء لا يستطيع أن يطلب من الآخرين أكثر ممّا يمكنهم إعطاؤه.

- مثله تمامًا...

- مثل من؟

- الأخ أمبروزيو... لقد قال هذا الكلام ذات مرّة، ولكن بكلمات مختلفة. قال أيضًا إنّ السّعادة تكمنُ حيث هي، لا حيثُ نريدها أن تكون. ليست هذه كلماته بالضّبط كما تلفّظ بها. فأنا لا أجيد تكرارها بدقّة، لأنّ الأخ أمبروزيو ماهر جدًّا في الكلام. أتعرف؟ أودّ أن أقدّمه لك ذات يوم يا موريس.

قلت ذلك دون اعتقاد كبير فيه. فقد كان كلّ منهما يعيش في عالم مختلف جدًّا عن الآخر، ويزيد انشغالًا عن الثّاني.

- موريس.

- همم.

- هل تعرف جوني فايسمولّر؟

- لا.

- يا ربّ السّماء! كيف يُعقل هذا؟ إنّه الممثّل الذي أدّى دور طرزان في السّينما!

- آه! لقد عرفتُه الآن.

- تمّ إعلان عرض «طرزان، ابن الغابة» في قاعة سينما رويال. أنا متلهّف جدًّا لمشاهدته.

شعرتُ بخيبةِ ظنٍّ طفيفة من موريس.

- كنتُ أحسبُ أنّ الجميع يعرف بعضُهم بعضًا هناك، حيث تعمل.

- آه يا صغيري! إنّه عالم شاسع هناك... مدينة مترامية الأطراف، تختلف كثيرًا عن نتال. بالإضافة إلى ذلك، فهو يعمل مع شركة ميترو. أمّا أنا، فأعمل مع باراماونت. أتعرف رمز الجبل المحاط بدائرة من النّجوم الصغيرة، ذاك الذي يظهر في أوّل الفيلم وفي آخره؟

- نعم، أمّا رمز ميترو فهو ذلك الأسد العظيم المخيف.

- ولكن، أعتقد أنّني سأنجز فيلمًا مع ميترو في غضون ثلاث سنوات.

نظرت إليه في ريبة. ألا يقول هذا فقط ليواسيني؟ خمّن موريس ما أفكّر فيه:

- هذا صحيح. إنّنا نعدّ لإنتاجٍ موسيقيٍّ ضخم، تراني فيه

صحبة جانيت ماكدونالد[1]. لقد عملنا معًا في فيلم سابق. وقد لاقى نجاحًا كبيرًا. اسمه «فجر الحبّ».

– لم أشاهده. لكنّني سمعتُ في المنزل حديثًا عنه. في المقابل، لم أكن حينئذٍ قد مررتُ من أمام قاعة سينما. لو عرفت أنّه أنت... ولكن، لا شكّ أنّك تفهمني. كنتُ صغيرًا آنذاك...

– وكيف صرتَ الآن؟

– أقصد أنّني كنتُ أصغر. هيّا تابع حديثك.

– إذن، إذا لعبتُ الدّور في هذا الفيلم، فإنّني سأتعرّف على طرزان.

– أيّ سعادة هذه!

– ولِمَ هذا الحماس الجديد؟

– أريد أن أصبح مثله تمامًا عندما أكبر؛ أذهبُ إلى الغابة، وأعيش هنا. وبما أنّ الدّماء الهنديّة تتدفّق في عروقي، فإنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. أليس كذلك يا موريس؟

– عادةً، أصدّق كلّ ما تقوله. ولكن، هذه المرّة...

– لِمَ لا؟

– لأنّ المرء يحتاج بكلّ بساطة، كي يحيا في الغابة، إلى الكثير من الأشياء، من بينها القوّة الهائلة والقدرة على المقاومة.

---

(1) جانيت ماكدونالد (1903–1965) مغنّية وممثّلة أمريكيّة.

- ألا يمكنني أن أحصّل كلّ هذا؟

- يمكنك ذلك إذا أردت.

احمرّ وجهي تمامًا مثل الفلفل. وفهمت ما يرمي إليه موريس.

- أعرف يا موريس أنّك تشير إلى عمليّة اللّوزتين. ولقد وعدتُك من قبل بأنّني سأقوم بها.

- ولكن متى؟

- الأمر مستحيل الآن. أنت تعرف أنّني سأقيم في الإعداديّة طيلة شهرين. ولا يمكن لذلك أن يحدث إلاّ عند عودتها من ريو.

- اسمع يا صغيري. ليس هناك مشكلة في الحقيقة. تحدّث مع صديقك فايول في الأمر. وسيتكفّل هو بكلّ شيء.

عبستُ. ولكنّ ذلك بسبب انضمام آدم:

- معه حقّ يا زيزا. عليك أنّ تتّخذ قرارك.

لم يقل موريس أيّ شيء. لكنّه ظلّ يحدّق فيّ بثبات.

- حسنًا، سأتحدّث مع فايول في الأمر.

- في أقرب وقت ممكن يا صغيري. أريد أن أراك قويًّا تلفحك الشّمسُ، وأنت تسبح مثل سمكة وتركل مؤخّرات هؤلاء الفتيان الأوغاد الذين يسخرون منك.

- دون شكّ. ولكن، عليك أن تعدني بشيء مّا.

- أعدك.

- أن تكون إلى جانبي يوم العمليّة، تساندني بحضورك.
- سأفعل، حتّى لو اضطررتُ إلى دفع غرامة. سأترك عملي من أجل أن أكون معك.

حدّق في ساعته. فانتفض قلبي في مكانه. لقد حانت اللّحظة التي لا أرغب فيها مُطْلَقًا.

- تعال هنا، يا صغيري.

وفتح ذراعيه.

- عليّ أن أذهب.
- هل سنفترق لشهرين كاملين يا موريس؟
- يجدر بنا أن نفعل. أليس كذلك؟

ثمّ مرّر أصابعه على عينيّ.

- لا أريد أن أرى دموعًا. سيمرّ الوقتُ سريعًا. وتكون سعيدًا، تلعب مع الكثير من أترابك.
- ربّما... ولكنّني سأشتاق إليك كثيرًا.
- احفظني في قلبك مع آدم. وفكّر فيّ من حين إلى آخر.

واسترسل يمسّح على شعري، دون أن يتركني.

- لن أسعادك اللّيلة على نومك.
- هذا أحسن. سأستدير قبالة الحائط، كي لا أراك وأنت تغادر.

أحسستُ بفراغ يسكنُ جسدي وروحي، فيما كان موريس يبتعد مُختفيًا عبر الجدار. بدا الأمر كأنّ الغرفة كلّها تُظلم شيئًا فشيئًا.

عندما حدّثتُ فايول بقراراتي، ظهر عليه الارتباك والحيرة.

- لم أفهم جيّدًا يا شوش. هل قرّرتَ فجأةً أن تُجري عمليّة اللّوزتين؟

- لقد تكلّمتُ مع موريس في الأمر طويلًا. وهو يلحّ عليّ من أجل إجراء العمليّة. كما أنّ آدم يقضّي كلّ وقته وهو يصدّع رأسي بهذه الحكاية.

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- أن تأتي معي إلى الطّبيب دون أن يعلم أحد بالأمر. ثمّ نحدّد معه الموعد.

حكّ الأخ فيليسيانو رأسه، كعادته كلّما واجهته صعوبة.

- ولكن يا شوش، لا أستطيع فعلَ أمرٍ كهذا.

- بل تستطيع. لقد أكّد لي موريس ذلك.

- نعم، طبعًا. ولكنّ مسؤوليّتي على المحكّ.

- لن يموت أحد. إنّها مجرّد عمليّة على اللّوزتين. الأمر بسيط... كما أنّها ستكون مفاجأةً لها عند عودتها.

- ومع ذلك، يجدر بي أن أفكّر في الأمر.

- لا تفكّر طويلًا. علينا أن نُنهي الأمر قريبًا. لطالما حدّثتني أنت أيضًا عن العمليّة والمثلّجات وما إلى ذلك.

استغرق بعض الوقت، وهو يسحبُ ساعته من جيبه ويُمسك بمنديله ذي المربّعات كي يمسح العرق عن جبينه. ثمّ قال:

- هاك إذن ما سنفعله يا شوش. سأستجيب لكلّ طلباتك، ولكن عندما يعود أبواك من السّفر.

- بهذا الشّكل، لن يكون الأمر طريفًا.

- بلى. وسترى ذلك. فعند عودتهما، ستظلّ مُقيمًا هنا طيلة ثلاثة أيّام حتّى يستقرّا من جديد. وحينئذٍ، نستغلّ ذلك الوقت لزيارة الطّبيب وإجراء العمليّة.

- دون علمهما.

- سيكون سرًّا مكنونًا. أعدك بذلك. والآن، متى تأتي للعيش معنا؟

- سيرحلان بعد يومين. وحالما يغادران سآتي مصحوبًا بأشيائي. هل وفّقتَ في مساعيك مع الأخ لويز؟

- نعم، نجحتُ أيّها الشّيطان الصّغير. ستمكث مع الكبار، رغم أنّ الأخ أمبروزيو لم يكن موافقًا تمامًا على ذلك.

- الأخ أمبروزيو ينتمي إلى الطّراز القديم. تخيّل معي يا فايول معنى أن يعيش المرء مع أولئك الأشقياء الصّغار.

انفجر ضاحكًا.

- والآن، أسرع إلى القسم يا شوش. فلقد رنّ الجرس.

وقد كانا أسعد شهرين في حياتي حتّى يومنا هذا. كنتُ ألعب بالكرة، وأستمتع بوقتي، وأركضُ، وأشفي غليلي من الشّمس. أمّا حنجرتي، وبفضلِ معجزةٍ غامضة، كانت بألف خير. ولم تتجل

أمامي بألمها ولو مرّةً واحدة. ذات ظهيرة، رآني الأخ فلافيو بهذا المزاج الحسن، سعيدًا جدًّا. فقال للأخ مانويل:

- انظر إلى وجه هذا الصّبيّ، أحمرَ مثل تفّاحة.

- هذا ما كان ينقصه منذ البداية؛ أن يلعب مع أترابه ويغادر القفص.

كان بإمكاني أن أفعل أيّ شيء، دون أن أواجه أيّ اعتراض. وكنتُ مسؤولًا بشكل كلّيّ عن أفعالي. اتّسعت عائلتي إلى حدّ مّا في تلك الفترة. فقد كان فايول يمنحني المال، كي أذهب إلى السّينما يوم الأحد. شاهدتُ جوان كراوفورد[1] في شريط عنوانه «قرننا العشرون». وبما أنّ موريس كان بعيدًا، فقد قرّرتُ أن أعتبرها أختًا لي، إنّ أختًا جميلةً جدًّا مثلها ومختلفة عن أختي الحاليّة الفظيعة يمكنها أن تتزوّج جوني فايسمولّر، فنذهب معًا ثلاثتنا إلى الغابة، دون أيِّ مُجازفةٍ تُذكر.

هناك فيلم آخر أثّر فيّ. وهو *المرأة المرسومة*. وفيه ممثّل لم أشاهده من قبل، اسمه سبنسر ترايسي[2]. قرّرتُ أن يصبح عمّي. ثمّ وجدتُ أخويْن اثنيْن، هما جورج رافت[3] وشارل بوايبه[4]. وقد

(1) جوان كراوفورد (1908-1977) ممثّلة سينمائيّة وتلفزيونيّة أمريكيّة، بدأت حياتها المهنيّة بصفتها راقصة وفتاة استعراض.

(2) سبنسر ترايسي (1900-1967) ممثّل أمريكيّ شهير وأحد أبرز نجوم العصر الذّهبيّ في هوليود. تمّ ترشيحه خلال مسيرته لتسع جوائز أوسكار (أفضل ممثّل) نال اثنين منها.

(3) جورج رافت (1895-1980) ممثّل أمريكيّ.

(4) شارل بوايبه (1899-1978) ممثّل فرنسيّ شهير عرف نجاحًا كبيرًا عند مشاركته في أفلام أمريكيّة كثيرة.

كانا أخويْن أكبر منّي بكثير. ما إن يحلّ يوم الأحد، حتّى يرسلني فايول إلى السّينما. وكان يسمح لي بأن أشاهد الأفلام التي أرغبُ فيها. فهو يعي جيّدًا أن لا شيء من ذلك يمكنه أن يسبّب لي الأذى. ومع حلول السّاعة الرّابعة -يا للصّدفة!- يخرج في نزهةٍ إلى ساحة أندري ألبوكيرك. ويظلّ ينتظرني في أقصى السّاحة.

أروي له كلّ ما رأيتُه في السّينما. فيستمتع لحديثي. وعندما ذكرتُ له أسماء عائلتي الجديدة، انفجر ضاحكًا:

- ولكن، يا شوش. أليس عددهم كبيرًا بعض الشّيء؟

- لماذا؟ لطالما كان عندي الكثير من الإخوة والأخوات يا فايول.

وكان يفهم مجدّدًا شعوري بالوحدة، وهو يرى كم كنتُ مشتاقًا لإخوتي وأخواتي البعيدين عنّي.

- هناك شيء مّا لم أفهمه يا شوش. أختك الجديدة، هل هي ابنة موريس؟

- لم أفكّر في الأمر بعد.

- وهل هي أخت أخويكَ الجديديْن؟

- ليس لذلك أيّ أهمّيّة يا فايول.

- حقًّا؟ وهل هذا العمّ هو أخ موريس؟

- هذا ممكن، لأنّه هو أيضًا شخصٌ رائع... بل هو الطّيبة متجسّدةً في إنسان.

ولكنّ إخوتي لم يكونوا على وفاق. فشارل وجورج أشبه بقابيل وهابيل، يكرهان بعضهما البعض. وعندما أكون مع أحدهما، لا أستطيع مصاحبة الثّاني. وهما كذلك ليسا ابنيْ موريس ولا قريبيْ سبنسر ترايسي.

جلس فايول ليستريح على إحدى مقاعد السّاحة. وضحك.

- إذا واصلت على هذا النّحو، فسيكون لدينا خليط من كلّ أصناف الشّياطين.

- الأمر معقّد بعض الشّيء، ولكن ليس إلى هذه الدّرجة.

- قل لي يا شوش، متى تجد الوقت للقاء كلّ هؤلاء النّاس؟

- متى رغبتُ في ذلك، حتّى أثناء درس الرّياضيّات. أمسكُ الكتاب. فتدخل ريح عبر النّافذة. ويتحوّل كلّ شيء. ويُشبّه إليّ أنّني لم أعد في الصّفّ أو في الإعداديّة. يا للإحساس الرّائع!

ينهضُ بجسده الضّخم. يمسّح على رأسي. ويعلّق:

- ستخرج من هذا الرّأس الكثير من الأشياء. أمّا الآن، فاحلم وكن سعيدًا يا بنيّ.

واستحثّ خطاه، مُبتعدًا.

- لنرجع. لديّ في قاعة الطّعام مرطّبات وجبن. حين يعود أبواك أريدهما أن يجداك أقلّ هزالًا.

وظللتُ أحيا، وألعبُ، وأحلم. لكنّني لم أرد أن أفكّر في موريس. فهو لم يظهر لي في الإعداديّة. لم أكن أفكّر في عائلتي

الحقيقيّة أيضًا، باستثناء المرّات التي تأتي فيها دادادا بحثًا عن الملابس المتّسخة أو حين تعيدها نظيفة مكويّة. عندما تزورني كانت تزوّدني بالأنباء. لقد أجرى أبي العمليّة. وهو بخير الآن. وسينهي شهريه في ريو، كي يتعافى تمامًا. وأحيانًا أخرى، كانت أختي تتّصل بالإعداديّة.

طار الوقتُ بسرعة. وعاد أبي. قضّيتُ أسبوعًا آخر في الإقامة الدّاخليّة. ثمّ ذهبتُ ذات صباح باكر إلى المستشفى. كان العرق البارد يكسو جبيني مثل مثلّجات جوز الهند.

اصطحبني فايول. ومكث ينتظرني في غرفة الفحص. لم تكن عمليّة اللّوزتين تقتضي قاعةً مخصوصة. قبلتُ كلّ شيء. وكان آدم في داخلي يُشجّعني ويشدّ أزري، بينما وقف موريس في قميصٍ أزرق فاتح اللّون عند الباب، مُبتسمًا، يُشجّعني هو أيضًا.

(2)
ألمُ مظلمة

ما إن تمّ انتزاع الكرتين الصّغيرتين من حنجرتي حتّى -بفففففت!- فتحتُ كلّ أشرعتي وانطلقتُ. لقد جعلني سروالي الشّهير سلَفًا باعتباره مُلكًا لأخرق الإعداديّة أضحوكةَ المدينة. وبما أنّ ذراعيّ الشّبيهتين بأعواد الخبز تنقلبان عصيّتين شديدتين بيسر، فإنّني لم أتوقّف عن توظيفهما كما ينبغي.

- أخرق، جبان! أيّها الدّجاجة المبلولة!

ركلة قدم، فلكمةٌ فعينٌ مسوّدة... ولا أعود إلى البيت كاتمًا أيّ غيظٍ بعد الآن. بدأتُ أعشق حصص الرّياضة وأبذل كلّ ما في وسعي كي يكبر حجمي وتزداد قوّتي.

حتّى موريس كان مندهشًا لذلك:

- ألم أعدك بهذا يا صغيري؟

لقد أضرب عن مزحته القديمة. إذ اعتاد من قبل أن يردّ عليّ كلّما سمعني أقول: «عندما كنتُ صغيرًا...» بسؤاله: «أكنتَ أصغر من الآن، يا صغيري؟». لم يعد هذا السّؤال يخرج من فمه مُطْلَقًا. أمّا أنا، فقد أدركتُ طول جواو روشا، أكبر تلميذ في القسم. وفي كرة القدم، أصبحتُ لاعبًا لا يُهزم.

ولكنّ شغفي الأكبر تمثّل في السّباحة... نعم السّباحة، أن أسبح مثل جوني فايسمولّر عندما كان طرزان الحقيقيّ. ولكي أعترف بكلّ شيء، كنتُ أتخطّى بعض دروس ما بعد الظّهر بحماية من فايول. أفرّ بسرعةٍ. فأطوف حول الشّوارع الرّئيسيّة متجنّبًا أن أمرّ حذو عيادة أبي، حتّى أصل إلى مركز الرّياضات المائيّة في بوتنغي.

كان لديّ هاجس ارتداء قميص سباحة صغير جدًّا يمكن أن أثبّته في كفّي.

- شوش، بحقّ محبّة الرّبّ، كن حذرًا!

وكنت أعود كلّ يوم ظافرًا أكثر من اليوم الذي سبق.

- شوش، كلّ يوم؟! لا هذا ممنوع. مرّة كلّ ثلاثة أيّام... أسمعت؟

كنتُ مبتهجًا بنجاحاتي.

- أتعرف يا فايول؟ لقد نجحتُ اليوم في سباحة المسافة التي تمثّل طول المركز كلّه جيئةً وذهابًا. وقريبًا، سأتمكّن من سباحتها بأريحيّة كبرى، دون أيِّ مجهودٍ كبير.

كان فايول يصغي إليّ، مُنشرحًا:

- لا أعرف ما إذا كنتُ على حقّ أم لا. ولكنّني سعيد إذ أراك لم تعد ذلك الطّفل الحزين الأعجف.

صار لزامًا عليّ وبسببك أن أصلّي كلّ يوم طلبًا للمغفرة.

- ألا يستحقّ الأمر ذلك؟

- بلى. ولكن عندما تذهب للسّباحة، أشرع في الصّلاة بلا توقّف حتّى تعود... بالإضافة إلى أنّ قلبي يظلّ ينبض بقوّةٍ طيلة هذا الوقت.

- ليس هناك أيّ خطر يا فايول. وقريبًا، قريبًا جدًّا، سأتمكّن من الوصول إلى رصيف تافاريس دي ليرا.

- كلّ هذا رائع يا بُنيّ. ولكن، اجلس هنا على الكرسيّ. علينا أن نتحدّث بجدّيّة.

استجبتُ لطلبه، وأنا أتساءل في سرّي: ما الذي يحدث؟ هل هناك من وشى بي لأهلي يا ترى؟

- أعرف كلّ ما يحدث في المركز.

ضحكتُ.

- قل لي يا فايول، لستَ مصدومًا لأنّنا نخلع ملابسنا في غرفةٍ واحدة. أليس كذلك؟

- لا طبعًا. لا أهمّيّة لهذا على الإطلاق. لكنّني تحدّثت مع تلاميذ أكبر منك سنًّا، يذهبون للسّباحة هناك يوم الأحد. وأعرف أنّ هناك أولادًا يذهبون للسّباحة قرب سفن كبيرة في المرسى. أليس هذا صحيحًا؟

- نعم. ولكن السّبّاحين الكبار فقط يفعلون ذلك، مثل جوناس هونوريو وإبنيزر. ومازال الأمر عسيرًا عليّ في مرحلةٍ كهذه.

- حتّى حين تصير سبّاحًا أمهر، فإنّك سَتَعِدُني بألاّ تذهب أبدًا للسّباحة قرب السّفن.

- لماذا يا فايول؟

- لأنّ هناك أحاديث عن امتلاء المنطقة بأسماك القرش وأنّ هذه الأسماك تستقدمها فضلات الأطعمة الملقاة من السّفن.

- هذا أيضًا صحيح.

- إذن؟!

- ومع ذلك، لا أحد حتّى الآن قد هاجمه أيُّ قرش.

- ولكن، يمكن لذلك أن يحدث ذات يوم. أليس كذلك؟ ستتجنّب فعل هذا من أجلي يا شوش. أفهمت؟

- سأعدك بهذا لاحقًا. فحتّى الآن، لستُ ماهرًا في السّباحة بما يسمح لي بالذّهاب بعيدًا والمجازفة بهذا الشّكل.

فجأةً، تذكّرت تفصيلًا معيّنًا:

- فايول، هل تحبّ البطيخ؟

فتح عينيه على وسعهما، مشدوهًا لهذه الوثبة العجيبة. ثمّ قال:

- ليس كثيرًا. ولكن ما علاقة هذا بما كنّا نتحدّث فيه؟

- حسنًا، إنّه تحذير يعلمه جميع سبّاحي النّادي. لأسماك القرش رائحة البطيخ. وعندما يشمّ أحد الأولاد هذه الرّائحة، يصرخ بأعلى صوته «بطيخ، بطيخ». فينسحب الجميع مسرعين نحو الرّصيف. وإذا كان أيّ واحد بعيدًا عن الضّفّة، فإنّه يصعد إحدى القوارب الصّغيرة حتّى تنقشع الرّائحة.

وضع يده على صدري، وقد صار لونه أشبه بالبنفسج:

- لا تقل لي هذا يا شوش. لن أشعر بالاطمئنان بعد الآن أبدًا.

اخترتُ أعلى درجة في صوتي من الرقّة. وأجبته:

- لا تخف يا فايول. لن يحدث لي أيّ شيء. أعدك بألاّ أسبح بعيدًا عن الضّفّة أبدًا. وعندما أتمرّن، سأمكث دومًا في جهة المنازل.

تنهّد بعمق. وقد بدت عليه الرّاحة إثر كلماتي تلك.

- حسنًا. ولكنّك وعدتني. لا تنس ذلك.

كان الحديث بيننا بلا نهاية. وظللتُ أقفزُ من موضوع إلى آخر بيسرٍ شديد.

- أيمكنك أن تتخيّل يا آدم صراعًا بين طرزان وكينغ كونغ[1]؟ سيكون ذلك رائعًا.

- ولكنّ طرزان سيبدو أمام الغوريلا شبيهًا بدجاجةٍ صغيرة.

- أتعتقد هذا؟ لقد قاتل في «طرزان، ابن الغابة» قردًا بنفس حجم الغوريلا تقريبًا. كما أنّه لا يحتاج إلاّ لإطلاق صرخة الحرب حتّى تأتي الفيلة كلّها لنجدته. ستكون معركةً عجيبة.

هبّت ريح صغيرة داخل غرفة الطّعام. وكانت كومة الكتب إلى جانبي. ولكن، أين أعثر على الشّجاعة؟ أرادت الرّيح أن تحملني بعيدًا جدًّا. فهي تلك الرّيح التي أسمّيها الأباتشي[2]، نفس الرّيح

---

(1) شخصيّة متخيّلة لغوريلا ضخم الجثّة برزت في الرّسوم المتحرّكة والأفلام.

(2) مجموعة من قبائل الهنود الحمر، السّكّان الأصليّين لأمريكا الشّماليّة.

التي هبّت وارتفعت عندما كان وينيتو[1] يخبُّ في السّافانا، وشَعْرُهُ الطّويل الأسود يرفرف في الهواء. والآن، حان دور «شغف وينيتو». اشترى أبي الأجزاء الثّلاثة. وقد أهملها في المكتبة بعد أن قرأها كلّها. وها هي الآن تذهب إلى مخبإ الطّاولة. كانت يدي تطال أحد الأجزاء باستمرار.

أبتسم إذ أسمع تعليقات أمّي التي توزّعها على الجيران:

- لديه هذه الخصلة؛ يعمل بيُسرٍ شديد. ونتائجه في المدرسة ممتازة، باستثناء شيء من الوهن في الرّياضيّات.

أوه من الرّياضيّات! إنّها فزعي الأكبر. لقد تحسّنت نتائجي قليلًا، لأنّ فايول كان يدرّسنا حصّة الجبر. وكان الأمر يلائمني تمامًا؛ أقصد أن يكون هو المدرّس، بينما تنتشر في حصّة الجبر هذه الحروف أكثر من الأرقام.

- أترى يا آدم؟ الجميع يحترمني في المدرسة. ولم يعد هناك من يتصيّد لي الهفوات والمقالب. هل تعتقد أنت أيضًا أنّني أصبحتُ رجلًا صغيرًا؟
- كيف لا، وقد أوشكت ألاّ تحتاج إليّ بعد الآن، حتّى إنّه يمكنني الرّحيل قريبًا.
- هل عدت إلى هذه الحماقات؟ إنّك تعيد هذه القصّة للمرّة الثّالثة.

---

(1) شخصيّة هندي من الأباتشي متخيّلة، أبدعها الرّوائيّ الألمانيّ كارل ماي. وتمّ تطويرها في ثلاثيّة تحمل الاسم نفسه سنة 1893.

- لا أحد يمكنه تجنّبُ ما هو حتميّ.

- أوف! أوف! يا آدم! السّعادة تغمرنا وريح الأباتشي تهبّ، فيما تحلّ علينا أنت قاتلًا للبهجة!

عبسنا معًا. واستغرقت أفكاري في لغز الأشياء من حولي. في الحقيقة، كنتُ قد أدركت الثّانية عشرة. يمرّ الوقت سريعًا. وقد أصبحتُ في منتصف سنتي الثّانية بالمدرسة الإعداديّة. وحياتي تتحسّنُ شيئًا فشيئًا. صار يُسمح لي بالمكوث على الشّاطئ وقتًا أطول، وباكتشاف عالم الحديقة، حيث تعرّفتُ على جميع الأشجار. هناك منجم من الأشياء المخفيّة في شجرة السابوديلا. وأيّ مشاعر، تلك التي تغمرني ليلًا عندما أفرّ عبر النّافذة، وأمشي على الجدار دون أن أفزع الدّجاجات، وأتسلّق أغصان المانجو! هناك شبكة كبيرة من الأسلاك تفصل بين قنّي الدّجاج. توجد في القنّ الأوّل دجاجات اللّيغهورن[1] في أثوابهنّ البيضاء المثاليّة. لقد كنّ جميعًا غِيد الكاميليا[2] (كنتُ أموتُ رغبة في قراءة الكتاب). أمّا في القنّ الثّاني، فتمكثُ دجاجات الرود آيلاند ريد[3] أنيقاتٍ كلّهنّ بتنانيرهنّ الواسعة الحمراء بلون النّار وقبّعة الدانتيل المصفرّة قليلًا على رؤوسهنّ. كنّ يضعن كبرياءهنّ في كلّ ما يفعلنه. وكنتُ

---

(1) سلالة دجاج من سلالات البحر الأبيض المتوسّط تعرف غالبا باللّون الأبيض وعُرفها المائل.

(2) إشارة إلى رواية «غادة الكاميليا» لألكساندر دومّا الابن المنشورة سنة 1848 والمستلهمة من قصّة حبّه للمحظيّة ماري دوبليسيس.

(3) فصيلة من الدّجاجات الأمريكيّة الأليفة.

أقضّي ساعات على الجدار أراقب حياتهنّ. تنحنين برشاقةٍ من أجل الأكل، كأنّهنّ يلتقطن الأشعّة وليس حبوب الذّرة. وعندما يصدرن النّقيق، تخرج أغنية ليست قبيحة، ولكنّ لغتها غريبة. لا شكّ أنّها الإنجليزيّة.

كنتُ أنتقل من هناك إلى شيء آخر. لقد سُمح لي في البيت بأن أحظى بصديق. إنّه يسكن المنزل المقابل لنا. وهو أيضًا مُراقَبٌ مثلي. كما أنّه معروف لدى الجميع بكونه الطّفل الأكثر ثراء في المدينة. لا يتنقّل إلاّ بواسطة السّيّارة. وفي أحيان كثيرة، أذهب معه إلى الإعداديّة في تلك السّيّارة الكبيرة ذات البوق الشّبيه بخوار البقرة. منزله هائلٌ كبيرٌ ومُغلقٌ من كلّ الجهات. وتربّيه عمّتان لا تفتحان أبدًا نوافذ الواجهة خوفًا من الشّمس. يوم الأحد، يذهب إلى القدّاس داخل السّيّارة الكبيرة، جالسًا بين عمّتيه اللّتين تشرعان في الصّلاة منذ مغادرة المرآب، تفاديًا لتبذير الوقت. كانت إحداهما طويلةً جدًّا ونحيفة. أمّا الثّانية، فقد كانت قصيرةً ومكوّرة. يمتدّ طوق ثوبيهما حتّى الذّقن. كما أنّهما تلبسان بشكل أبديّ حذاءين سوداوين لامعين على الدّوام.

ومرّة في الشّهر يُسمح لهذا الصّبيّ أن يأتي للّعب معي، مُسلَّحًا بالنّصائح والتّوجيهات.

- هل يأتي اليوم؟

خمّن آدم ما أفكّر فيه.

- يجدر به ذلك.

- زيزا، هل تخاف منهما؟

- عمّتاه؟ لا. لقد تحدّثتا معي ذات مرّة. وعندما عرفتا أنّني وضعتُ خبز القدّاس في فمي أوّل مرّة عند بلوغي العاشرة، رسمتا شارة الصّليب. وصرختا:

«بحقّ الرّبّ أيّها الصّغير! على الأطفال أن يستقبلوا يسوع الصّغير في قلوبهم منذ السّادسة أو السّابعة، أي عندما تكون أرواحهم بيضاء تمامًا». قد يكون ذلك صحيحًا. ولكن في القرية التي جئتُ منها لا أحد يهتمّ لهذا. نظرت إليّ الطّويلة حينئذٍ وسألتني بشفقةٍ بادية على ملامحها: «لماذا؟ هل أبواك مهرطقان؟». وما إن أتمّت كلمتها تلك حتّى رسمت القصيرة شارة الصّليب مجدّدًا. شرح لي فايول في الإعداديّة أنّ لفظة مهرطق مرادفة للفظة بروتستانتيّ.

سألني آدم مُلحًّا:

- ولكنّه سيأتي اليوم حقًّا؟

- لقد أجبتُك سلفًا أنّه يجدر به القدوم. لا شكّ أنّ عمّتيه تعتقدان أنّه هو أيضًا قد أصبح رجلًا صغيرًا.

رجل صغير... كلمتان تمثّلان عندي مصدرَ لذّةٍ لا مثيل لها. ولا بدّ أنّهما كذلك عند آدم أيضًا. وكان أبي يرى أنّني أكبر سنًّا من أن أواصل الحديث مع الخادمات، حتّى إذاتعلّق الأمر بدادادا. بل إنّني لم أعد قادرًا على أن أناديها بهذا اللّقب. «إزورا. أفهمت؟ اسمها إزورا». ثمّ تنزل ملاحظتُه الآمرة عليّ: «لا أريد أن أراك في المطبخ بعد الآن. المطبخ ليس مكانًا للأطفال».

- آدم، لماذا تلحّ عليّ بالسّؤال ما إذا كان سيأتي أم لا؟

- لأنّ اليوم يومُ سيّارة الإسعاف.

اهتززتُ في مكاني:

- صحيح.

لقد كسر ابن عمّي بالتّبنّي ساقه. وعليه أن يتلقّى تصويرًا بالأشعّة في عيادة أبي. ومن أجل ذلك، نحتاج إلى سيّارة إسعاف. وبما أنّ المستشفى يملك سيّارةً واحدة فحسب، فقد تمّ تأجيل الأمر إلى مساء اليوم. ستأتي على السّاعة الثّامنة كي تصطحب أبي. ولا أعرف سببَ دعوتي لمرافقته. في الحقيقة، لم تكن مسألة ساقه هذه تعنيني كثيرًا. ما أردته حقًّا هو أن أركب سيّارة إسعاف دون شكّ. فهذه الفكرة تسكنني منذ الأزل.

- سيكون لدينا متّسع من الوقت. ويمكننا أن نلعب قليلًا على الرّصيف. وسيتمّ تقديم العشاء في وقت مبكّر. فهو لا يحبّ العمل ببطن ممتلئة. كلّ شيء مجهّز بعناية.

اسمه جواوزينيو كذلك. أقصد جواو جالفاو دي ميديروس. وهو يرتدي ملابس أنيقة على الدّوام؛ سروال من الكشمير الأزرق وقميص من الحرير البرّيّ. تناولنا العشاء على السّاعة المحدّدة. وجلسنا على مقعدٍ في الحديقة العموميّة أمام البيت، نراهن بأعواد الثّقاب المحترقة على السّيّارات. كلّ سيّارة تصعد الشّارع نراهن ما إذا كانت لوحتها جديدة أم لا. واستمرّت اللّعبة بطيئة. إذ لم تكن هناك سيّارات كثيرة في ناتال، وخصوصًا في المساء.

من حين إلى آخر، تُطلّ العمّتان برأسيهما من النّافذة، هناك من قمّة منزلهما الخاصّ، واضعتين شالًا على الكتفين حتّى لا يصيبهنّ البرد. يمكثن هكذا أو يتبادلن الحراسة حتّى تحين السّاعة فتهزّ إحداهنّ جرسًا صغيرًا. حينئذٍ يعدّل جواوزينيو تسريحة شعره وقميصه وسرواله. ثمّ يمضي. لا يتجاوز الوقت المعتاد السّاعة الثّامنة والنّصف.

عند البوّابة، تمكث دادادا (لا ليست كذلك. إنّها إيزورا) وهي تحدّق في ما حولها مستنشقة الهواء المنعش ومصوّبة عينًا رقيبةً نحونا ونحن نلعب. سُمع مواء خافت في مشتل أزهار الحديقة. فتوقّفنا عن اللّعب. وأصخنا السّمع.

عاود المواء بصوتٍ أعلى هذه المرّة.

- فلنذهب!

قفزتُ فوق المرج الصّغير. ومددتُ يدي. فأمسكتُ قطًّا صغيرًا جدًّا.

- المسكين. إنّه مهملٌ ووحيد. وإذا ما تُركَ هنا فإنّ سيّارةً ستسحقه أو يمزّقه كلب مّا إلى مزق صغيرة. مسّح جواوزينيو على الحيوان الصّغير بين يديّ.

- هل هو قطّ أم قطّة؟

- سنرى. تعال إلى هنا أسفل مصباح الشّارع، حيث الرّؤية أوضح.

تأمّلتُ القطّ.

- الأمر أسوأ. إنّها قطّة صغيرة.

- كيف تعرف ذلك؟

حدّقتُ في جواوزينيو مشدوهًا. يبدو أنّ عمّتيه تخبّئان عنه كلّ شيء.

- إنّها قطّة. ألا ترى ذلك؟

- هل أستطيع حملها؟

- خذ.

كان سعيدًا جدًّا، وهو يحمل القطّة الصّغيرة في يديه. وظلّ يمسّح عليها كأنّه لن يتوقّف عن ذلك أبدًا.

- ألم يكن لك من قبل أيّ حيوان؟

- لا. وأنت؟

- بالنّسبة إليّ، لديّ هذا الكلب تولو. وهو ليس كلبًا تمامًا. فهو معتوه وخانع.

- ليس لديّ حتّى مثل هذا.

- ولا حتّى دجاجات أليفة؟

- لا شيء.

- لم لا تأخذ القطّة الصّغيرة معك إلى البيت؟ وبما أنّها قد تجلّت لنا فجأةً سنسمّيها أباريسيدا[1].

---

(1) الكلمة مشتقّة من الجذر اللّاتينيّ الذي يفيد الظّهور والتّجلّي. وله دلالات دينيّة مسيحيّة تتعلّق بالعذراء مريم وتجلّيها وظهورها للمؤمنين.

– لن تسمح عمّتاي بذلك أبدًا. تيقّن من هذا.

– ولكن إذا مكثَتْ هنا ستموت. يمكنك إذن أن تأخذها خلسة. تحدّث مع البستانيّ. وسيتفهّم الأمر. لن يلاحظها أحد في تلك الحديقة الكبيرة الواسعة.

– بلى. سيتمّ اكتشافها. فعمّتاي تصلّيان كلّ يوم قبل الذّهاب إلى القدّاس في الحديقة. ولذلك ستكتشفانها بنفسيهما. إنّهما لا تطيقان حتّى العلاجيم والحلازين.

– كم هما شرّيرتان!

– ليس هذا هو السّبب. هما غير مُعتادتيْن على ذلك فحسب. ولذلك لا أستطيع اللّعب مع الحيوانات إلاّ عند ذهابي إلى فازيندا[1].

صمت كلّ منّا، وهو يفكّر في حلّ للمشكلة.

– لماذا لا تخفيه عندك في البيت؟

– ليس هناك سوى غرفة الخادمة. هل نذهب لنرى؟

وشرعنا نركض نحو إيزورا.

– أيّها الصّغير، اترك هذا الحيوان الوسخ خارجًا!

– ليست حيوانًا وسخًا يا دادادا. إنّها قطّة صغيرة جميلة. وعلينا أن نخبّئها حتّى الغد. وحينئذ، سنجد لها حلًّا مناسبًا. ألا تريدين إخفاءها في غرفتك؟

(1) مجال فلاحيّ شاسع في البرازيل مخصّص للفلاحة وتربية الماشية.

- هل أنت مجنون؟ هل تريدها أن تمتلئ بالبراغيث؟

توسّلتُ إليها:

- يا للمسكينة! ستموت إذا لم تقبلي ذلك. هيّا دادادا... حتّى الغد لا أكثر.

- ربّما أضعها جانبًا في العلّيّة، حيث يوجد عدد كبير من الحقائب. ويمكنني أن أخفيها داخل إحداها. ولكنّ الأمر يعود إليها. فإذا لم تتوقّف عن المواء، انتهى أمرها.

- لن تموء. انظري كم هي لطيفةٌ هادئة. وإذا لم تشعر بالبرد، ستظلّ ساكنة.

- هيّا بنا.

لقد نسينا السّاعة. وشغَلَنا إنقاذ أباريسيدا عن كلّ شيء آخر. ذهبت إيزورا تبحث عن شمعة في المطبخ. فتبعتُها، والقطّة على صدري فوق القلب تمامًا. أمّا جواوزينيو، فقد ظلّ ينتظر عند قمّة الدّرج. ونزلتُ أنا خلف إيزورا.

فتحت الباب.

- أيّ قذارة تسود هذا المكان! أتساءل لم لا يتمّ إلقاء كلّ هذه الخردوات في النّار.

بحثت عن حقيبة ماتزال متماسكة. وكان ضوء الشّمعة يملأ الغرفة بالظّلال والأطياف المتمايلة.

- حسنًا، سنضعها في هذه الحقيبة. فلا نيّة لديّ كي أغرق في الغبار وأنسجة العناكب.

وفي تلك اللّحظة تحديدا، وقعت أكبر تراجيديا في حياتي. لقد نسيتُ كلّ شيء؛ سيّارة الإسعاف والوقت والتّصوير بالأشعّة. لقد استعدّ أبي قبل نصف ساعة. ونزل من غرفته لكي ينبّهني إلى الموعد. ذهب إلى البوّابة. فلم يجدني. عبر المنزل. فرأى جواوزينيو، وهو ينتظر في مكانه. انفجر غاضبًا. وراح يتخيّل ما لا يمكن معرفته.

- أين هو؟

راح جواوزينيو يرتجف مثل ورقة في الرّيح. فقد أرعبه صوتُه ذاك. وفي النّهاية، أشار بإصبعه إلى الحجرة حيث وميض الشّمعة. خرجتُ، وقلبي ينبضُ بشدّة.

- تعال إلى هنا أيّها العاصي الصّغير الوسخ!

صعدتُ الدّرج، وساقاي تصطفقان بشدّة. كنتُ عاجزًا عن التّلفّظ بأيّ كلمة. أمسكني بقوّة. وسحبني لأمشي أمامه. توقّفنا في الحديقة. فلمحتُ مع وجود الضّوء أنّ عينيه كانتا غاضبتين أيضًا مثل صوته.

- إذن أيّها الوغد. ماذا كنت تفعل في غرفة الخادمة؟ أيّها العاصي الشّقيّ! اصعد فورًا. ولن تذهب معي لرؤية التّصوير بالأشعّة.

دوّت صفّارة إنذار الإسعاف في الشّارع. وشُبّه إليّ أنّها كانت تخترق جسدي بعنف. التفت أبي دوني. وظللت بلا حراك، ميّتًا من الذّلّ والحزن، حتّى إنّني لم أر جواوزينيو وهو ينفلتُ ويعود إلى بيته ركضًا.

لم أستطع أن أتحرّك. ومنعتني عقدة مؤلمة في حنجرتي من البكاء. ثمّ لاحقني سؤالٌ مُلِحّ: «لِمَ كلّ هذا يا ربّي؟». وجمّدت الرّيح التي تهبّ عبر الحديقة العَرق على جسدي.

صعدت إيزورا الدّرج ساخطة. واتّجهت نحوي. لقد فهمتْ حجم التّراجيديا التي غلّفتني. وفي غمرة تفكيرها القاسي، رأت أنّه من الإجرام أن تعامل طفلًا بتلك الطّريقة.

- ادخل. هيّا!

دفعتني بلطف. فصرّت أسناني كأنّني مضغتُ للتّوّ برتقالة مُرّة حامضة.

- هيّا ادخل! غدًا، أشرحُ كلّ شيء لأمّك. وينتهي الأمر.

(3)
قلبُ الطّفل ينسى لكنّه لا يسامح أبدًا

عندما جاء موريس ارتميتُ بين ذراعيه، وعيناي مُحمرّتان من فرط البكاء.

- ماذا حدث يا بُنيّ؟

وبينما أمسح دموعي وأنخر، رويتُ له القصّة كلّها شيئًا فشيئًا.

تركني موريس أبكي لبعض الوقت بعد أن أنهيتُ كلامي. ثمّ حاول أن يُهدّئني:

- ستمرّ الحكاية يا صغيري.

- لن تمرّ أبدًا يا موريس. إنّه ألمٌ عظيمٌ يُظاهي ذلك الألم الذي شعرتُ به عندما كنتُ صغيرًا جدًّا وحدثتْ قصّةُ أبي مع عيد الميلاد. ومنذ تلك الأيّام وأنا أستعيد مع كلّ عيد منظره بعينيه المليئتين بالدّموع ولحيته الشّعثاء. لن يمرّ أبدًا.

- مع مرور الوقت، سوف تنسى كلّ شيء. والآن وقد صرتَ أهدأ، اسمح لي بالجلوس. فقد عملت طيلة النّهار. وأنا متعبٌ جدًّا.

جلس على المقعد القديم. وأجلسني عنده.

وفي غمرة بكائي تذكّرتُ شيئًا مّا:

- إنّني أبله. أليس كذلك يا موريس؟

- مُطْلَقًا. أنت طفل. وسوف تظلّ كذلك طيلة حياتك. هذه هي الحقيقة.

- لقد قرّرتُ أنا وآدم أن... ولأنّني صرتُ رجلًا صغيرًا فسأتجنّب...

- أتعتقد أنّني لم ألاحظ ذلك؟ عندما وصلتُ تردّدتَ في تقبيلي. أليس كذلك؟

أومأت برأسي إيجابًا، وأنا أمسح دموعي.

- وهل تحسب أنّ هذا ما يعنيه أن تكون رجلًا يافعًا؟

ضحك. ومسّح على رأسي.

- أمّا هذا، فهو من البلاهة حقًّا. لِمَ لا يقبّل ابنٌ أباه؟ وما دمتَ قد اخترتني أبًا، فاعرفْ أنّ بإمكانك تقبيلي إلى أن تصير عجوزًا ذا لحية طويلة.

كانت دموعي تريد أن تنحبس. لكنّ أعضائي ظلّت ترتجف بقوّة.

- أين ذهب بُنَيّ الذي يتحدّث طيلة الوقت عن الشّمس؟ وعن إيقاظ الشّمس؟ في مثل هذه الأوقات العصيبة يثبتُ المرء نظريّاته.

- سيكون ذلك صعبًا. فأنا أعتقد أنّ شمسي متجمّدة تمامًا.

– لقد قلتُ لك من قبل: غدًا سيكون يومًا آخر. وكلّ شيء سيتغيّر.

– ما هي الحياة يا موريس؟

– آه، في ما يتعلّق بهذا لا أعرف شيئًا. ولماذا السّؤال؟

– كنتُ أفكّر... حين جئتُ إلى هنا لم أكن مُلمًّا بالجغرافيا. حسبتُ أنّ المكان هنا أمريكا الشّماليّة، وأنّني سأرى من نافذتي أصدقائي رُعاةَ البقر، باك جونز[1] توم ميكس[2] وخصوصًا فريد تومبسون[3]. لقد كانت في الحقيقة مجرّد أوهام. ولو عرفت ذلك من قبل لما قبلتُ بالقدوم إلى هنا.

مسحتُ دموعي. وقلت:

– بلى. كنتُ لأجيء إلى هذا المكان. فالأطفال لا يقرّرون مصيرهم بمفردهم. إنّهم مجبرون على القيام بكلّ ما يريده الكبار منهم. وقد كنتُ طفلًا صغيرًا جدًّا آنذاك.

– أهذا كلّ شيء؟

– نعم.

– لقد نسيتَ شيئًا. ألستُ أزورك كلّ ليلة؟

– يختلف الأمر بالنّسبة إليك.

– حسنًا، أوافقك في ذلك. ولكن، كم مرّةً يأتي جوني فايسمولّر

(1) باك جونز (1891-1942) ممثّل أمريكيّ.
(2) توم ميكس (1880-1940) ممثّل، مخرج، كاتب سيناريو ومنتج سينمائيّ أمريكيّ.
(3) فريد تومبسون (1942-2015) ممثّل وكاتب ومقدّم برامج إذاعيّة وسياسيّ أمريكيّ.

أو طرزان ليطرق باب أحلامك؟ أليس هذا صحيحًا؟

- بلى. صحيح.

- إذن، أنت تملك موهبةً عجيبة. وإذا كان المرء يملك مثل هذه الموهبة فإنّ عليه أن يعتقد أنّ شمسه بإمكانها أن تستيقظ في أحايين كثيرة. كيف تريدني أن أمثّل غدًا في الاستوديو إذا تركتك الآن غارقًا في كلّ هذا الحزن؟

صمَتَ لوهلةٍ. ثمّ استرسل يُمسّح على شعري، حتّى بدأ جفناي يثقلان.

- سأبقى معك حتّى تستسلم للنّوم.

و نهض بسهولةٍ غير متوقّعة عن المقعد. ثمّ مدّد جسدي النّاعس على السّرير.

- لستَ في حاجة إلى نزع ملابسك. فها إنّك ترتدي منامتك.

استلقيتُ، وأنا ما أزال مرتجفًا. وشعرتُ بيده تمسك بيدي. هذا هو الأب الحقيقيّ، أب يراقب نومي حتّى يشعر بأنّني استعدتُ هدوئي وسكينتي.

كان الوقت قد تأخّر جدًّا عندما استيقظتُ ووجدتُ المصباح مُنارًا، وموريس غافيًا في مقعده. ولكنّه ما إن سمع حركتي حتّى فتح عينيه.

- أمازلتَ هنا يا موريس؟ الوقت متأخّر.

- انتظرتُ حتّى أتأكّد أنّك بحالٍ أفضل وتنام عميقًا.

وقف. وانحنى فوق السّرير.

- والآن، سأذهبُ يا صغيري. لا تنزع غطاءك. فالفجر بارد.

مسّح على شعري مرّةً أخرى. وأضاف:

- نم جيّدًا يا صغيري. فالحياة جميلةٌ رغم كلّ شيء.

الألم شيءٌ فظيعٌ حقًّا! لماذا لا يستقبل المرء ألمًا شديدًا دفعةً واحدة ثمّ يذهبُ الألم كلّه بنفس السّرعة التي هجم بها؟

رويتُ كلّ شيء لفايول بسرعة. ودخلتُ القِسْمَ بأنفٍ شبيهٍ بحبّة البطاطا وعينين منتفختين. سألني ترسيسيو: «ما بك؟». ولكنّني لم أستطع أن أجيبه أو أخبره بأيّ شيء، لأنّ عينيّ تشرعان حينئذٍ في الامتلاء مجدّدًا بالدّموع. لقد فقد العالم أيّ معنى في نظري. وصار كلّ شيء يجرحني بحدّة حتّى إنّني فقدتُ وعيي بكلّ ما هو حولي... كما أنّ شيئًا مّا بداخلي راح يستنفدني. وعاودني الألم، أحدَّ من قَبْلُ إلى أن تداعيتُ على مكتبي، راغبًا في أن أختبئ أو أموت أو أختفي بكلّ بساطة.

«أيّها الشّقيّ العاصي!».

مكث كلّ من في القسم مشدوهًا. واقترب الأخ أمادو. فسأل عمّا يحدث.

- لا نعرف شيئًا. إنّه يبكي طيلة الوقت. لا يفعل شيئًا إلاّ البكاء.

خرج الأخ أمادو بسرعةٍ من القاعة. وعاد مصحوبًا بالأخوين

فيليسيانو وليون. أخذاني معهما إلى حجرة التّمريض. وكنتُ عاجزًا عن صعود الدّرج. فحملاني معًا.

مدّداني على سرير. وأرخيا حزامي.

- اشرب هذا. وسيُشْعرك بالرّاحة.

تناولتُ دواءً مُرًّا إلى حدٍّ مّا. وسرعان ما تملّكني خواءٌ غريب. وفقدت يداي قوّتهما. لكنّني أحسستُ أنّ شمسًا صيفيّة تُدفئ جسدي. بقي فايول بمفرده معي. وظلّ يتأمّلني بعطفٍ وحنان.

- فايول!

- ماذا إذن يا شوش؟ أنا هنا. هيّا، سيجعلك الدّواء تشعر بالرّاحة.

وهجمَتْ عليّ المشاعر القديمة ذاتها.

- لم أفعل شيئًا يا فايول... لا شيء سيّء على الإطلاق.

لم أستطع التّحكّم في نفسي. فانفجرت دموعي مرّةً أخرى.

- لم أفعل أيّ شيء. ولستُ شقيًّا ولا عاصيًا... ولا أيّ شيء آخر ممّا قاله لي...

- طبعًا لا، يا شوش. والجميع يعرف ذلك. أنت طفل مليء بالخيال، مشاغب قليلًا فحسب. وهذا كلّ ما في الأمر.

- لا أريد العودة إلى البيت. لا أرغب في العودة لتناول الغداء. ولم أعد أطيق أن أراه مرّةً أخرى.

- ستتناول غداءك اليوم معي. سأتّصل ببيتك. وأقول لهم إنّه

عيد ميلاد أحد الإخوة هنا. إذن، هل يناسبك هذا؟

- نعم هذا جيّد. ولكن، لا أريد أن أتغدّى مع أيٍّ كان. أريد فقط أن أموت، أن أختفي.

استجمعتُ قواي. ومددتُ يدي لأصافحه.

- لماذا لا تعطيني إيّاه يا فايول؟

- ماذا تريد يا صغيري؟

- لماذا لا تعيده إليّ؟ أقصد حجَري الأزرق الصّغير؟ ما الجدوى من الحياة؟ ومن أجل ماذا تحديدا؟

- لا يا شوش... لا تتكلّم بهذه الطّريقة. لم يعد هناك وجودٌ لهذا الحجَر. كما أنّك أعطيتني إيّاه. ولا يستردّ المرء ما كان قد مَنَحه.

في تلك اللّحظة، تضاعف نشيجي.

- كنتُ أفضّل أن ينقضّ عليّ قرشٌ في النّهر بدل أن أسمع كلّ ما قاله لي.

لم يعرف فايول كيف يواسيني بعد ذلك. وامتلأت عيناه بالدّموع. وضع يده في جيبه. وسحَب المنديل ذا المربّعات. ولكنّه لم يفعل ذلك هذه المرّة من أجل أن يقدّمه لي.

صرتُ الآن بمفردي مع الأخ أبروزيو. سمعتُه وهو يطلب من فايول بالفرنسيّة أن يتركنا معًا. وغاب فايول في الدّرج، مُستجيبًا لطلبه.

جلس على السّرير المجاور. ووضع يديه الطّويلتين على ساقيه. لقد كان متجهّمًا جدًّا إلى درجة أنّه فقد تلك الانتفاضة العصبيّة المعتادة التي تجعله يرمش بعينيه.

- اجلس مثلي تمامًا.

كان ذلك صعبًا. فخمولي حينئذٍ أعظم من جسدي كلّه، حتّى إنّني تمكّنتُ من تحريك أعضائي بصعوبة. وجلستُ أخيرًا.

- إذن؟

كان صوته قاسيًا ومُلحًّا.

- هل سننتهي من هذا قريبًا؟

نظرتُ إليه مشدوهًا. وتفحّصتُ مليًّا وجهه النّحيل بعظمي وجنتيه النّاتئين.

- هل تعرف ما حدث؟

- نعم. وماذا بعد؟ أنا هنا كي أُنهي كلّ هذا. جئتُ لكي أُعدّك للعودة إلى البيت.

- لن أرجع أبدًا. لا أريد أن أراه مُجدّدًا. ولا أستطيع أن أنظر في عينيه مباشرةً.

- مباشرةً أو من منظر جانبيّ... قلتُ لك يجب أن تعود إلى بيتك.

- بعد كلّ ما سمعتُه؟

- بالضّبط.. بعد كلّ ما سمعته. وهو في الحقيقة ليس شيئًا يُذكر.

- ليس شيئًا يُذكر؟ إنّه لا شيء؟ ماذا تحسبني؟

عضضتُ على شفتيّ غيظًا. ولوّحَتْ دموعي بالهطول. وبلغ يأسي مرحلةً جعلتني أرفع صوتي ناسيًا كلّ شيء:

- إنّكم تعلّمونا الذّهاب إلى القدّاس واستقبال الرّبّ والمسيح وما لا أعرف أيضًا في قلوبنا. تسألوننا فعل هذا كلّ يوم. ولكن لماذا؟ ما الفائدة من ذلك؟ ما الفائدة من أن يضرب المرء صدره وما إلى ذلك... وفي أوّل مناسبة تُتاح له يظلم الآخرين بهذا الشّكل...

وفي غمرة غضبي، أخذتُ أضربُ بقدمي على الأرضيّة الخشبيّة كأنّني أريد أن أكسرها أو أن ينهار العالم في الحين.

وقف الأخ أمبروزيو ساخطًا. وصاح بي:

- هيّا، اكسر الأرضيّة! ألا تريد أن تضرب رأسك بالحائط؟ أليس هذا أفضل؟

كنتُ مغمورًا بالدّموع. وقد تبدّلت نبرةُ صوتي تمامًا:

- ما الفائدة من كلّ ذلك يا أخ أمبروزيو؟ أين اختفى الحبّ والإحسان؟ لهذا السّبب أذهب إلى القدّاس في معظم الأحيان غاضبًا، فقط لأنّني إذا لم أفعل ذلك سأُحرم من الشّاطئ والسّينما؟

وضع الأخ أمبروزيو يده على فمي.

- اخرس! اخرس! ستسمع ما لا أحد يملك الشّجاعة ليقوله لك.

حملني من كتفيّ حتّى يجبرني على الجلوس. وصار وجهه في مستوى وجهي.

- أيّها الجاحد الصّغير، من أنت لتحكم على الآخرين؟ هل فكّرتَ في قلق هذا الرّجل الذي يُواجه حالةً عسيرةً على العلاج؟ لا، طبعًا. فالأمر لا قيمة له بالنّسبة إليك. إنّه مجرّد مغامرة لا أكثر... مجرّد نزهة في سيّارة الإسعاف. وهذا كلّ شيء. ضع نفسك مكانه. وفكّر في المسألة.

هدأ قليلًا. وتابع حديثه:

- جاحد... هذا هو أنت! لقد انتزعك هذا الرّجل من البؤس والمصنع والفقر وحتّى السّلّ. وفّر لك بيتًا وملابس وكلّ شيء أفضل. وربّاك تربية لم يحظ بها إخوتك. يريد أن يجعل منك رجلًا شريفًا مثقّفًا، يستطيع أن يحسّن حياة إخوته وأبويه. وأنت؟ ماذا تفعل في المقابل؟ تستغلّ أوّلَ فرصةٍ لترجمه بالحجارة؟! هل فكّرتَ كم مرّةً غفر لك هذا الرّجل حماقاتك وسخافاتك؟ والآن، تأتي إلينا متباكيًا، تتّهمه بأشنع التّهم. اسمع يا صغير...

ارتعش صوته من الانفعال.

- حتّى لو اقترف مظلمةً بحقّك... أسمعتني؟ إنّني أتحدّث عن مظلمة... هل فكّرتَ في حجم النّدم الذي يعذّب ضميره إذا ما علم على الأرجح أنّه قد تسرّع بردّ الفعل؟ في لحظةِ غضبٍ أو قلقٍ وغَمٍّ كبيرين؟ حسنًا إذن يا زيكا، لن تفتح

فمك أمامي بعد الآن لتتّهم أباك. وإذا فعلتَ سأخيط هذا الفم الجاحد الصّغير. هل سمعتني؟

أحنيتُ رأسي إلى الأسفل، بينما تقدّم هو بخطى كبيرة بين أسرّة غرفة التّمريض.

استدرك فجأةً:

– لقد تكلّمتُ معك بهذه الطّريقة فقط لأنّك أجبرتني على ذلك. فلا تعتقد أنّ الأمر يُمتعني. لكنّ الأشياء القاسية، أقصد الحقائق القاسية يجب أن تُقال في النّهاية. ولذلك يجدر بك أن تكون رجلًا لتتقبّل هذا. أفهمتني؟ عليك أن تكبر وتصير شخصًا مسؤولًا.

لقد فعلت الصّدمة التي وجّهها إليّ فعلها في داخلي. لكنّ الصّوت الذي خرج منّي لم يكن صوتي حقًّا. بل إنّه بدا خارجًا من ثلاّجة عملاقة:

– حسنًا، أيّها الأخ أمبروزيو. ماذا تريدني أن أفعل؟

تأمّلني مشدوهًا. فهو لم يأمل هذا الموقف منّي بكلّ هذه السّرعة.

– هكذا أحسن.

طرحتُ سؤالي مرّةً أخرى:

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– أن تعود إلى بيتك وتكفّ عن كلّ هذا... أن تمنح أباك فرصةً وأن ينتهي كلّ شيء.

ثبّتُّ عينيّ اللّتين جفّتا في عينيه الثّاقبتين. وقلتُ له:

– حسنًا. سأفعل ذلك.

– هذا جيّد يا زيكا.

– ولكن، لن يكون ذلك بالسّهولة التي تعتقدها.

– نعم سيكون صعبًا في البداية. ثمّ سيمرّ كلّ شيء على ما يرام. ألا يلقّبك الأخ فيليسيانو بـ«قلب الذّهب»؟ إذن، سيعرف قلب الذّهب هذا كيف يغفر.

– للأخ فيليسيانو طيبة لا حدود لها. أمّا أنا، فلستُ طيّبًا. وكلّ ما في الأمر أنّ كلّ شيء في عينيه كذلك. حسنًا أيّها الأخ أمبروزيو، سأنسى... سأحاول أن أنسى، لأنّني لا أؤمن بالمغفرة.

– وما الفرق بين النّسيان والمغفرة؟

– عندما نغفر ننسى كلّ شيء. ولكن حين ننسى فحسب، فإنّه يحدث لنا أحيانًا أن نشرع في التّذكّر من جديد.

شعرتُ بأنّ إجابتي أربكته ولم يجد ما يردّ به عليّ. وإذ لاحظ أنّ العاصفة قد مرّت، أمسك يدي كي يحثّني على الوقوف.

– أتعرف يا زيزا، أنت لستَ سيّئًا إلى هذه الدّرجة التي تريد أن تبلغها.

– لا أرغب في أن أكون طيّبًا أو سيّئًا.

– إنّ المشكلة لديك هي أنّك تتحوّل إلى طفلٍ متكبّرٍ جدًّا.

- لا أريد أن أكون لوح الغسيل الذي يضربه الجميع.

نزلنا درج غرفة التّمريض جنبًا إلى جنب. وشعرتُ أنّ الأخ أمبروزيو يحاول أن يذوّب عذابَ الدّقائق المنصرمةِ الفظيعَ.

- اذهب وأحضر حقيبتك من القسم. سأرافقك بنفسي حتّى حديقة القصر.

- لماذا؟ لقد وعدتُك بأن أعود إلى البيت. وسأفعل ذلك.

- أنا متيقّن من ذلك. ولكنّني لا أريدك أن تغادر غاضبًا منّي.

- لستُ غاضبًا. بل يمكنني القول إنّك قد ساعدتني... ساعدتني كثيرًا.

- هذا أفضل. لكنّني أريد أن أتحدّث معك في أمرٍ مّا... أمر لا يمكن أن نتكلّم فيه إلاّ بكثيرٍ من الهدوء.

أخذتُ حقيبتي. وغادرنا سويًّا.

كانت ظلال أشجار التّين الكبيرة ممدّدةً على التّراب لأنّ الشّمس بدأت في المغيب. وفي وسط السّاحة، شرع الأخ أمبروزيو في الكلام:

- زيكا، هل صحيح ما قلته؟

- بخصوص أيّ شيء أيّها الأخ أمبروزيو؟

- أنّك تشارك في القدّاس غاضبًا.

- لم أرد قول ذلك حقًّا. لقد خرجت الكلمات من فمي في لحظة كنتُ فاقدًا فيها لنفسي.

- ولكن بما أنّها قد خرجت، فلا بدّ أنّ لها أصلًا من الحقيقة...

رفعتُ بصري نحوه بيأسٍ عظيم ممّا اضطرّه إلى التوقّف.

- هل أستطيع أن أقول لك الحقيقة يا أخ أمبروزيز؟

- تستطيع ذلك.

- هيّا لنجلس على مقعدٍ في الحديقة إذن. إنّني أشعر بتعبٍ شديد.

مكثتُ لوهلةٍ غير قادر على الانطلاق في الكلام. وانتظر هو أن أتّخذ قراري. وبما أنّني لم أكسر الصّمت القابع بيننا، بادر أمبروزيو بالسّؤال:

- كم سنّكَ الآن يا زيكا؟

- أوشك أن أُكمل ثلاثَ عشرة سنة.

- هذا صحيح. إنّك أصغر تلميذ في الصّفّ. كما أنّك أفضل تلميذ لديّ في مادّتي البرتغاليّة والأدب.

ابتسمتُ مشتّتًا بين السّأم واللاّمبالاة.

- إذن؟

- سأقول لك الأمر أيّها الأخ أمبروزيو. إنّني أبحث عن الطّريقة التي أبدأ بها.

ثمّ خرج كلّ شيء دفعةً واحدة:

- أتعرف ما بي؟ لديّ إحساسٌ بأنّنا نُلقّنُ الدّين بالمقلوب وبشكلٍ خاطئٍ تمامًا. أنا مشوّش بعض الشّيء. عندما

شاركتُ في أوّل قدّاس، جهّزتني عمّتي لذلك. وقالت لي إنّه سيكون أجمل يوم في حياتي، إنّ استقبال يسوع في القلب هو أعظم سعادة في العالم على الإطلاق. لكنّني لم أشعر بأيّ شيء من ذلك. ما أحسستُ به حقًّا هو الكبرياء، لأنّني كنتُ صغيرًا جدًّا فيما تشير رموز الزّيّ الموحّد الذي أرتديه إلى أنّني أدرس في الصّفّ الابتدائيّ الرّابع. كنتُ أعتقد أنّ جميع النّظرات مصوّبة نحوي. عندما كنتُ أشارك في ذلك العشاء المقدّس بكلّ ترنيماته وصلواته، ما كنتُ أشعر به في الحقيقة هو الجوع. لقد خاب ظنّي لأنّ القدّاس لم يُحدث معي ذلك الفرق الذي نشأتُ على انتظاره منه. لقد كان يومًا فظيعًا، أقرب إلى جلسة تصوير جماعيّة... فطور الصّباح ومن ثمّ الشّوكولاطة التي جاءت متأخّرة... كنتُ أشعر بأنّني أموت جوعًا. وأصابني الدّوار. ثمّ عاد التّصوير من جديد. لقد كانت حفلة السّابع من سبتمبر. هناك موكب كبير. ومشينا ميّتين من الإعياء طيلة الظّهيرة. شعرتُ في النّهاية أنّ هناك شيئًا مّا تفتقدهُ روحي.

ألقيتُ نظرةً عليه. ثمّ ثبّتُّ بصري في الأرض.

- ثمّ مرّ الوقت. وأصبح القدّاس أمرًا إجباريًّا إلى حدٍّ مّا، مجرّد اقتضاء عائليّ... بل هو شيء مهمّ كي لا يُحرم المرء من الشّاطئ والسّينما، تمامًا مثل علامات بطاقة الأعداد المدرسيّة. وكان عليّ أن أنجز هذا الواجب. كنتُ مُجبرًا بشكلٍ مّا على القيام به. ولم أكن ساخطًا حيال ذلك بل ضجِرًا.

- هذا فظيع.

- نعم، هذا فظيع. ولكن لا أحد يفهم. كم مرّةً لم أكن راغبًا في الاعتراف لكن وجب عليّ الذّهاب لفعل ذلك. وفي بعض الأحيان، أودّ أن أتلو صلاة التّوبة وأشارك في القدّاس، وأنا في حالةِ ذنبٍ قاتل[1].

اهتزّ الأخ أمبروزيو بجسده إلى أعلى:

- هل فعلتَ هذا من قبل يا زيكا؟

- لا، ليس بعد. ولكنّني أشعر أنّني سأصير قادرًا في المستقبل على فعل ذلك.

- لا، لا تفعل هذا أبدًا. من الأفضل ألاّ تشارك في القدّاس إذن.

- وهل ينبغي عليّ أن أكذب في البيت؟ لا أحبّ الكذب، لأنّ المرء لا يخدع إلاّ نفسه في النّهاية.

شعر الأخ أمبروزيو بالحرج إزاء مشكلتي.

- ربّما يكون من الأفضل لك في هذه الحال أن تكذب.

لم يعد لدينا ما نقوله.

- عليّ أن أذهب، أيّها الأخ أمبروزيو.

---

(1) تصنّف المسيحيّة الكاثوليكيّة الذّنوب إلى نوعين؛ ذنوب صغرى وأخرى بمثابة الكبائر وهي الذّنوب القاتلة والتي تقطع المرء من الرّحمة الإلهيّة وتفضي به إلى حالة موت روحيّة.

حملتُ حقيبتي. صافحته. وأخذتُ أمشي مُحبَطًا، حزينًا، شبهَ ميّتٍ، أتأمّل التّراب في الأسفل، بكتفين متراخيين، وأنا أحسُّ أثناء ابتعادي بنظرة الأخ أمبروزيو الجامدة تُلاحقني.



(4)
سمك القرش وحرب الفطائر

بعثت اللّيلة الدّافئة نسيمًا خفيفًا منعشًا عبر النّافذة المفتوحة. ورغم ذلك، فقد شعرتُ بالبرد إلى درجةٍ كبيرة، جعلتني ألفّ نفسي بالأغطية حتّى الذّقن. ولم أرد أن أطفئ ضوء المصباح، أملًا في ظهور موريس الذي تأخّر إلى حدٍّ مّا عن موعده.

- لقد كان يومًا فظيعًا. أليس كذلك يا آدم؟
- إنّه يومٌ للدّفن والنّسيان. ولكنّك أحسنت التّصرّف رغم كلّ شيء.
- أمّا الأسوأ، فهو العشاء. حسبتُ أنّنا في مقبرة. خيّم صمتٌ جليديٌّ بارد. ولم أستطع أن أبتلع أيّ شيء. فما أضعه في فمي يعلق في حلقي. الوقتُ أيضًا لم يشأ أن يمرّ. وقضّيتُ فترة العشاء كلّها وأنا أثبّتُ عينيّ في صحني، حتّى إنّني انتبهتُ للمرّة الأولى في حياتي أنّ الأرزّ له كلّ تلك الحبوب. وسيكون الأمر على هذا النّحو في قادم الأيّام. لن أرفع عينيّ نحوه مجدّدًا. كنتُ في كلّ لحظة أنتظر أن يفتح فمه وينعتني من جديد بالشّقيّ العاصي وما إلى ذلك من الصّفات الدّنيئة.
- سوف تنسى.

- لن أنسى ولن أسامح... أبدا! حتّى حين أصبح عجوزًا ضامرَ الجسم يستند إلى عكّاز ويمتدّ ذقنه حتّى الرّكبتين. لن أنسى أبدًا. أنت لا تعرفني جيّدًا يا آدم.

تحدّثنا بصوتٍ منخفض حتّى لا يأتي إلينا أحدٌ فيزعجنا.

- حسنًا، أنا أصدّقك. لن تنسى ولن تسامح. ولكنّك سبق وأن فعلتَ ذلك من قبل.

تفاجأتُ.

- إنّك مخترعٌ جيّد يا آدم. عمّ تتكلّم تحديدًا؟

- إنّني أتحدّث عن البرتغاليّ صاحبك، عندما تمسّكتَ كالخفّاش بسيّارته ووَجّهَ لك ركلةً في المؤخّرة.

أسلمتُ نفسي للحنين. واستغرقتني الذّكرى طويلًا، حتّى عدتُ إلى الواقع من جديد. وقلت له:

- الأمر مختلفٌ. لماذا تتحدّث عن هذه القصّة؟

- لا شيء... لا شيء.

أراد آدم أن يمتحن إصراري.

- نعم، الأمر مختلف. لقد ارتكبت حماقةً في تلك الحالة. أمّا أمس، فالأمر مختلف. لم أفعل أيّ شيء سيّء. ومع ذلك تمّ نعتي بما لا يُنعَتُ به الكلب.

- من الأحسن أن أقول لك إنّك محقّ. فهناك أشياء في الحياة لا تُنسى فعلًا.

- لحسن الحظّ أنّنا متّفقان إذن.

- أنت ظالم يا زيزا. فأنا متّفق معك دومًا. ولكنّ دوري يتمثّل في مساعدتك وتقديم النّصح لك.

- أعرف ذلك. شكرًا يا آدم.

خيّم الصّمتُ من جديد. دقّت ساعة الصّالون إعلانًا عن السّاعة العاشرة. وأدركتُ أنّ البيت قد غرق في الظّلام وعاد الجميع إلى غرفهم. ولم يعد هناك من يرغب في قول شيء مّا أو التّعليق على خبرٍ من الأخبار.

- آدم!

- امم.

- أنا مرهق جدًّا. ومع ذلك، لا أستطيع النّوم.

- هل تفكّر في الرّسالة؟

- نعم. أفكّر في غودويا. ولكنّ الأسوأ أنّني لا أعرف كيف أكتبُ رسالةً لطيفةً تُطمئنها.

- اطلب من الأخ فيليسيانو أن يساعدك.

- هذه فكرة حسنة. ولكن، ها إنّك ترى... كلّ شيء يحدث في الآن نفسه.

- إنّها الحياة. حاول أن تنسى. أغمض عينيْك. لِمَ لا تحاول أن تصلّي؟

- ولِمَ ذلك؟ اليوم تحديدًا، أنا في حال سيّئة مع الرّبّ.

- وما الفائدة؟ ستخرج خاسرًا في النّهاية.

هذا صحيح. كان آدم محقًّا. لا أحد بإمكانه أن يصارع الرّبّ، حتّى لو كان طرزان نفسه ومعه كلّ فيلة إفريقيا. فالرّبّ شيء كبير وعظيم جدًّا. ولطالما كان صاحب اليد العليا. وعندما خلق الحياة جعلها جميلة جدًّا، بكلّ ما فيها من أشجار وسماء زرقاء وببحرها الذي لا ينتهي متأرجحًا على موجه، كأنّه ممدّد على أرجوحة معلّقة.

كانت أذناي مغلّفتين بالنّوم ولم أسمع وقع خطوات موريس، وهو يدخل الغرفة. وضع يده على كتفي. فتقلّبتُ في سريري. اقترب وجه موريس المبتسم من وجهي. وعلى الفور أشرق شعاعٌ صغيرٌ من شمسي مُفعمًا بالأمل.

- لقد تأخّرتَ بشكلٍ فظيع يا موريس.

- لقد اضطررنا إلى إعادة تمثيل بعض المشاهد، فلم ننتهِ من العمل إلّا مُتأخّرًا جدًّا.

جلس كعادته على المقعد القديم. وراح يمسّح الذّراع الخائفة، مُحاولًا أن يذوّب أجواء الحزن تلك:

- لم تخبرني مُطلقًا ما اسم هذا المقعد.

- مُطلقًا، أهذا صحيح؟

- مُطلقًا.

- لا أحد يحبّه. كما أنّه أُلقي هنا في غرفتي. وظلّ مهجورًا من الجميع. له اسمع فظيعٌ حقًّا: أوروزيمبو.

- إنّه اسمٌ لطيفٌ بالنّسبة إلى سيّد عجوز قديم.

- لكنّه لا يملك لقبًا عائليًّا. وبما أنّك تحبّه فإنّني سأمنحه لقَبَكَ إذن.

انفجر ضحكًا. وراح يجرّب الاسم بلكنته الفرنسيّة:

- أوروزيمبو شوفالييه! ليس وقعه سيّئًا على أيّة حال.

وعندما لاحظ أنّه جعل شمسي تُشرق من جديد، قرّب أوروزيمبو من سريري وأمسك بيدي.

- إذن يا صغيري، كيف تسير الأمور معك؟

وقصصتُ عليه كلّ شيء، وأنا أتفادى أن تمتلئ عيناي بالدّموع.

- لقد كان يومًا عصيبًا يا بُنيّ. ولكن عليك أن تستعيد ثقتك بالكائنات، بالأشخاص البالغين خصوصًا.

- ولكن، هذا ليس كلّ شيء يا موريس. لقد تلقّيتُ أنباء سيّئة من بيتي الآخر. هل تعرف أختي غودويا؟ حسنًا، لقد تعرّضَتْ لحادثِ سيّارةٍ فظيع. وتشوّهت تمامًا. لقد اصطدمت بالزّجاج الأماميّ للسيّارة وعبرت منه إلى الدّاخل. أجرى الأطبّاء لها أربع عمليّات جراحيّة من أجل إصلاح وجهها. ويبدو أنّ جميع أسنانها قد كُسرت. كم هذا محزن! إنّها أختي التي تحبّني أكثر من الجميع.

لم يجب بأيّ كلمة. ولكنّه ضغط على يدي بشكلٍ أقوى.

- إنّها هي التي ساعدتني على المثابرة.

- المثابرة على ماذا تحديدًا؟
- هنا... سأثابر... سأمضي في طريقي إلى النّهاية.
- أتعرف أنّني ظللتُ أفكّر فيك طوَالَ النّهار. خشيتُ أن تتّخذ قرارًا سيئًا.
- لوهلة تساءلتُ ما إذا كنتُ قادرًا على ذلك. ولكن، لا. سوف أثابر هنا. إنّني أفكّر في الحياة التي يعيشها إخوتي. أفكّر في كلمات الأخ أمبروزيو. إنّهم هناك. يستيقظون عند الفجر ليذهبوا للعمل في المدينة. ويعودون ليلًا كي يناموا وينطلقوا في الدّورة ذاتها خلال اليوم التّالي. إنّهم يُبعثون الواحد تلو الآخر إلى المصنع. وسوف يكبرون دون أن يتمكّنوا حتّى من معالجة أسنانهم أو شراء ملابس أجمل أو أحذية أفضل. أعرف كلّ هذا. وهناك، يفكّرون فيّ دون أن يُبدوا أيّ اعتراض، سعداء لأنّني قد تحرّرتُ من كلّ ذلك ويمكنني أن أصبح ذات يوم «دكتورا».
- جيّد، هذا جيّد يا صغيري. هكذا يجدر بك أن تتكلّم. هكذا يفكّر الرّجل اليافع. إنّني فخور بك.
- لا أفعل شيئًا سوى تكرار الكلمات التي تُرمى على وجهي دومًا... بالإضافة إلى كلمات أخرى حاول الأخ أمبروزيو أن يقولها لي لكنّه لم يفعل، وفهمتها بمفردي.

قرّب موريس ساعته من عينيه.

- للأسف، عليّ أن أغادر يا بُنَيَّ.

- أعرف. ولكن قبل أن تفعل، أجبني عن سؤال.

- أجيبك كالعادة.

- هل قضّيتَ يومًا سيّئًا أنت أيضًا؟

- كان يومًا فظيعًا بائسًا. لا شيء سار فيه على ما يرام. ببساطة إنّه يوم يسبّب الانهيار العصبيّ.

- هل شعرت بالتّعب؟

- مازلتُ متعبًا إلى الآن.

ابتسمتُ له.

- لماذا تسأل يا صغيري؟

- لا شيء. لا شيء. لقد نجحتَ في إشعال عود ثقاب.

- هل أنت متأكّد؟

- نعم، فقد أضأتَ شمسي بالأمل.

- هذا أفضل. وبهذا الشّكل يمكنني أن أغادر سعيدًا.

مسّح على شعري بتلك الطّريقة التي يحبّها.

- إذن، أغدًا يوم آخر؟

- دون شكّ.

عدّل أغطيتي. وأضاف:

- والآن، أغمض عينيك والتفت نحو الجدار.

أطعتهُ على الفور.

- تصبح على خير يا صغيري. نم جيّدًا.

خرج في لطف وهدوء، كأنّ نسيمًا من الحنان عَبَر الغرفة. وكان كلّ شيء معتمًا وساكنًا.

- آدم!

- همم.

- هل سمعت؟

- كلّ شيء.

- هكذا يكون الأب حقًّا. لقد قضّى يومه في العمل الشّاق. ورغم كونه متعبًا، جاء خصّيصًا من أجلي، كي يرجو لي ليلة سعيدة. هذا هو الأب.

- أوافقك الرّأي. ولكن، هيّا لننَم. لقد أهلكني النّعاس.

أحسستُ أنّ آدم أيضًا يشعر بالرّضا الشّديد عن قراراتي الجديدة.

عندما فتحتُ نافذة غرفتي، رأيت أنّه يوم «آخر». لكنّه يشبه اليوم الذي سَبقه على نحو غامض. يكمن الاختلاف الوحيد في أنّ قلبي كان منقبضًا أكثر وثابتًا في قراره. نعم، إنّه ثابت في قراره. فهذا اليوم سيُشبه أيّامًا كثيرة تليه؛ أرتدي ثيابي. أجلس إلى الطّاولة. أُجيب بألفاظٍ وجيزة لا تتجاوز مقطعًا صوتيًّا واحدًا، وأتفادى إلى الأبد أن أرفع رأسي وأنظر في عينيه.

وهكذا تتالت الأيّام وتراكمت حتّى شكّلَتْ شهرًا من الزّمن.

وقدمت الأشهر التّالية لتجدني على نفس الحال، حتّى إنّ آدم نفسه أخذ يحتجّ عليّ:

- كان بإمكانك أن تمرّر له الخبز أو الزّبدة عندما يطلب منك ذلك!

- لم يعد يسألني مثل هذه الأشياء. فهو يتوجّه مُباشرةً إلى أختي أو أمّي.

وفي الإعداديّة، لم يكن هناك أيُّ شخص أكثر وحدةً وصمتًا منّي. وحتّى تارسيسيو الذي يرافقني في طريق الذّهاب والعودة ويأتي مرارًا ليجالسني عند مقعد الحديقة لم يتوصّل إلى كسر الصّمت المطبق حولي. أمّا فابيو، فقد احترم تصرّفي منتظرًا بهدوء أن ينتهي ذات يوم.

لم يعد أحد في البيت يهتمّ بعلاماتي المدرسيّة أو يتثبّتُ ما إذا كنتُ قد شاركت في القدّاس أم تخلّفت عنه.

- ألا تريد الذّهاب إلى البحر مع أبيك؟

- رأسي يؤلمني. وعليّ أن أنجز واجباتي.

توقّفتُ عن الذّهاب إلى الشّاطئ. وكُلّما أردتُ ذلك حقًّا هربتُ من الدّرس وركضتُ لأسبح في ريو بوتنغي.

كان من عادتنا مساء الأحد أن نخرج في نزهة بالسّيّارة وسط المدينة. إنّه روتين أبديّ لا شيء يحول دونه. فإمّا أن نصعد إلى منطقة تيرول وإمّا أن نتجوّل على الشّاطئ وصولًا إلى آريا بريتا. وقد نتوقّف أحيانًا لزيارة صديق للعائلة.

- لا أريد الخروج. سأمكث هنا.

ولم يكن أحدٌ يُلحّ عليّ. أقرأ أحيانًا. وأحيانًا أخرى أتسلّق حائط الجيران. فأجلسُ بين أغصان السابوديلا أو شجرة المانجو. تراقبني الدّجاجات في تعجّب لأنّني لم أحضر معي ماءً ولا حبًّا.

ساءت حال ساق ابن عمّي. فغادر إلى ريسيفي ليعالج هناك. واضطرّ أبي إلى مرافقته. وعند عودته، أحضر لي هديّة. مدّ يده ممسكًا حزامًا جلديًا أسْوَدَ، دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة. فتردّدتُ في أخذه.

- أمسك!

- شكرًا.

والتفتُّ مُديرًا له ظهري، بينما كان الحزام يُحرق أصابعي. رميتهُ في درج خزانتي ولم ألبسه أبدًا.

لامني آدم مجدّدًا على ما أفعله.

- ورغم ذلك، فأنت تبالغ يا زيزا.

- ألم تأتِ لتعلّمني كيف أكتسبُ شخصيّةً حقيقيّة؟ إذن، هكذا تسير الأمور معي أنا من هنا فصاعدًا.

كان لا بدّ أن يحدث شيء مّا كي يفكّ التّوتّر عن هذه الوضعيّة التي كنتُ أعتبرها بدوري مزعجة. وقد حدث هذا الشّيء أخيرًا في لحظةٍ لم أكن أتوقّعه فيها بتاتًا.

كان الأخ أمادو يبتسم دون حماس، وهو يراني أقترب منه. كان يعرف مسبقًا الطّلب الذي أتوجّه به إليه.

- هل أستطيع اليوم أيّها الأخ أمادو؟

- اليوم لا.

- ولماذا؟

- لقد قرّرنا أن يكون ذلك مرّةً واحدة في الأسبوع.

ثمّ قلب الصّفحة التي يصحّحها، متابعًا عمله. وبما أنّني لم أتحرّك من مكاني فقد أومأ برأسه رفضًا.

- لقد حسبتُك صديقي للأسف.

- بسبب صداقتي لك تحديدًا أرفض أن أمنحك الإذن.

- ما الذي تغيّر؟ ألستُ مطّلعًا كالعادة على دروسي؟ ألستُ إلى الآن الأوّل في الصّفّ؟

- ورغم ذلك، فأنت تسيء استغلال طيبتي. ألا تعي حجم المسؤوليّة التي أتحمّلها؟

تمكّن منّي الشّيطان. فأجبتُه:

- لا شيء قد تغيّر. إنّها مرّةٌ أخرى مثل كلّ سابقاتها.

تفحّصني من تحت نظّارتيه، بعينيه الفاتحتين المائلتين إلى العسليّ، وقد بدا حائرًا. إنّه مقرّ بقوّة حججي.

- اسمعني أيّها الأخ أمادو. إنّني أتحسّن في السّباحة يومًا بعد آخر. ليس هناك أيُّ خطرٍ. سأكتفي بالتمرّن والعودة سريعًا.

أخفض بصَرَهُ نحو عمله. وصَمَتَ دون أن يجيبني. فألححتُ أكثر:

- أعدك بأن أذهب اليوم فقط. وبعد ذلك، سأكتفي بمرّتين في الأسبوع.

كنتُ واعيًا بكذبي وبأنّني لن أعود في غضون ساعة واحدة. فقد كنتُ عازمًا على انتظار المدّ. ففي الجزر تخرج من المجاري فضلات غريبة، كنّا نسمّيها «الغرقى». وبهذا الشّكل، لم يكن لديّ الوقت للعودة إلى الإعداديّة. فعزمتُ على الرّجوع إلى البيت مباشرة.

استسلم في النّهاية. وقال لي:

- فاسكونسيلوس، هل تعدني بأنّك ستذهب اليوم فحسب؟

- أقسم لك.

- لا حاجة إلى القَسَم.

- هل تحدّثتَ مع الأخ فيليسيانو؟

- نعم. ولكن كلّ شيء يعتمد عليك.

سوف يتغاضى عن غيابي أثناء النّداء على التّلاميذ. شكرتُه. وخرجتُ مُسرعًا.

كان الأطفال جالسين على كرات من القطن عند حافّة الرّصيف في انتظار أن يرتفع المدّ أكثر. وحينئذٍ، سنسبح وصولًا إلى النّادي الرّياضيّ. أولئك الذين يتحلّون بالشّجاعة اللاّزمة، سيقفزون من فوق الجدار. أمّا أنا، فقد كنتُ أحلم بفعل ذلك. ولكن للأسف، مازال الوقتُ مبكّرًا ولم يحن بعدُ زمنُ هذه البطولات. فقد كان جدارًا عاليًا إلى حدٍّ مّا.

- هل سنمارس الجمباز مع الدّكتورريناتو فيلمان؟

- هيّا لنذهب!

كنّا نعشق الدّكتور ريناتو. فهو رياضيٌّ حقيقيّ. يعلّمنا العديد من الحركات. ويصحّحها لنا حين نخطئ في القيام بها بشكل سليم. كما أنّ هذا الرّجل يملك قوّةَ شيطانٍ. يمكنه أن يحمل بمفرده مركبًا شراعيًّا ويمشي به وصولًا إلى النّهر. والأمر بالنّسبة إليه أشبه باللّعب.

وكنّا نذهب لنساعده. فننقل معه المجذافين.

- أريد أن أصبح مثلك عندما أكبر.

كان يضحك. ويقول لي بلكنته الجنوبيّة:

- عليك إذن أن تتناول الكثير من الحساء.

وتنطلق المحادثات بين الأولاد:

- إنّه أقوى من جوني فايسمولّر.

- هل تعتقد هذا حقًّا؟! طرزان أشدّ قوّةً وأكبر حجمًا.

- من السّهل أن يكون المرء قويًّا في الأفلام.

- هيّا إذن، سنرى.

حينئذٍ، يظهر إيبينيزر. إنّه أحد أبطالنا. وعندما يحمل قاربًا شراعيًّا يبدو شبيهًا بملك. كلّ حركاته مثاليّة، حتّى إنّ القارب يبدو مطيعًا له مُستجيبًا مثل عنقه في إحدى حركاته الغريبة. وعند السّباحة، يتحوّل الرّجل إلى قائد. فهو يعرف جميع الأنماط.

يقترب إيبينيزر. ويتحسّس المدّ.

- هل ستسبح إيبينيزر؟

- أفكّر في ذلك.

- المدّ مناسب. أليس كذلك؟

- تقريبًا.

نثبّت أعيننا الصّغيرة في وجهه، بينما يتأمّل هو النّهر من بعيد وقد امتلأت ضفّتاه بالشّجيرات الخضراء.

فجأةً، يلتفتُ نحونا. ويقول:

- لا أحبّ السّباحة وحيدًا. فهل هناك فتًى شجاعٌ يرافقني؟

- إلى أين تذهبُ؟

- سأسبح حتّى رصيف الميناء مادام المدّ ضعيفًا. ثمّ أعود في هدوء إلى رصيف تافاريس دي ليرا.

لم يتحرّك أيّ شخص.

- هذا بعيد جدًّا بالنّسبة إلينا.

- ألا تريدون تطوير مهاراتكم؟

كدتُ أجنُّ رغبة في قبول التّحدّي، حتّى لو انتهى بي الأمر لاحقًا إلى الإعياء.

- هل نذهب معه يا ليلا؟

- إنّه يسبح بسرعةٍ كبيرة. ولن نتمكّن من مجاراته.

ضحك. وقال:

- حسنًا، أعدكم أن أسبح ببطء. فمن يذهب معي؟

وقفتُ أنا وليلا.

قفز إيبينيز قفزة عالية. وغاص في مياه النّهر. ولم يعد الآن أمامنا من سبيل للتّراجع. فلو فعلنا لصرنا أضحوكة الجمْع. ولذلك، حاكيناهُ على الفور. والتحقنا به. ومثلما وعدنا، كان يسبح ببطء وانتظرَنا حتّى أدركناه. لم أبلغ هذه المسافة من قبل في عمق النّهر. لقد صار الماء في هذه الأعماق نظيفًا وصافيًا. واصلنا السّباحة. وفجأةً، تجاوزَنا إيبينيز قليلًا كي يحفّزنا على التّقدّم. أصبحت بنايتا النّادي الرّياضيّ ومركز السّباحة صغيرتين، صغيرتين جدًّا. وكانت بعض القوارب راسيةً هناك. وأبعد منها مركبُ الشّرطة البحريّة.

لقد كان إيبينيز مُطلق الإنذار المفاجئ:

- البطيخ! البطيخ!

أوشك قلبي أن ينفجر داخل صدري. لقد قال بطّيخ. إذن، هناك سمك قرش يقترب منّا. واقتربت الرّائحة أكثر. سبح إيبينيز باتّجاه مركب. استدار لِيلا بحثًا عن القارب الأقرب إليه كي يصعد. أمّا أنا، فقد بقيتُ وحدي أسبح مثل مجنون. سمعتُ إيبينيز، وهو يصرخ قائلًا شيئًا مّا. ولم أتمكّن من تبيّن كلماته.

أخذتُ أصلّي بصوتٍ منخفض: «نوتردام دو لورد احرسيني. أعدك ألاّ أعصي الأوامر بعد الآن». واشتدّت الرّائحة. ودنت منّي أكثر. بدا الأمر كأنّني جالسٌ أمام شريحة بطّيخ هائلة. أحسستُ

بأعضائي ترتجف بينما كانت تلاحقني الرّائحة. حاولتُ أن أهدّئ نفسي. فنجحتُ في سماع صوت إيبينيز يصيح بي:

- اسبح بسرعة! اسبح باتّجاه مركب الشّرطة. هيّا اسبح!

ولم يبدُ لي المركب بمثل هذه العظمة من قبل. ظللتُ أسبح باتّجاهه، وقلبي يخفق بشدّة تكادُ تكسر صدري. اقتربتُ أكثر. وتأمّلتُ في يأسٍ ارتفاعَ حوافّه. فحتّى إذا أدركتهُ، لن أتمكّن أبدًا من الإمساك بالحافّة والقفز داخله. ولم أعرف ما إذا كانت صلاتي للقدّيسة العذراء هي ما يعذّبني أم الخوف هو الذي يفعل ذلك. ولم أعرف حقًّا ما يجدر بي فعله. تمسّكت يداي بالطّرف الأماميّ للمركب. فصعدتُ. وألقيتُ بنفسي داخله. مكثتُ منبطحًا، وأنا أتأمّل المياه مفعمًا برغبة في البكاء أو التّقيّؤ. كانت الرّائحة تزداد قوّةً من حولي. وأمام عينيّ المنهكتين، لمحتُ ذيل القرش القاطع يشقّ الماء مشكّلًا موجاتٍ صغيرة. لقد منَعْتُه عنّي لحظةٌ واحدة فحسب. وها إنّ هذا الذّيل الرّماديّ الفضّيّ يبتعد ويختفي أخيرًا.

استلقيتُ في جوف المركب. وأخذتُ أرتجف بقوّة. لم يكن الخوف ما يفعل بي ذلك وإنّما الرّعب الفظيع. حاولتُ أن أتنفّس عميقًا. لكنّني تجمّدتُ تمامًا. وظلّت ركبتاي تصطفقان.

أصبح السّؤال المحرج الآن متمثّلًا في كيفيّة العودة. كيف يجد المرء الشّجاعة لفعل ذلك؟

وفي تلك اللّحظة، تجلّى لي آدم. وقال:

- بسس! زيزا، لقد أوشك أن...

كنتُ غاضبًا منه.

- إنّك لم تتلفّظ بكلمة واحدة.

- لقد متُّ خوفًا. وقلبي ظلّ يخفق بشدّة حتّى كدتُ أتقيّأ.

- والآن يا آدم، ماذا أفعل؟

- يجب أن تعود من حيث أتيت.

- وماذا لو اقتحم المكان من جديد حالما ألقي بنفسي في الماء؟

- فلنهدأ قليلًا وننتظر. انظر أين ذهب الآخران؟

كان ليلا في مثل وضعي، إلاّ أنّه تمكّن من السّباحة إلى مركب أقرب إلى النّادي. أمّا إيبينيز، فقد كان واقفًا يتفحّص المياه ويتشمّم الهواء. وعندما بدا له اختفاء رائحة البطيخ، صاح بي:

- يمكننا العودة الآن. فقد ذهب الخطر أخيرًا.

انتظر عشر دقائق بدت لي مائتين وخمسين ساعة. ثمّ قفز في الماء وسبح نحوي.

- هيّا اقفز! سأسبح معك ببطء.

أومأت برأسي رفضًا لطلبه:

- لا.

- هيّا، تشجّع. سنذهب معًا إلى مركب الولد الآخر. تعال. سنسبح ثلاثتنا معًا.

- لا أريد. أفضّل الموت هنا. لو حاولتُ السّباحة لما توصّلتُ إلى ذلك.

- إذا كنتَ لا تريد القدوم معي فسأمضي. إذ لا أستطيع أن أقضّي حياتي هنا في انتظارك.

وفي غضون ثوان قليلة، لّما تبيّن له أنّني لا أستطيع حسم أمري، انطلق في السّباحة باتّجاه النّادي ومرّ على ليلا في طريقه. رأيتهما يختفيان معًا ويبتعدان عنّي حتّى وصلا إلى النّادي. ثمّ أشارا إلى مركب الشّرطة.

جلست في المقدّمة، منتظرًا حدوث معجزة. تقدّم الوقتُ ومرّت الظّهيرة. وكان عليّ في مثل تلك السّاعة أن أكون في الإعداديّة أو في البيت. وسرعان ما هبّت ريح المساء وبدأت الشّمسُ في المغيب. شعرتُ بالبرد وزاد قميص السّباحة المبتلّ من فزعي.

- والآن يا آدم؟

كدتُ أبكي، وأنا ألقي عليه سؤالي.

- لن أخرج من هنا. فقد يكون الوحش قريبًا منّا.

- وأنا كذلك.

ازدادت العتمة من حولي. وازداد معها خوفي وقلقي.

- يا صغيرتي نوتردام دو لوردا ساعديني... أرجوك!

اشتعلت أضواء الميناء. وقريبًا تتبعها أضواء المدينة.

- وماذا لو أغلق النّادي؟ سنموت من البرد اللّيلة.

- كلّ هذا جميلٌ جدًّا. ولكن، هل فكّرت في ما ينتظرك في البيت يا زيزا؟

- لا أريد أن أفكّر في ذلك. وما أريده حقًّا هو الخروج من هنا.

صمتنا معًا. واكتفينا بالإصغاء إلى صوتٍ غريب.

- هل تسمع ذلك يا آدم؟

- يبدو شبيهًا بصوت مجذاف بعيد.

أصخت السّمع أكثر.

- إنّه قادم من هنا.

لاح مركب شراعيّ. وقد كان القادم الدّكتور ريناتو فيلمان:

- ماذا يحدث يا صغيري؟

أمسك بمقدّمة المركب. وتوقّف.

- أصابني انفعالٌ لا يوصف، حتّى إنّني عجزتُ عن الإجابة.

- هل أوشك القرش أن يقتنصك؟ لقد انتهى كلّ شيء الآن. وها قد جئتُ بحثًا عنك. يمكنك أن تركب معي.

- لا أعرف... إنّ ساقاي ترتجفان بشدّة.

- ستكون بخير. اهدأ يا بنيّ.

كان صوته مفعمًا بطيبةٍ لا حدود لها.

- هيّا بنا.

جرفتُ ساقيّ ببطء على امتداد المركب. ثمّ أنزلتها عند مقدّمة القارب الشّراعيّ.

- يمكنك وضع ساقيك في الماء. لم يعد هناك أيّ خطر.

كانت المياه دافئة. وراح خوفي يذوب شيئًا فشيئًا. وسريعًا

أوصلَنا المجذافان اللّذان تُحرّكهما ذراعاه القويّتان إلى مركز بوتنغي البحريّ.

ما إن انتهى العشاء حتّى ارتدينا المنامات وحان وقت استراحة تدوم نصف ساعة. ثمّ اتّجهنا نحو قاعة الدّراسة الكبرى. اقتنصتُ الفرصة لأذهب إلى قاعة فايول. فقد كنتُ متيقّنًا من أنّه ينتظرني نافذَ الصّبر.

كان هناك، لا يقرأ كتابًا ولا يصحّح دفترًا ويداه لا تلعبان بأيّ مسطرة. إنّه ينتظرني فحسب. وعندما دخلتُ، ظهرت على ملامحه تلك الابتسامة التي تخفي عينيه في وجهه الكبير الأحمر.

- أيّها الأخ العزيز فيليسيان[1] فايول!

توعّدني بسبّابته.

- شوش، شوش. سوف تتسبّب لي ذات يوم بنوبةٍ قلبيّة.

انفجرتُ ضاحكًا، وأنا أفكّر في سمك القرش.

- عليّ أوّلًا أن أبقى حيًّا كي أفعل ذلك.

أشار إلى الكرسيّ بجانبه.

- والآن اجلس، وقصّ عليّ كلّ شيء. أريد أن أعرف كلّ شيء.

ولم أعفِه من التّفاصيل الدّراميّة للحكاية. عندما أنهيتُ كلامي، كان العرق البارد ينزّ من جبينه.

---

(1) وردت بالفرنسيّة في النّصّ الأصليّ.

- هل تعي ماذا كان سيحدث لو أنّ القرش أمسك بك؟

- لا أريد التّفكير في الأمر. مازلتُ أرى كلّما أغمضتُ عينيّ ذلك الذّيل يشقّ الماء.

حاول أن يُقطّب حاجبيه وأن تبدو عليه ملامحُ الجدّ والصّرامة. فلا شكّ أنّ الأخ المدير قد طلب منه أن يلقي عليّ خطبة الخُطب.

- كنتَ قد وعدتني ألاّ تبتعد عن المنازل وألاّ تجازف بحياتك. أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- ووعدك؟ ماذا فعلت به؟

- اسمعني يا فايول. إنّها المرّة الأولى. لقد وصفنا إيبينيز بالجبناء.

- وماذا لو مُتَّ طعامًا للقرش؟ هل فكّرت في ذلك؟

- لستُ ميّتًا. أليس كذلك؟ ولكن لو متُّ حقًّا، لفعل الجميع مثلما فعلوا عند موت شيكو دانتاس غرقًا في بحيرة بونفيم. كان الجميع يبكي حزنًا عليه. ثمّ تمّت تلاوة صلاة الهالكين على روحه. ولقد رغبتُ في النّهاية في الموت غرقًا مثله حتّى يفكّروا فيّ بتلك الطّريقة.

- لا تتفوّه بالحماقات.

وانتهى ملمح الجدّ والصّرامة. فقد أخذ يبتسم لمخيّلتي.

- هل تسبّب لك الأمر في مضايقات يا فايول؟

- أفضّل عدم الخوض في المسألة. لكنّ الأمور لم تكن سهلة قطّ. وقع اللّوم كلّه عليّ وعلى المسكين الأخ أمادو. ومع ذلك، لا أهمّيّة للأمر الآن. فقد ولّى وانقضى.

- كيف عرفوا كلّ شيء؟

- وكيف يمكن أن يحدث العكس؟ لم تعد في اللّيل إلى بيتك. وانطلقت المكالمات الهاتفيّة في كلّ الاتّجاهات. وفي مدينة صغيرة، تتحرّك الألسنُ دومًا بسرعة. كلّ شيء ينتقل على الفور: «هل علمتَ أنّ قرشًا كاد يلتهم فاسكونسيلوس؟».

- لم يكن قرشًا بل قُريشًا صغيرًا.

- وما الفرق يا شوش؟

- سمك القرش أكبر وأقدر على الأكل بسرعة.

انفجر فايول ضاحكًا.

- وكيف كانت الأمور في البيت؟

- لا يمكنكَ حتّى أن تتخيّل الأمر. لقد كان الوضع شنيعًا. لا أعرف كيف دخلتُ إلى المنزل أصلًا وكيف تحلّيت بالشّجاعة لفعل ذلك. ولا أعتقد أنّني كنت لأنجح لولا وجود آدم... لقد سمعتُ ما يكفي لأفقد قدرتي على الحساب والإحصاء. سُمح لي بأن أبيت في المنزل ليلة أمس فقط. ثمّ أُعدّت حقائبي كي آتي في أسرع وقت ممكن للعيش في الإقامة المدرسيّة. الوضع أفضل هكذا. أليس كذلك يا فايول؟ لقد صارت الحياة هناك مستحيلة. فعلى الأقلّ، سأظلّ مُقيمًا في

المدرسة حتّى آخر السّنة. وعندما أعود إلى المنزل، سيكون كلّ شيء منسيًّا...

- أتحبّ أن تكون مقيمًا داخليًّا في المدرسة؟

- سأخبرك بسرّ يا فايول. يُعتقد في البيت أنّ هذا أسوأ عقاب يمكن أن يحلّ بي، فيما أعتبره جنّتي الأرضيّة، خصوصًا بعد كلّ ما آلت إليه الأمور...

- هل تعرف ما اشترطوه عليّ يا شوش؟

- لا.

- الكثير من الأشياء يا بُنَيَّ. طلبوا منّي ألاّ أسمح لك، استنادًا إلى أيّ ذريعة أو سبب، بالإفلات والذّهاب للسّباحة. وهل تعرف ماذا فعلت؟

- يمكنني أن أخمّن.

- وعدتهم ألاّ أسمح لك. هل تفهم ما يعنيه هذا؟

نظرتُ في عينيه مباشرة، متأثّرًا إلى حدٍّ مّا.

- لن أهرب إلى أيّ مكان. لا أريد أن أكون سببًا في مشاكل تحدث لك.

ضحك. وقال:

- كنتُ أعرفُ أنّك ستعدني بهذا. وأعرف أيضًا أنّك ستفي بوعدك.

تأمّل أحدُنا الآخر لوهلة.

- ولكن مازال هناك شيء آخر يا شوش. لا يمكنك الخروج يوم الأحد، حتّى من أجل الذّهاب إلى البيت.

- هذا جيّد. ولكن ألا يُسمح لي بقليل من السّينما يوم الأحد؟

- يمكننا أن ندرس ذلك. وعلى أيّة حال، ليس سيّئًا أن تُقلّل من الذّهاب إلى السّينما بعض الشّيء.

كان يمزح. أعرف ذلك.

- عائلتك التي تسكنُ الأفلام كثيرة العدد.

- بالنّسبة إلى هذا الأمر، يجدر بك أن تطمئنّ. كان عليّ من قبل أن أوزّع نفسي بين أشخاص كثيرين. والآن، لم يعد هناك سوى موريس، طرزان وجوان كراوفورد.

هدأ كلّ شيء. وعاد فايول إلى طبيعته. انتهت المسألة كما ينبغي. وحتّى يعود إلى سكونه الدّاخليّ، من الأفضل نسيان هذه اللّحظة المزعجة.

رنّ الجرس.

- حانت ساعة الدّرس. وعليك أن تذهب.

نهضتُ. فقال فايول:

- استدر. أريد أن أراك.

استجبتُ لطلبه. فابتسم قائلًا:

- كم كبر هذا الحيوان!

وهذه المرّة، كنتُ أنا الضّاحك بيننا. خرجتُ هادئًا خفيفًا،

كأنّني لستُ ذلك الطّفل الذي أوشك سمكُ القرش أن يبتلعه مساء أمس.

حتّى آدم انتهى به الأمر إلى التّعجّب من طريقة تصرّفي. أمّا أنا فلم أكن أرى أيّ فرق. فمنذُ كنتُ صغيرًا جدًّا، قيل لي إنّني ابن الشّيطان وإنّه في عيد الميلاد لن يولد يسوع الصّغير من أجلي وإنّما الشّيطان ذاته. وها هو الآن لا يفارقني مُطْلَقًا. لقد أصبح صَديقي المقرّب. وصرتُ في المقابل «مُريدَهُ».

عندما أكون في حاجة إلى الأفكار، يوفّرها لي الشّيطان على الفور. كنت عاجزًا عن المكوث دون حركةٍ بيديْن ساكنتيْن، حتّى إنّ كلّ الإخوة والأساتذة صاروا متأهّبين في كلّ لحظة لإحدى حماقاتي.

يملك الجميع مسطرةً من المطّاط الأسود. أمّا مسطرتي، فقد كانت تُلهب يديّ. ومن شدّة تقليبها، اكتشفتُ أنّني إذا فركتُها إزاء الخشب حتّى تصير ساخنة فإنّها تصدر حينئذٍ رائحةً فظيعةً. وها إنّ الأخ إستيفاو يحلّ بديلًا عن أستاذ الدّين الذي أصابه مرضٌ مّا. وفكّرتُ أن... حسنًا، يملك الأخ إستيفاو أنفًا كبيرًا أحمر مُصابًا على الدّوام بنزلة البرد. وهذا يعني أنّه الشّخص المثاليّ لهذه المزحة. وما إن فكّرتُ في المسألة حتّى مررتُ إلى الفعل. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي يشرع الجميع في سحب مناديلهم، وتفكّك الصّفّ وأخذ التّلاميذ في السّعال ثمّ هربوا، تاركين الأخ إستيفاو وحيدًا بعينيه الدّامعتين خلف نظّارتيه.

وفي الرّواق، أقبل نحوي مباشرةً. لم يتلفّظ بكلمة. ولكنّه اكتفى بإمساكي من كمّ الزّيّ. فثبّتني في وضع العقوبة قرب السّبّورة السّوداء. تركني هناك. وخرج من قاعة الدّرس بعد أن أغلق كلّ النّوافذ، حتّى أحسّ جيّدًا بالثّمن الذي ينبغي أن يُسدّد مقابل التّشويش على درس الدّين.

لقد أصبحتُ شخصًا لا يُطاق إلى درجة أنّني صرتُ أجلسُ الآن بمفردي إزاء مكتب صغير في الصّفّ الأخير. أفتح مقلمة الرّسم، مفتّشًا في ما تحتويه. فتحطّ عيناي على شفرة حلاقة قديمة. لقد أشفقتُ على تلك المسكينة. فأيّ حياة بائسة هذه التي يحيا فيها المرءُ مثلَ شفرةِ حلاقةٍ تالفة؟! لم تكن تصلح لشيء باستثناء بَرْي الأقلام أو قطع الأصابع. أخذتُ الصّغيرة المسكينة ورفعتُ غطاء مكتبي. ثمّ وضعتُ الشّفرة في الشّقّ. وأغلقتُ الغطاء من جديد. كان الأمر مثاليّا. نقرتها بطرف الأصابع. فأطلقت صوتًا جميلًا جدًّا، مرّة فمرّتين فثلاثًا. وبدأ الآخرون في الالتفات إلى الخلف متقفّين مصدر الصّوت. وبدت عليّ ملامح أكثر النّاس براءة في العالم، وأنا أغرزُ بصري في السّبورة السّوداء مباشرة. هدأ كلّ من في الصّفّ. وسمع في المكان: زمم... زمم... زمم. كانت قد انطلقت سلفًا بعض الضّحكات المجنونة. فتوقّفتُ لوهلة. وانتظرت عودة القسم إلى إيقاعه القديم. ثمّ زمم زمم زمم. وحينئذ، طفح الكيل. واقترب الأخ منّي أكثر فأكثر حتّى توقّف عندي. حدّق فيّ بصرامة، فيما تحوّلتُ فجأةً إلى الجميلة المحتشمة، مخفيا الشّفرة بيدي.

- هل تحبّ عزف القيثار يا سينيور فاسكونسيلوس؟

- لا. لا أحبّ القيثار ولا البيانو أيّها الأخ.

مدّ يده نحوي.

- هيّا بنا!

ولم الإنكار؟ أخذتُ الشّفرة. وقدّمتُها له.

- اسمعني أيّها الأخ جواو. ليست سوى شفرة حلاقة قديمة.

- حسنًا. ولكنّك ستنهي الدّرس واقفًا إلى جانب السّبورة السّوداء، ساقاك ملتصقتان وذراعاك متشابكتان.

لِمَ يعد ممكنًا إحصاءُ الوقت الذي أقضّيه مُعاقَبًا إلى جانب السّبّورة السّوداء. لقد صار هذا الرّكن على الأرجح إحدى خصائصي. كما أنّ الشّيطان راح يقنعني أكثر من قبل بأن أكون صديقه الحميم. ولهذا السّبب دون شكّ، نبّهني الأخ لويز، المسؤول عن مسكن الكبار ودراستهم، إلى أنّه يريد التّحدّث معي بعد تناول اللّمجة. ولم تكن سوى كأس من شراب المتة وثلاث فطائر يابسة مثل الخشب.

- عند الاستراحة أو خلال الدّرس أيّها الأخ لويز؟

- عند الدّخول إلى الدّرس.

وقفتُ أمامه في الوقت المحدّد.

- ها قد جئتُ أيّها الأخ. هل تريد التّحدّث معي؟

نظر إليّ مُبتسمًا. فهو لا يغضبُ أبدًا. ويجد كلّ ما في الحياة ممتعًا.

لم يكن يفتقر إلى الطّاقة. ولكن، حين يعترضه شيء مّا مضحك فهو لا يبخل بالضّحك.

- هل تعرف لِمَ طلبتُ حضورك يا زيكا؟

- ليس لديّ أدنى فكرة على الإطلاق.

- إنّني أراهن على أنّك تعرف جيّدًا السّبب.

وفي تلك اللّحظة، استعدتُ ملامح البراءة المعتادة.

- سأتّجه رأسًا نحو الهدف. من اخترع حرب الفطائر؟

- ولِمَ يجدر به أن يكون أنا أيّها الأخ؟ إنّني المتّهم بكلّ حماقة تحدث في العالم.

- سأشرح لك. لقد انطلقَتْ منذ يومين. ومن باب الصّدفة أنّ ذلك يتزامن مع أسبوعك الأوّل هنا.

تظاهرتُ بالمفاجأة.

- ألم تكن موجودة من قبل؟

- بتاتًا. أنا متيقّن ممّا أقوله يا زيكا. أمّا أنت، فستقدّم لي خدمة.

مدّ لي يده وهو يجرّدني من كنزي.

فكّرتُ في سرّي: «يا للخسارة!» كم كانت رائعة هذه الحرب! إنّها حرب بلا حلفاء. إذ لا وجود فيها إلاّ للأعداء. عند استراحة اللّمجة، يتلقّى كلّ تلميذ ثلاث فطائر حجريّة. فيحملها كلّ واحد منّا إلى المهجع، مُخبّأةً في جيب منامته. يُطفئ الأخ لويز الأضواء. ويظلّ يتمشّى جيئةً وذهابًا حتّى يتأكّد من أنّ كلّ شيء ساكن في

سلامٍ مُطبق. ثمّ يتّجه في هدوء، كأنّه ظِلٌّ، نحو حجرته آخر المهجع. وحينئذٍ، تنفجرُ الحرب. وينخرط فيها الجميع. فتتطاير الفطائر العجيبة من كلّ الجهات. كنّا نتسلّق الأسرّة حتّى نتمكّن من القصف بقوّةٍ أكبر. ثمّ يمتزج الصّفير بالضّحكات المكتومة. في اللّيلة الأولى، عندما أشعل الأخ الأضواء كان كلّ واحدٍ منّا في سريره. وتكرّر نفس الشّيء في اللّيلة الثّانية بنفس الإيقاع، حتّى أصابت إحدى الفطائر رأس صبيّ من الرّيف يُدعى شيكو رأس العجل. وسُمِعَ صراخٌ هائل. ولمّا أضاءت المصابيح، كان أنف شيكو ينزفُ مثل حنفيّة. وتمّت مرافقته إلى حجرة التّمريض.

مرّ الأخ لويز عبر المهجع في برود. وتأمّل الفطائر المرميّة على الأرضيّة. ثمّ حمل شيكو. وأطفأ الأضواء، دون أن يقول أيّ شيء.

ها هو الآن يقف أمامي. ويتأمّلني بنظراته. إنّه يأخذ الأشياء إلى أقصاها كعادته. امتدّت يده نحوي بإصرارٍ كبير.

– هل تعطيني الآن ما في جيبك؟ نعم أم لا؟

– أدخلتُ يدي في جيبي. وقدّمتُ له خمس فطائر.

– خمس يا فاسكونسيلوس؟

– لقد تلقّيتُ ثلاثًا فحسبُ. أمّا الفطيرتان، فقد بادلتهما لأنّ هناك أولادًا لا يحبّون القتال.

وضع الفطائر بشكلٍ مُستقيم على مكتبه.

– إنّها يابسة مثل الحجر. أليس كذلك؟

- هذا صحيح. ولكن ماذا تريد من الإعداديّة أن تفعل؟ هل تقدّم الحلوى لهؤلاء الأشقياء؟

- معك حقّ.

- يمكنك العودة إلى مكانك.

أصابني الذّهول على الفور.

- ألن تسلّط عليّ أيّ عقوبة؟

ضحك في لطفٍ وطيبة.

- لا. لماذا أفعل ذلك يا زيكا؟

- لا أعرف. ولكن لو كان أخٌ آخر في محلّك، لكان شرّحني أو خبزني على نارٍ هادئة.

- لن أفعل ذلك. هذه فكرة طريفة. هيّا، يمكنك الذّهاب. سنجري محادثة جماعيّة خاصّة.

وعندما جلستُ في مكاني، ضرب كفًّا بكفّ. وطلب من الجميع الإصغاء.

- أيّها السّادة، أردتُ أن أحدّثكم في أمر فظيع بصدد الحدوث... لا، ليس حرب الفطائر. إنّه شيء آخر أكثر خطورة وأهمّيّة.

أشار إلى تلميذ. فوقف.

- سنيور كلوفيس، أنت من سيرتاو. أليس كذلك؟

أومأ كلوفيس إيجابا.

ثمّ توجّه إلى شخصٍ آخر بالسّؤال:

- ومن أين أنت يا سنيور أرنوبيو؟

- من سيرتاو كذلك.

نظر من حوله، محدّقًا في الدّهشة التي أثارها سؤالاه.

- فليرفع من هم من سيرتاو أيديهم.

كان الجميع تقريبًا من تلك المنطقة. فرُفعت معظم الأيدي عاليًا.

- هل هناك من بينكم من سمع حديثًا عن الجفاف؟

من يمكنه أن ينكر ذلك وهو قادم من سيرتاو؟ فحتّى أنا رأيتُ بأمّ عيني قبل بضعة أشهر السّوطيّات[1] وهي تجتاح منطقة فيلا بارّيتو، وتلتهم كلّ ما يعترضها، بما في ذلك الثّمار الخضراء لأشجار المانغو، وتشرب مياه البحيرة الصّغيرة الآسنة كما لو كانت مياه المطر الصّافية. كان الجميع قذرين وسخين، تضوع منهم رائحة كريهة، بعظامهم النّاتئة التي تكاد تثقب الجلد وبمخالبهم السّوداء بدل الأصابع.

ولهذا السّبب، غمرت الأخ لويز مشاعر جيّاشة حتّى إنّ عينيه ظلّتا رطبتين بالدّموع طيلة حديثه.

تحدّث عن الجفاف، هذا الجفاف الفظيع الذي خرّب كلّ منطقة السيرتاو في الشّمال الشّرقيّ للبلاد. وتكلّم عن كلّ تلك الأشياء التي يعرفها الجميع. ثمّ تكلّم عن الجوع الذي نجهله وعن أشياء أخرى لم تعذّبنا من قبل في حيواتنا الصّغيرة.

(1) كائن حيّ أحاديّ الخلايا.

أنهى حديثه، وهو يضغط على الفطائر في يديه.

- إنّ ما يصلح لتسليتكم يمكن أن يخفّف جوع الكثير من المساكين، هؤلاء الجياع الذين يعرفهم جيّدًا القادمون من سيرتاو.

وضع الفطائر على المكتب. واسترسل قائلًا:

- لا يمكن للإعداديّة أن توفّر لكم ما هو أحسن من هذا وأفخر. وإذا لم ترغبوا في أكل هذه الفطائر فهذا يعني دون شكّ أنّكم لا تشعرون بالجوع. لن أتّخذ أيّ إجراء ولن أعاقب أحدًا. لكنّني أطلب منكم شيئًا واحدًا فحسب. لقد وضعتُ كيسًا في المهجع قرب الجرس. سأمنحكم خمس دقائق قبل الصّعود إلى أسرّتكم. وعلى كلّ من يرغب أن يذهب هناك ويضع فطائره في هذا الكيس. سوف توجّه هذه الفطائر لاحقًا إلى من يحتاجها حقًّا.

عمّ صمتٌ مفعمٌ بالانفعال في القاعة. وأوشكت دموعي أن تسيل على خدّيّ. استأنف صوتُه في حنانٍ وهدوء شديدَيْن إلى درجة أنّه أثار إعجابنا أكثر من قبل:

- أريد أن أضيف شيئًا أخيرًا، لا كلام سوف يليه. من يريد مواصلة حرب الفطائر فليفعل ذلك. ولن تكون هناك أيّ عقوبات.

ثمّ ختم كلامه:

- هذا كلّ شيء بالنّسبة إلى اليوم.

غادر القاعة، وهو يعبر بين الصّفوف بعينين مصوّبتين نحو الأرض. وبعينين مصوّبتين نحو الأرض كذلك أدرك الرّواق وغاب في ظلام الإعداديّة.

(5)
طرزان، ابن السّقوف

لم يكن لديّ الوقتُ الكافي للثّرثرة مع آدم أو انتظار زيارة موريس. لكنّ حياتي في الإعداديّة كانت جيّدة جدًّا. وعندما أنضبط للمواقيت فإنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، دون أيّ مشاكل.

وشرعتُ في عشق الدّراسة اللّيليّة. من المؤسف أنّها لا تدوم سوى ساعتين فحسب. كان الأخ لويز المكلّف بمراقبة مهجعنا، يتفاخر دومًا بكونه أصيلَ سيارا، رغم أنّ مظهره لا يوحي بذلك حقًّا. لقد كان الحديث عن سيارا موضوعه المفضّل دومًا. اقتربتُ منه عند الاستراحة، قبل الذّهاب مجدّدًا إلى الدّراسة، كما لو أنّ الأمر يحدث مصادفة. كانت يده المغروسة في جيب ردائه تسحب خرز المسبحة.

- ماذا هناك يا زيكا؟
- لا شيء أيّها الأخ.
- هل هناك أيّ شيء جديد؟
- اليوم، لا. لكنّني أرغب في التّحدّث معك، من أجل إيضاح مسألة مّا. هل قلتُ إيضاح؟ لا، إنّها الكلمة الخطأ. أقصدُ الإبانة، كما يقول الأخ أمبروزيو كلّما رغب في قول الكلمات الصّعبة الغامضة.

شرع الأخ لويز في الضّحك. وارتاب في أنّني أُدبّر أمرًا. ثمّ نزل عليه السّؤال بشكلٍ مُفاجئ تمامًا:

- لو كان لك أن تولد ثانية، هل تفضّل أن تكون من بارايبا[1] أم من سيارا؟

- أيّ سؤال هذا؟! من سيارا دون شكّ. ولماذا تسأل؟

- لأنّني أنا لو قُدّر لي أن أولد ثانية، لما رغبتُ في أن أكون من ريو دي جينيرو، وإنّما من سيارا كذلك، لسبب أدبيّ محض.

بدا على الأخ لويز الاهتمام الشّديد.

- لسبب أدبيّ؟

- بالضّبط. توجد في التّراث الأدبيّ مقاطع عجيبة عن سيارا كتبها جوزيه دي ألينكار[2]. إنّني مجنون بها.

- يجدر بالمرء قراءة رواياته.

- أيّها تفضّل؟ «لو غواراني»، «مناجم الفضّة» أم «إيراسيما»؟

- إنّ «إيراسيما» بمثابة قصيدة رائعة. لكنّني أفضّل «لو غواراني».

- وحده شخص قادم من سيارا يمكنه أن يكتب رواية كهذه. ألا توافقني؟ أمّا أبناء ريو فلديهم ماشادو دي أسيس[3]

---

(1) ولاية برازيليّة تقع في الشّمال الشّرقيّ.

(2) جوزيه دي ألينكار (1829-1877) كاتب برازيليّ، من مواليد فورتاليزا وهي عاصمة ولاية سيارا.

(3) ماشادو دي أسيس (1839-1908) كاتب وصحفيّ برازيليّ يعتبر لدى النّقاد والأدباء في بلاده واحدًا من أهمّ كتّابها عبر التّاريخ إن لم يكن أهمّهم.

وآخرون نسيت أسماءهم.

- ولكن يا عزيزي زيكا، ماشادو دي أسيس رائع كذلك. إنّهما يملكان أسلوبين مختلفين فحسب.

- أعرف. ولكنّ ألينكار يكتب عن الغابة بأسلوب فريدٍ للغاية. من المؤسف أنّ...

- من المؤسف ماذا؟

- كم أودّ أن تتاح لي فرصة قراءة ألينكار.

- الأمر يسير. اغتنم الفرصة ما إن تتاح لك.

- لا يُسمح لي بذلك.

- هذه جريمة. إذا كان لديك هذا الفضول، وهو أمرٌ نادرٌ عند أطفالنا في هذه الأيّام، فيجدر بالآخرين أن يصفّقوا لك.

- لسوء الحظّ...

- في بيتك؟

- نعم، الأمر ممنوع في البيت منعًا باتًّا. لا يهمّ...

- اسمعني يا زيكا. لماذا تقصّ عليّ كلّ هذا؟

- لسببٍ وجيهٍ ربّما. أيّها الأخ لويز ألا تجد أنّني تلميذ جيّد؟ إنّني الأوّل على الدّفعة دومًا. في الرّياضيّات فحسبُ، أكون ضعيفًا بعض الشّيء. وليس ذلك لأنّني لا أعمل جيّدًا. أقصد لا حاجة إلى العمل على أيّة حال، بما أنّني لا أحبّ تلك المادّة. أمّا بالنّسبة إلى بقيّة الموادّ، فيمكنك تفحّص

بطاقة أعدادي.

- وماذا بعد؟

- إذن، أريد تكريمك وسيارا.

لم يكتشف بعد غايتي. لكنّه انبهر لكلامي.

- ما هي قصّة التّكريم هذه يا زيكا؟

إنّ هذه الفرصة التي لا يُتيحها لي أيّ شخص، يمكن أن تأتي منك. اعلم أنّ لديّ هذه الكتب الثّلاثة فحسب. وأودّ أن أطلب منك الإذن كي أغتنم وقت الدّراسة لقراءتها.

فاجأه كلامي تمامًا. ولذلك، فكّر قليلًا وهو يمرّر يده على فمه من الحيرة والتّشوّش.

- لا أعرف حقًّا... لا.

- اسمعني أيّها الأخ لويز. أنا أريد أن أثقّف نفسي، فيما تتصرّف أنت مثل الآخرين! لقد سمّمني البرتغاليّ الثّمين الذي يدرّسه لنا الأخ أمبروزيو.

لم يحسم أمره بعد. وظلّ متردّدًا. ثمّ سألني:

- وواجباتك؟

- يمكنك أن تتثبّت من علاماتي القادمة. وإذا وجدت أنّها قد تراجعت، فامحُ هذه «الفرصة» التي أطلبها منك.

- هذا جيّد. ولكن، ماذا لو أراد التّلاميذ الآخرون العمل مثلك؟

- لن يكتشفوا ذلك. فالكتب مغلّفة بنفس أغلفة كتبي المدرسيّة.

- لقد خطّطتَ لكلّ شيء مُسبقًا. أليس كذلك؟

ثمّ انفجر ضاحكًا. وبما أنّه كان يضحك، فالانتصار وشيك.

- كما أنّني سأجلسُ في الصّفّ الأخير، بعيدًا عن بقيّة زملائي.

- سأمنحك إجابتي. وهي تكاد تكون «نعم». ومع ذلك، عليّ أن أتحدّث في الأمر مع الأخ فيليسيانو.

- لا حاجة إلى ذلك. فهو يعلم بالأمر سلفًا. لقد طلبتُ منه الكتب. وبحث عنها من أجلي.

بعد ألينكار، التهمتُ أشياء أخرى، كلّ ما يقع بين يديّ. كنتُ ألتهمها، أمضغها ومن ثمّ أجترّها. وفيما كان الجميع -أو جلّ التّلاميذ- يتّجهون إلى الدّراسة على مضض، متثائبين محتجّين على هذا الوقت الذي لا يمضي ولا ينتهي، كنتُ أنا معلّقًا بين الملائكة.

أمّا في ما يخصّ النّهار، فالأمر مختلف. لا أعرف حقًّا ما يحدث لي. لكنّني لم أكن قادرًا على العيش على الأرض مثل التّلاميذ الآخرين. أقضّي وقتي في تسلّق كلّ ما يعترضني. أتمسّك بالدّعامة. وأقفز من خشبة إلى أخرى. كنتُ خبيرًا بكلّ الهياكل والسّقوف. ولم أكن أستخدم درج المهجع بتاتًا. بل أستدير من جهة الفناء الخلفيّ. أتسلّق جدارًا عاليًا. ثمّ أقفزُ إلى منخفض، حيث يترك التّلاميذ حقائبهم. وألتحق بالآخرين.

وفي مرّاتٍ كثيرة، أوقع نفسي في شراك التّوبيخ والتّقريع.

- انزل إلى هنا يا فاسكونسيلوس!

أطيع الأمر. لكنّني ما إن أتقدّم قليلًا حتّى أكتشف موضعًا آخر يمكنني أن أتسلّقه من جديد.

- إنّه مجنون هذا الطّفل! ستسقط وتكسر ذراعك.

كان هَوَسِي شديدًا وشبيهًا بذاك المتعلّق بالسّباحة، حتّى إنّه أكسبني كنية جديدة: طرزان.

لكنّ ما كنتُ أحبّه حقًّا هو أن أهرب من كلّ عين رقيبة وأغيب في برج الكنيسة. أعبر المبنى كلّه إلى أن أصل إليه. لقد كان الدّرج تالفًا تمامًا. تغيب منه في بعض المواضع ثمان درجات أو تسع. ولكن ما أهمّيّة ذلك بالنّسبة إلى طرزان، خليل القردة؟ طرزان، ابن الغابة؟ أصل إلى جانب الجرس. وأجلسُ، ساقاي في الفراغ وأنا أتأمّل العالم. لقد اعتادت الأجراس أن تصمت منذ زمن بعيد. لقد خطّطتُ سلفًا أن أربط حبلًا متينًا وأدليه إلى الأسفل حالما أصل إلى هناك. وفي اللّيل يأتي أحد الكبار ليقرع أجراس منتصف اللّيل. تكمن المشكلة الوحيدة حتّى الآن في أنّني لم أجد بَعْدُ حبلًا متينًا بشكلٍ جيّد. أمّا الجرس، فإنّ مسألة قرعه يسيرة جدًّا. لقد حاولتُ ذلك سلَفًا وبلُطف شديد. ونجح الأمر. أيّ عجبٍ عُجاب هذا؟! يكون الجميع نائمين. وفجأةً، ينطلق الجرس في الرّنين بمفرده. سيقسم الجميع أنّها رُوح ميّتٍ هجرت قبرها. وتأتي الرّاهبات في اليوم الموالي حاملاتٍ شموعًا كثيرة للقدّيس أنطوان. وتقضّي «البرميلُ» اليوم كلّه في الكنيسة حتّى تهدّئ من خوفها.

تحمرّ العجوز تمامًا وتهدر غضبًا كلّما سمعتنا نلقّبها بهذا الاسم. حدث ذلك مرّة في الكنيسة. ويا للفضيحة! لقد نسيت المكان الذي توجد فيه. وراحت تسبّ وتشتم...

كنتُ أتأمّل المشهد من جديد. وأفكّر في الجرس. لن أتمكّن أبدًا من فعل ما خطّطتُ له، لأنّ من سيقرع الجرس سيهرب على الفور بأقصى سرعته، تاركًا الحبل في مكانه. وسيتمّ لاحقًا اكتشاف من ربطه إلى لسان الجرس. وسيُكشف أمري، تمامًا مثلما حدث في ذلك اليوم حين كنتُ صغيرًا جدًّا وصنعتُ ثعبانًا لإخافة النّاس في الشّارع. لقد ضُربتُ يومها كما يُضرب الجبس. وكانت مؤخّرتي في حالة مزرية، حتّى إنّني لم أقدر على الجلوس دون أن أئنّ وأتوجّع.

كم كانت رؤيةُ كلّ شيء من هذا الارتفاع جميلة. وكم كان رائعًا أن يشعر المرء بأنّه أشبه بعصفورٍ حرٍّ طليق، أن يعلو تقريبًا بنفس ارتفاع جرس الكاتدرائيّة التي توجد في ساحة أندري ألبوكيرك[1]. كان ترسيسيو صديقًا للرّجل الذي يُطلق إشارات للسّفن من ذلك البرج. وقد وعدني بأنّنا سوف نصعد إلى هناك ذات يوم. ومع ذلك، فإنّ جرسي أنا أفضل بكثير، فلا يتجرّأ على صُعود أدراجه خوفًا من أن ينهار كلّ شيء تحت قدميه. وبهذا الشّكل كان برج الجرس ملكًا لي ولأحلامي. بالإضافة إلى ذلك، بنيتُ خُطّةً محكمة كنتُ قد رويتُها لتارسيسيو من قبل. عندما أقرّر الرّحيل للانضمام

(1) أحد النّبلاء البرتغاليّين في القرن السّابع عشر. وهو من مواليد 30 ماي 1621. عمل في المستعمرة البرازيليّة آنذاك. وكان أحد أبرز الدّعاة إلى إصلاح الملكيّة في بلاده.

إلى الفيلق الأجنبيّ[1] لأصبح صديقًا لبوجاست[2] ورفاقه، فإنّي مُجبرٌ على اقتراف جريمة. وليس هناك أيّ مكان أفضل من هذا البرج. لقد سرقتُ قليلًا من المادّة المخدّرة من صيدليّة الإعداديّة. يكفي أن أضع بعضًا منها في منديل، وأخنق الأخ المدير. سأرفعهُ إلى أعلى الدّرج، ساحبًا جسمه الضّخم بواسطة حبل. ومن ثمّ، ألقي به من هناك ليتحطّم على الأرض. وستكون تلك فرصة رائعة بالنّسبة إلى جميع التّلاميذ، لأنّهم سيغنمون ثلاثة أيّام من العطلة. أمّا أنا، فبعد أن أتمّ جريمتي سأتّجه مُباشرة إلى إفريقيا. أين يوجد الفيلق؟ في المغرب أم في السّينغال؟ عليّ أن أسأل فايول حتّى يطمئنّ قلبي وتتّضح الرّؤية لديّ.

كانت القوارب تتقدّم في المرأى البعيد في مياه بوتنغي، فيما تطفو زوارق ثقيلة تدفعها المجاذيف الطّويلة في المياه الأقلّ عمقًا ويتمشّى عمّال الملح على رصيف تافاريس دي ليرا. هناك سفنٌ تحمل أناسًا ماضين في رحلات أحلامهم، ينتظرون ارتفاع المدّ حتّى ينطلقوا ويختفوا في الأفق.

خلال مرّات عديدة، تمّ استدعائي إلى مكتب المدير. فوُبّختُ بحدّة وأنذرتُ بالعقاب. قيل لي إنّ باب برج الجرس سيُقفل

---

(1) وحدة عسكريّة فرنسيّة خاصّة وفريدة من نوعها. فهي مخصّصة للأجانب الذين يرغبون في الالتحاق بالجيش الفرنسيّ ولكن بقيادة ضبّاط فرنسيّين. ومع ذلك، فإنّه يُسمح لنسبة من المواطنين الفرنسيّين بالالتحاق بها. وهي تعرف بكونها تحدّيا كبيرًا من حيث التّدريب الجسديّ والنّفسيّ.

(2) عنوان رواية يحمل بطلها نفس الاسم. وقد ألّفها البريطانيّ بي سي رن (1875-1941). ونشرها سنة 1924. وقد تمّ اقتباسها عدّة مرّات في السّينما والتّلفزيون.

بالمفتاح. أمّا أنا، فكنتُ حينئذٍ أكتم ضحكي. لقد كان القُفل قديمًا جدًّا، حتّى إنّه لم يعد يعمل منذ زمن بعيد. لقد تحاملتُ على نفسي كي أكتم رغبتي في الرّدّ عليهم بقوّة. لكنّني لعنتهم في سرّي:

- أيّها العجائز الأشرار! أيّها الشّياطين! ما السّيّء في الصّعود هناك إلى الأعلى وتأمّل الأشياء الجميلة الكثيرة؟ إذا كان هؤلاء الحمقى خائفين من جرسٍ بائس، فكيف يرغبون في الصّعود إلى السّماء وهي أعلى بكثير؟

عندما يتوقّفون عن التّفكير في الأمر سأعاود الكرّة من جديد. ومع ذلك، فإنّ الحذر صار يدفعني مع مرور الوقت إلى عدم إظهار ساقيّ. وحتّى موسى نفسه كان يتعجّب حين أمكث لفترةٍ طويلة دون زيارته. إنّ موسى هو اسم الجرس الطنّان الكبير، والذي يظلّ أخرس طيلة الوقت. أمّا من يموت رُعبًا، فهو آدم. هو الذي يكون مقدامًا في شؤون كثيرة يتحوّل فجأةً إلى جبانٍ في مسائل أخرى.

أحيانًا، أشعر برغبةٍ جامحة في السّباحة. فقد اشتاق جسدي إلى المياه الدّافئة بشكل جهنّميّ. وحين أكون بمفردي في المهجع، أحدّث آدم مقترحًا:

- هيّا نسبح!

وكنتُ أحرّك ذراعيّ كأنّني أسبح في ريو بوتنغي نفسه، بينما أعبر المهجع جيئةً وذهابًا. ذات مرّة، لم أكن أعرف أنّ الأخ لويز موجود في غرفته، وقمتُ بغطسٍ لذيذ. كنتُ متأهّبًا للقيام بمائتي متر سباحة حرّة عندما فتح الباب وقاطعني. لقد تجمّد جسدي في مكانه بفعل ضحِكِه الشّديد.

- ماذا تفعل يا طرزان؟

- لا شيء. أسبح قليلًا.

اقترب منّي. فلمح على وجهي رغبتي الملحّة في المغامرة. وفهم حينئذٍ ما كان يحدث.

- لم تعد تذهب إلى الشّاطئ يوم الأحد يا زيكا؟

- لا يُسمح لي بذلك. فأنا مُعاقَب.

- لكنّك تودّ ذلك حقًّا. أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي مُذعنًا.

- ومن لا يريد؟

- سنجد حلًّا للأمر. ففي النّهاية، أنت ولدٌ طيّب. صحيح أنّك مشاغب قليلًا. ولكنّ قلبك طيّب.

بدأتُ أتضايق جدًّا من الرّاهبات. كلّما ألقيتُ نظرةً خلال ساعات النّهار لمحتهنّ هناك، كأنّهنّ جزء من الدّيكور مثل الشّموع والجدران وأرغن الأخ آمادو. يبدو أنّ بنات الشّيطان لا يملكن شيئًا في الحياة يفعلنهُ سوى الصّلاة. ولهنّ ركنهنّ الخاصّ يسارًا في آخر القاعة. أمّا عند القدّاس، فإنّهنّ يؤخّرن كلّ شيء لأنّهنّ يحتجن للوصول إلى المائدة إلى مائتي مليون دقيقة. ووحده الأب مونتي يمكنه أن يتحلّى بصبر القدّيسين هذا.

في المقابل، لا يمكن للأولاد الذين أُصيبت أقدامهم خلال مباريات كرة القدم أن يرتدوا أحذية. ولأنّهم كذلك، لا يُسمح لهم

بدخول صحن الكنيسة لأسبابٍ جماليّة، وفق عبارة الأخ أمبروزيو. ولكي لا يفوتهم القدّاس اليوميّ، يمكث أولئك المصابون في أقدامهم داخل الممرّ. وعندما حان دوري وأفسدتُ قدمي كذلك، اكتشفتُ أمرًا جديدًا؛ تَجتاحُ أرضيّةُ الممرّ الخشبيّة القديمة ثُقوب هنا وهناك. ومن خلالها يمكن رؤية رؤوس الرّاهبات المغطّاة بالمحارم والأوشحة. وبين الرّؤية والمرور إلى الفعل لم تكن هناك إلاّ خطوة واحدة صغيرة.

كنتُ ذات مرّةٍ وبالصّدفة المُصاب الوحيد في قدمه في الممرّ. وأطلقتُ العنان لنفسي. دون أن أُحدث أيَّ ضجيج، رحتُ أحصد كلّ ما تطاله يداي من قطعِ خشبٍ صغيرة وشظايا من الجدار القديم كنتُ أنزعها بأظافري وسيقان خنافس وأجنحة حشرات وشباك عناكب أصنع منها كريّات صغيرة وأعواد ثقاب محترقة وما إلى ذلك.

وعندما يحين الموعد ويقتربن من المذبح، أركع قرب إحدى الحفر وألقي بغنيمتي على رؤوسهنّ. فينفجر لغطٌ لا نهاية له. يلتفتُ الجميع حينئذٍ نحوهنّ، دون أن يفهموا سبب جلبتهنّ ولم يهززن محارمهنّ وينفضنها بقوّة. أمّا أنا، فقد صرتُ سلفًا في ركني البعيد. فعلتُ ذلك ثلاث مرّات فحسب. ولم أعد الكرّة مُطْلَقًا. عندما رأى الأخ لويز إصبع قدمي ملويًّا مُصابًا ومُضمَّدًا، انفجر ضاحكًا.

– هل يمكنني الذّهاب إلى الممرّ أيّها الأخ؟

– من الآن فصاعدًا، لا يا زيكا.

– هل يعني هذا إعفائي من القدّاس؟

- أبدًا لا. ستصعد إلى حجرة التّمريض. ثمّ تفتح النّافذة التي تواجه الكنيسة. وتحضر القدّاس. هكذا تفعل إلى أن تشفى قدَمُك.

أذعنتُ لأمره. لكنّني أقسمتُ في سرّي على الانتقام يومًا مّا من الرّاهبات. لا شكّ أنّني سوف أجد طريقة مّا لفعل ذلك. فالحياة تتكفّل دومًا بإظهار طريقةٍ محتملة لإتمام الأشياء.

وبما أنّ كلّ ما نأمله ينتهي بالحدوث أخيرًا، فقد كان لي ذات نهار ما أردتُه. في الحقيقة لم يكن نهارًا بالمعنى الدّقيق للكلمة، بل نهاية ظهيرة، على السّاعة التي تكون فيها حماستهنّ في أوجها.

بعد الدّرس، ذهبنا للعب كرة القدم في قطعة الأرض التي اشتراها الإخوة. إنّهم يريدون بناء إعداديّة المريميّين الجديدة. وكان هناك فريقَان. أحدهما فريق كبار والآخر حكرٌ على الصّغار. بالنّسبة إليّ، لم تكن كرة القدم مجالي الذي خلقتُ من أجله. ويمكن ملاحظة ذلك بيسر شديد. فعالمي في المقابل يتشكّل من كلّ تلك الأشجار العملاقة، أشجار الكاجو المهيبة وأشجار البيتومبيروس العظيمة... إنّها غابة أحلامي التي تناسب ذائقتي وتوافق الجانب الطّرزانيّ فيّ. وجدتُ طريقة للانتقال من غصن إلى آخر بدقّةٍ نادرة. وطبعًا، كان ممنوعًا أن ألمس الأرض خلال ذلك. تبعني بعض التّلاميذ الذين لا يشاركون بدورهم في لعب كرة القدم. لكنّهم أضربوا عن الأمر بسرعة. فملاحقة طرزان القردة ومحاكاته ليستْ مزحة.

عند السّاعة الخامسة، أعلن الأخ لويز عن النّهاية، مُصفّرًا

بتلك الطّريقة التي يجيدها وحده من دون الجميع. عدنا إلى المدرسة، متّسخين جميعًا، شُعثًا ومغرقين في العرق. وما إن وصلنا حتّى اتّجهنا مباشرةً نحو المهجع. فارتدينا سراويل مناماتنا. ونزلنا للاستحمام. وبما أنّه لم يكن هناك سوى ستّة أمكنة متاحة وبما أنّ كلّ حمّام يستغرق خمس دقائق فحسبُ، فقد استرسلنا في اللّعب.

لقد اكتشفنا –وهذه المرّة لم أكن مدبّر الأمر– حرب المناشف. صحيح أنّني لم أخترعها. لكنّ الفكرة أعجبتني كثيرًا.

يلوي الواحد منّا منشفة الحمّام. ويسوّط أحد الأولاد السّاهين. لقد كانت تلك بدايةَ قتالٍ مجنون. وفي الواقع، لم يُحدِث ذلك أيّ معركة حقيقيّة. لكنّ هناك من احتجّ وتضايق جدًّا من هذا الأمر. ومن بين هؤلاء أرنوبيو. وهو فتى قويّ، له عضلات كبيرة متّنها في طفولته أثناء عمله في مزارع تربية الماشية في سيرتاو. باختصار شديد، إنّه خصمٌ كاسح. ولا أحد كان يملك شجاعة أن يجلده بضربات من منشفته.

– من يذهب؟

– إيّاك أن تتغابى!

– ولكنّ الأمرَ سهلٌ. إنّه يلتفتُ إلى هناك. وليس يرتدي قميصًا. كما أنّه أكبر حجمًا من الآخرين. يكفي أن تفتل المنشفة، وبفففت!

كان إغواءً عظيمًا بالنّسبة إليّ. وتدخّل آدم لتوجيه النّصح بتحفّظ نوعًا مّا:

- لا تفعل ذلك يا زيكا! سيقتلك لا محالة.

- أشكّ في الأمر. فهو على يقينٍ أن لا أحد سيجرؤ على ضربه، حتّى إنّه سيُشلّ من الذّهول. وعندما يشرع في ردّ الفعل، أكون قد اختفيت. إنّني متأكّد من أنّني أركض أسرع منه.

- ورغم ذلك، ما كنتُ لأجازف.

- سيكون الأمر مضحكًا.

اقتربتُ منه بلطف. ثمّ لويتُ المنشفة. وبففففت! ضربتُ أرنوبيو.

قفز الوحشُ في مكانه وصار حجمُه هائلًا، حتّى إنّ طوله أصبح خمسة أمتار كاملة. انتفخت وجنتاه وأوداجه. وعلا صدره. ثمّ ألقى منشفته على الأرضي. ووثب عليّ.

- انتبه يا آدم!

ركضتُ، ساقاي أعلى من رأسي باتّجاه ساحة الاستراحة، بينما كان الثّور الهائج ينفث الهواء السّاخن من خلفي. قمتُ بمراوغته بشكل فُجئيّ حتّى كاد يصطدم بالجدار. ونتيجة لذلك، انتشرت موجة ضحك هائلة، كانت كافية لتدفع أرنوبيو إلى الحنق الشّديد. عبرنا السّاخة ونحن نخبُّ مثل جوادين. لكنّه لم يستسلم. ركضتُ جهةَ حجرةِ التّمريض. وزدتُ في سرعتي حتّى دخلتُ الصّفّ الرّابع. وقفزتُ عبر النّافذة إلى الرّواق. وتبعني هو، محاكيًا إيّاي في كلّ ما فعلته. إذا ما أمسك بي سيطحنني ويحوّلني إلى دقيق. عدتُ إلى ساحة الاستراحة. وعاودتُ الخطّة نفسها. راوغتهُ مجدّدًا. وتقدّمتُ مسرعًا، وأنا ألاحظ أنّه قد بدأ يشعر بالإرهاق. ولكنّه مازال يعاند،

ولم يستسلم بعد. صعدتُ درج المهجع قافزًا من رباعيّةٍ إلى أخرى. فبدأ يتخلّف عنّي. ثمّ عدوتُ نحو مكان الحقائب. فانزلقتُ بين القضبان. تشبّثتُ بالسّقف. وقفزتُ فوق الجدار. وحينئذٍ، توقّف. هذا ما كان عاجزًا عن فعله.

- سوف أمسك بك عاجلًا أم آجلًا. سترى!

استدار ليتّجه نحو الدّرج. فقفزتُ إلى الأرض، عازمًا على كسب المزيد من الأسبقيّة. ومرّةً أخرى، أقبل نحوي ليطاردني. لم يكن هناك إلاّ حلٌّ واحد. وعزمتُ على أن أجرّب حظّي. ففي غمرة يأسي، فكّرتُ في الرّاهبات. سَيَمُتْنَ من الصّدمة. لكنّ هذا لا يهمّني. ليس لديّ خيار آخر. دخلتُ الرّواق الكبير الذي يفتح على الكنيسة. ولم أكن قد بلغتُ الباب بعد عندما وصل أرنوبيو إلى الرّواق. سيتحوّل الأمر إلى فضيحة كبرى. ولكنّني قرّرتُ سلفًا أن أبيع حياتي بثمنٍ باهض. لا يهمّني أنّني لا أرتدي إلاّ سروال المنامة. استجمعتُ شجاعتي. ونفذتُ إلى الكنيسة راكضًا. هو أكبر منّي سنًّا. ولن يتجرّأ على الأرجح على الدّخول. ولكن، هيهات!

عبرتُ صفوف المقاعد دون أهتمّ بأيّ شيءٍ آخر. وسمعتُ على الفور صياحهنّ:

- بحقّ الرّبّ!

- أيّ فجورٍ هذا؟!

- رجلان عاريان في الكنيسة!

- إنّه لدنَسٌ عظيم!

إذا كان الدّخول في مثل ذلك الزّيّ إلى الكنيسة دنسًا، فإنّ الأمر أسوأ بكثير في الشّارع. توقّف الجميع هناك، مصدومين لرؤية هذين الولدين يركضان نصف عاريين في وسط الشّارع المغبرّ.

انتظرتُ حتّى يقترب منّي، مُتحكّمًا قدر استطاعتي في تنفّسي. سمعتُ وقع خطواته. فقلتُ في نفسي: «لا، لن يتمكّن منّي». وعدوتُ نحو زقاق يُفضي إلى حانة السّيّد آرثر، حيث اعتاد الكبار أن يشربوا نصيبًا من المشروب. دخلتُ إلى هناك مثل إعصار. فكان الذّهول المطبق. عبرتُ القاعة بوثبة واحدةٍ. فدخل أرنوبيو من بعدي. وكنتُ حينها قد غادرتُ من الباب الثّانويّ. انجُ بحياتك! لقد خسر بعض المسافة، بينما عدتُ إلى الزّقاق في الاتّجاه المعاكس. ولحقني هو، مُتخلّفًا بعض الشّيء. ومرّةً أخرى، توقّف النّاس في الشّارع لرؤية ما يحدث. لم أكن أُقدّر أيَّ عواقب للمطاردة. وكان من الضّروريّ أن أعود إلى المدرسة في أقربِ وقتٍ ممكن. أمّا الطّريق الوحيدة التي تفضي إليها، فهي الكنيسة. اقترب أرنوبيو مجدّدًا. وبقفزة واحدة، وجدتُني في المكان المقدّس. عاودت الصّرخات التي هدأت منذ حين:

- أيّ فجور هذا يا ربّي؟!

- مرّةً أخرى، الرّجلان العاريان!

جازفتُ بالاستدارة قليلًا حتّى رميتُ نظرة إلى الوراء. ورأيتُ ما كنتُ أرغبُ فيه. صرختُ على الفور:

- أيّتها «البرميل» الضّخم!

ودون أيّ تأخيرٍ، أرغت العجوز وأزبدت. أمسكت بمظلّتها. وسدّت الطّريق بواسطتها على أرنوبيو. فنزلت عليه رأسًا، دون أن يفهم ما يحدث له.

فليتدبّر أمره. بالنّسبة إليّ، لم أعد في حاجة إلاّ للاختباء. إنّ العودة إلى ساحة الاستراحة تمثّل الموت الحتميّ. ركضتُ بانتظام أكبر، مستعيدًا أنفاسي المنقطعة. وفجأةً، سمعتُ ضجيجًا في الرّواق. يا إلهي! إنّه هو! لم يبق أمامي إلاّ طوقُ نجاةٍ وحيدٌ ونهائيّ؛ الذّهاب إلى قاعة فايول. تبعتُ غريزتي إذن. ولكنّ الكارثة تمثّلت في أنّني وجدتها فارغةً، فارغة تمامًا.

رجعتُ إلى الرّواق. فلمحتُ درج الصّغار. لا شكّ أنّهم يتناولون العشاء في هذه السّاعة. يجدر بي أن أجرّب حظّي. صعدتُ إلى أعلى. واستندتُ إلى جدار المهجع، وقلبي ينبض بشدّة حارقة.

– كفى يا زيزا! إنّك توشك أن تتقيّأني.

– أوشكت الحكاية أن تنتهي. سيستسلم قريبًا. ويذهب للنّوم.

وماذا لو شاءت الصّدفة أن يهجر أحد الإخوة الذين ينامون هنا صلاة اللّيل، ليأتي بحثًا عن شيء مّا كان قد نسيه؟ لم أرد أن أفكّر في الأمر. لا شكّ أنّ أرنوبيو قد ضيّع طريقه إليّ. فهو لم يرني وأنا أندفع إلى الدّرج. سأعود إلى الرّواق في أقلّ من خمس دقائق. ومن هناك، سأتسلّل إلى ساحة الكبار. فجأةً، خفق قلبي بشدّة. يا للبائس! إنّه لم ينس أمري مُطْلَقًا. لقد اقتفى أثري. وها هو الآن يصعد الدّرج ببطء وهدوء. ما العمل إذن؟ عليّ أن أصرعه بقوّة حتّى أتمكّن

من الفرار. لويتُ المنشفة التي ما تزال معي. مسحتُ العرق عن وجهي وجسدي. وشعرتُ بالخوف الشّديد، الخوف بأتمّ معنى الكلمة. سيصل في غضون ثانية. أعددتُ المنشفة لتسديد الضّربة. حالما يطلّ برأسه سأطلقها عليه. التصقتُ بالجدار. وعندما لمحتُ الرّأس، ضربتُه دون أدنى رحمة. سمعتُ صياحًا اهتزّ له المبنى. يا له من صوتٍ مُدوٍّ! لا شكّ أنّه شعر بالخوف أكثر من الألم. كان أمامي إزاء الوميض الأخير للظّهيرة، جسد الأخ إيستيفاو، عيناه تقدحان شررًا. ولم يعد الأخ إستيفاو ذا الأنف الذي يقطر، والذي يستهلّ كلّ دروس الدّين قائلًا: «وحينئذٍ، قال يسوع لتلاميذه...»، وإنّما نسخة هائلة منه ذات يدين كبيرتين كيَدَيْ المسيح الفادي[1]. فإذا ما صفع أحدًا بتَيْنَك اليدين فسَيخلع عنقه دون شكّ. إنّه الأخ إيستيفاو الذي يلقّبه البعض بفرانكشتاين. لم يقل شيئًا. أمسكني من عنقي. ورفعني في الهواء، كأنّني مجرّد بعوضة. وفي تلك اللّحظة، أدركتُ أنّه من أجل أن يكون المرء طرزان القردة ويحارب ضدّ كيرشاك الغوريلا، ينبغي أن يمتلك الكثير الكثير. لقد كنتُ أرتجفُ بين يديه، بجسدٍ متجمّدٍ وينزّ العرق في كلّ موضع منه، جامدًا في الهواء وغير قادرٍ حتّى على أن أحرّك ساقيّ العالقتين قُبالةَ صدره. تركني أنزلقُ مثل سحليّة على شجرة جوز الهند. ودون أن يتركني، سأل:

- ماذا يعني هذا أيّها الوغد الصّغير؟

---

(1) إشارة إلى تمثال المسيح الشّهير في ريو دي جينيرو. ويسمّى تمثال المسيح الفادي.

لم أجد صوتًا في حنجرتي لأجيبه.

تحرّرت إحدى يداي. فهدّدني بصفعةٍ. ثمّ سحبني إلى أعلى الدّرج. وجعلني أُطلّ على الأسفل.

- كان عليّ أن أرسلك إلى هناك في الأسفل.

ثمّ هدأ قليلًا. لكنّه لم يحرّر قبضته منّي.

- هيّا! قل ماذا يعني ما فعلته للتّوّ؟

وبصوتِ ديكٍ لم يعد قادرًا على الصّياح، شرحتُ له القصّة متلعثمًا وبسرعة. قلتُ له إنّ أرنوبيو يلاحقني، إنّني اختبأتُ هناك كي أفلت منه وإنّني حسبتُ رأسه رأس أرنوبيو.

- ممتاز. والآن؟

كنتُ شبهَ ميّتٍ في تلك اللّحظة.

- الآن... أعتقد أنّ عليك أن تقتلني.

- أقتلك! أتعتقد هذا يا ولد؟ سيكون أمرًا هيّنًا مقارنةً بما ينتظرك حقًّا.

- وماذا لو طلبتُ منك مغفرةً عظيمةً أقرِنها بتوبة نَصُوح؟

- في حالك أنت لن يفيد مثل هذا. ستدفع ثمن عادتك اللّعينة في أن تكون خليلًا للشّيطان.

حدّق فيّ بشراسة. وبدت عيناه الفاتحتان شبيهتين بقعري قارورتين مكسورتين.

- في البداية، تخيّل ما سيقوله الأخ المدير... واحد من الكبار

في مهجع الصّغار! همم!

فقدتُ صوتي مجدّدًا. وقد أثقل عليّ شيء مّا أشدّ خطورةً وعظمة. يُعدّ ما أنا فيه لا شيء مقارنة به. أقصد؛ ماذا سيحدث حين يروي المصلّون قصّة الملاحقة بين أرنوبيو وبيني، عاريَيْن في قلب الكنيسة، أمام السّيّدة العذراء والقدّيس جوزيف وحاميّ القدّيس أنطوان؟

صلّيتُ في سرّي: «نوتردام دو لورد! احرسيني! أعدك بأن...» ما العمل يا إلهي؟ أيّ وضع شيطانيّ هذا؟ ما الفائدة في تقديم الوعود للسّيّدة العذراء؟ فمن الواضح أنّها لن تصدّق قسَمي بعد الآن. إنّني أخلق المشاكل والتّعقيدات في كلّ مناسبة وبشكلٍ دائم. وفي غمرة يأسي ذاك، فكّرتُ في استدعاء قدّيسٍ جديد لا معرفة له بتاريخي القديم وماضيّ الأسود. والوحيد الذي خطر ببالي حينذاك هو القدّيس جيرار. ولذلك توسّلتُه، بأكبر طريقةٍ متواضعة في العالم، طلبًا للمساعدة:

– إذن، ألا تقول شيئًا؟

– كلّ ما يمكنني قوله لن يفيدني في شيء، لأنّني مُخطئٌ تمامًا. وأنا المذنب في كلّ ما حدث.

– ها إنّك صريح على الأقلّ. هيّا بنا!

نزلنا الدّرج معًا. ثمّ مشيتُ أمامه. وقد جعل السّكون صدًى لوقع خطواتنا. وفجأةً، أشرق صوتٌ خافتٌ من بعيد:

– زيزا، أمازلتَ حيًّا؟

– وأنت؟

– إنّني أُبعث من جديد.

– لحسن الحظّ. هيّا، استعدّ. سينفجر الوضع.

لقد أخذنا الأخ لويز معًا. وأغلق علينا قفل باب المهجع، حتّى لا نتحوّل إلى محطّ أنظار الجميع. أجلس أرنوبيو على سرير وأجلسني على آخر. ثمّ تمشّى أمامنا بخطواتٍ مُتوتّرة، قبل أن يشرع في الكلام:

– خطأ من هو في النّهاية؟ هل هو خطؤك أنت يا أرنوبيو؟

كان صوتُ أرنوبيو مُرتجفًا جدًّا، حتّى إنّ المرء يحسبه طفلًا في الخامسة وليس ذلك الفتى، شديد البأس.

– كنتُ واقفًا في أمان، أنتظر دوري لأستحمّ.

– هل هذا صحيح يا زيكا؟

– نعم أيّها الأخ لويز. إنّه ليس مذنبًا. إنّني أنا المسؤول عن كلّ شيء.

بما أنّه قُضي عليّ، فمن الأفضل أن أكون صريحًا على الأقلّ. وإذا لم يُعاقب أرنوبيو، فإنّه لن يضربني لاحقًا على الأرجح.

– إذن، أنت تتحمّل المسؤوليّة كاملة؟ كاملة؟

– نعم.

– حسنًا. يمكنك الذّهاب يا أرنوبيو. لكنّني لا أريد أعداءً في مهجعي. ولذلك، يجب عليكما أن تتصافحا أوّلًا.

تصافحنا. فنظرتُ في عينيه مباشرة لأتثبّت ما إذا كان ينوي أن يصفّي حساباته معي لاحقًا. وما رأيته أثّر فيّ حقًّا. لقد كانت قسمات وجهه رقيقة جدًّا إلى درجةٍ أزعجتني.

- أرنوبيو، أغلق الباب عند مغادرتك. لا أريد أن يقاطعني أحد.

صار الأخ لويز يمشي عبر القاعة، جيئةً وذهابًا، وهو يتأمّلني. ثمّ توقّف فجأةً.

- زيكا، ما الذي يحدث في رأسك حتّى تخترع كلّ هذه الأشياء الغبيّة الخرقاء؟

لقد شعرتُ بتأثّر جديد. لم أكن مقبلًا على البكاء. لكنّ دموعي كانت وشيكة.

- لا أعرف أيّها الأخ. تحدثُ الأشياء من تلقاء نفسها، دون أن أعدّ لها. وعندما أنتبه إليها تكون قد حدثت سلفًا أو بصَدد الحُدوث. فلا أكون قادرًا حينئذٍ على التّوقّف والعودة إلى الخلف.

تأمّلتُ الأخ لويز بملامح متوسّلة:

- لن يسامحني الأخ إستيفاو. أليس كذلك؟

استخدم حينئذٍ عبارتنا المعتادة. وأجابني:

- إنّ «فرانكشتاين» غاضبٌ جدًّا. ويريد أن يرى الدّماء تسيل. ولكن، من المبكّر أن تعرف ما سيفعلونه بك. إنّهم مجتمعون في مكتب المدير. وبينما يتناقشون، حدّثني عن الحكاية كلّها.

ولا تتجاوز أيّ تفصيل.

جلس على السّرير قبالتي. ورحتُ أفرغ ما في جعبتي. وكلّما تقدّمتُ في الحديث أكثر ازداد عجزه عن مقاومة الضّحك، حتّى إذا ما وصلتُ إلى نقطة الرّاهبات، انفجر ضاحكًا إلى درجة أنّ قهقهته ظلّت تهزّ السرير. وأنا كذلك، ضحكتُ معه كثيرًا، لأنّه إذا وجد الأخ لويز الأمر مُضحكًا فعلى الأرجح أنّ البقيّة سيفعلون نفس الأمر. لا شكّ أن حاميّ الجديد، القدّيس جيرار، سيمدّ لي يدًا قويّة للمساعدة.

- اسمعني يا زيكا! إنّ ما فعلته ليبلغ من الجنون والعبثيّة والغرابة حدًّا أقصى، حتّى إنّني لو كنتُ المعنيّ بالأمر لسامحتك. أقصدُ، كنتُ لأقلّص عقوبتك إلى النّصف.

- والآن، أيّها الأخ لويز؟

أخرج ساعته. وأعلن بداية الحكم:

- الآن، فلنذهب إلى الأسفل!

- ألا يمكنني على الأقلّ أن أستحمّ. إنّني في حالة مزرية أيّها الأخ لويز.

- لا مجال لذلك. ستنام اللّيلة على تلك الحال، إذا كنتَ محظوظًا طبعًا، لأنّني أعتقد أنّ عليك أن تقضي اللّيلة كلّها مُعاقبًا، ويداك مقيّدتان إلى أحد الأعمدة.

سألتُه قبل أن أغادر المهجع:

- هل تعتقد أنّني سأطرد؟

- لا أعتقد أنّ هناك أسبابًا كافية لمثل هذا، علمًا وأنّك اقتربت جدًّا من الطّرد.

وللمرّة الثّانية في حياتي أكونُ في هذه القاعة الكئيبة، حيث تُشكّل الطّاولات قوسًا.

- اليدان مكتوفان!

أجدني أُطيع الصّوت المُهدّد بسُرعة.

- انظر إليّ عندما أسألك سؤالًا. وبعد أن تجيب، اِلتفتْ على الفور إلى السبّورة السّوداء.

كانت نظرتي تُعلّق بسرعة في أكبر سبورة سوداء في الإعداديّة كلّها. فأظلّ أحدّق في مسارات الطّباشير، حيث تظهر حروف لم تُمح بشكل جيّد.

اضطررت إلى معاودة الحكاية التي رويتها للأخ لويز بكُلّ تفاصيلها. ولكن لا أحد قد ضحك أو ابتسم مُجرّد ابتسام.

النّتيجة النّهائيّة: لن أُطرد من المدرسة الإعداديّة لا بشكل نهائيّ ولا مُؤقّت. ولكنّني...

- عليك أن تظلّ في قاعة الدّراسة خلال كلّ فترات الاستراحة.

- ستمكث بذراعين مكتوفتين خلال كلّ الحصص الدّراسيّة اللّيليّة.

- ستبقى بعد الدّراسة طيلة ساعتين في وضعٍ واحدٍ دون أن تتحرّك؛ تقفُ وذراعاك مكتوفتان.

- ولكي نُنهي الأمر، يجب عليك أن تكتب ألف سطر.

ارتجفتُ على الفور. ألف سطر يا إلهي! كان من الأفضل أن أكتب بدلًا من ذلك كتابًا، رواية مثلًا أو شيئًا آخر... لا أعرف تحديدًا، أيّ حماقة ممكنة. الأمر أسوأ من المطْهَر[1]. وبالإضافة إلى ذلك عليّ أن أحمد الرّبّ على عدم طردي. هل كنتُ أتجرّأ على مواجهة عائلتي لو حدث الأمرُ فعلًا؟

ومع ذلك، فـ«المذبحة» لم تنته بعد. صار لزامًا عليّ الآن أن أختار الجملة البائسة لكتابتها. فقد اتُّخذ القرار الذي يقضي بأن أصطفيها بمفردي. فكّرتُ بسرعة. لكنّ القاعدة تريد أن أعتمد شيئًا مّا لا أحبّه حتّى يصير العقاب أثقل وأشدّ.

- هيّا يا سينيور فاسكونسيلوس! الجملة!

فكّرتُ حينئذٍ في شيء مّا أحبّه كثيرًا منذ أن كنتُ صغيرًا. لكنّني سأدّعي خلاف ذلك. وهكذا على الأقلّ، أظلّ أكتب ألف مرّة جملة أحبّها.

- الجملة!!!

- «سمعتُ من ضفاف إيبيرانغا هتافات شعب بطل...».

لقد عمّ الذّهول. واندهش الجميع لما قلته. رفع الأخ المدير حاجبيه مندهشًا، مشكّلًا بواسطتهما قوسًا أسود، قوسًا سماويًّا من الحزن والخيبة.

---

(1) المطهر في المعتقد الكاثوليكيّ هو مكان تذهبُ إليه أرواح المذنبين الذين لم يتوبوا توبة كاملة عن كلّ خطاياهم. فتطهّرهم النّار حتّى يصيروا مؤهّلين للدّخول إلى ملكوت الله.

- هذا الولد مجنون تمامًا. من يجرؤ على أن يكره نشيده الوطنيّ؟!
لويتُ إصبعيّ تحت ذراعيّ المكتوفتين، مُشكّلًا شارة الحظّ ومعتذرًا من نشيدي الغالي.

- حسنًا، لقد اخترت. لكنّنا لن نبقى هنا. رجاءً، أيّها الأخ جواكيم اكتب على السّبورة السّوداء.

التقط الأخ جواكيم الطّباشير.

- اكتب من فضلك أيّها الأخ: «سمعتُ من ضفاف إيبيرانغا هتافات شعب بطل، رغم أنّني تلميذ شرّير وغير مسؤول».

تأوّهتُ في تلك اللّحظة. وكذلك فعل آدم. لقد أصابوني في مقتل. لو اخترتُ جملة أخرى لما كانت العاقبة بمثل هذا السّوء. متى سأنتهي من هذه الجملة اللاّنهائيّة؟ آه يا يسوعي الصّغير ذا الحمل على الكتفين! إنّني أفكّر في أكداس الأوراق المتراكمة وفي أصابعي المتصلّبة من فرط الكتابة. ولكن، سوف ينتهي الأمر سواء بعد عشرة أيّام أم عشرين.

- تشجّع يا زيزا! على أيّة حال، هذا أفضل من أن تُطرد.

- أعرف. ولن أجفل الآن. فطرزان القردة سيخرج مُنتصرًا.
عندما تراني على وشك أن أضعف وأستسلم، فكّر في أن تذكّرني بهذه الكلمات: «هيّا نوقظ الشّمس!».

ومع ذلك، فقد غمرتني كآبة شديدة. إذ يجب عليّ أن أوقظ شموسًا كثيرة في النّهار وأقمارًا بلا عدد في اللّيل.

انتهت الحصّة. فقادني الأخ لويز دون أن يتلفّظ بأيّ كلمة إلى المهجع. وبدا لي أنّه يخمّن أفكاري بدقّة.

- لا مجال للاستحمام يا زيكا. لم يبق أمامك إلاّ أن تأكل الكثير من «الفاء ميم» (الفاصوليا المعتادة) كما تقول حتّى تتحمّل سجنك. لقد ساءت الأمور هذه المرّة. وستزداد سوءًا بعد أن تشتكيك حبيباتك الرّاهبات اللّواتي أقمن فضيحة حقيقيّة.

لقد آنسني في حزني. ومكث معي وأنا أزدرد طعامي. حدث كلّ ذلك في صمتٍ مُطبق. شربتُ كأس ماء كبيرًا جدًّا. وطلبتُ الذّهاب إلى الحمّام.

- يمكنك الذّهاب. ولكن، خذ حذرك! فبعد هذا، ينتهي كلّ شيء حتّى منتصف اللّيل.

ثمّ ربّت على كتفي كي يشجّعني.

- يا لزيكا المسكين! هذه المرّة، ليس هناك قدّيس ينقذك. وحتّى الأخ فيليسيانو لا يستطيع التّدخّل أو القيام بمعجزاته المعتادة.

مكثتُ طيلة ساعتين مُعاقَبًا في نفس الوضعيّة. ثمّ انطفأت كلّ المصابيح باستثناء اثنين إلى جانبي. نوّم الصّمتُ كلّ الإعداديّة، فيما بقيتُ هناك بمفردي. كانت عيناي ترغبان في الانغماض وجسدي يتمايل ثمّ يعود إلى موضعه الأوّل. تقدّم اللّيل أكثر. ورحتُ أفكّر في صمت موسى. كان بإمكانه أن يدقّ الأجراس فيوقظ كلّ العالم. كان يمكن لغليظي القلوب أولئك أن يدركوا كم هو رائع ألاّ ينام المرء.

كانت ساقاي ترتجفان، فيما السّاعات جامدة لا تتحرّك. وتشوّشت عيناي كليًّا، حين لمحتُ قرب السّبّورة السّوداء موريس، وهو ينظر إليّ مبتسمًا في تعاطف.

- أترى يا موريس؟ لا يمكنني حتّى أن أفتح ذراعيّ فأحضنك وأقبّلك.

- لا مشكلة. ولكن، ماذا فعلوا بك يا صغيري؟

- إنّها أفعال الكبار خاوي القلوب. أقترفُ حماقةً صغيرةً لا قيمة لها. فأُجازى بجبلٍ من العقوبات.

- تشجّع! ستكون بخير. إنّ اللّيلة الأولى هي الأقسى دومًا. وبعد ذلك، تبدأ في التّعوّد شيئًا فشيئًا.

- هل عملتَ كثيرًا؟

- إلى حدّ مّا.

- أتعرف، إذا دام هذا فترةً أطول فسأسقط أرضًا من الإعياء.

- تحمّل العواقب. إذ لا يجدر بالمرء أن يتذمّر ممّا فعلته يداه. تشجّع يا صغيري!

ثمّ نظر في ساعته الجميلة. وأردف:

- أيقظ شمسك. أليس هذا ما تقوله؟ هيّا إذن، أيقظ شمسك! مازال أمامك دقيقتان فحسب.

جاء الأخ فيليسيانو بحثًا عنّي. كان ما يزال صاحيًا، حزينًا وغير قادر على النّوم. وكان ينتظر نهاية عقوبتي.

- تعال يا شوش!

فتحتُ ذراعيّ. وشعرتُ بأنّهما قد التوتا على وشك أن تستعيدا الوضع الأوّل. ابتسمتُ للسّبّورة السّوداء. وقلتُ لموريس هامسا: «ليلة سعيدة».



- خُذ يا شوش!

- ما هذا يا فايول؟

- كأس غوارانا[1] منعش جلبته لك. فَلاَ شكّ أنّك تشعر بالعطش.

كنتُ أرى الكأس بصعوبة بين يديه. وشربته كلّه دفعة واحدة تقريبًا.

- تعال يا شوش. إنّك تحلم... تحلم واقفًا.

- أتعرف يا فايول...

- ماذا يا صغيري؟

- في حياة أخرى، أودّ أن أولد زرًّا، أيّ زرّ حتّى لو كان مثبّتًا في ملبس داخليّ. فذلك أفضل دون شكّ من أن أكون شخصًا آدميًا وأتعذّب ككلّ البائسين إلى ما لا نهاية له.

(1) نبات من منطقة الأمازون البرازيليّة غنيّ بالكافين.

الجزء الثّالث

علجومي الكورورو

(1)
المنزل الجديد، المرآب ودونا سيفروبا

- هل تخلّصتَ من ضغينتك الآن يا زيزا؟
- لا أعرفُ يا آدم.
- لا تكذب عليّ. سأكتشفُ الحقيقة بمفردي.
- أكاد أتخلّص منها. وسأشعر قريبًا بالارتياح.

شعرتُ أنّ آدم قد تنفّس الصّعداء.

- بسست! أنت مجنون. إنّ الحياة في منزل كهذا تجعل المرء يغفر الكثير من الأشياء...

في الحقيقة، كنتُ أهذي من الفرح. فالعطلة ابتدأت للتّو. وقد انتقلتُ مباشرةً من الإقامة في الإعداديّة إلى المنزل الجديد. إنّه منزلٌ كبيرٌ، كبيرٌ جدًّا. لكنّني لم أشهد الانتقال. ولم يُسمح لي بتوديع الدّجاجات البيضاء والحمراء التي بقيت هناك. ولا أعرف حقًّا ما إذا كانت قد بيعت أم أُعطيت لشخص مّا. ولكن ما هو مؤكّد أنّها لم تكن جديرة بالمنزل الجديد.

كانت هناك عند الواجهة مصطبة لا نهاية لها، تمتدّ طويلًا جهةَ اليسار. وكانت الجدران الزّجاجيّة في كلّ مكان. وفي الجهة المقابلة

كاتدرائيّة بيتروبوليس. أمّا في الأسفل، فيمتدّ بحرٌ كبيرٌ جدًّا حتّى إنّ بإمكانه أن يحتوي كلّ محيطات العالم مجتمعة.

ما وراء السّوق توجد حديقة كبيرةٌ جدًّا. إنّها حلم يركضُ فيه المرء طيلة حياته. صارت لديّ غرفة جديدة، ذات سرير واسع وخزانة تلمع وتضوع منها رائحة الخشب الزّكيّة. ولم يكن ينقصني إلاّ أمرٌ واحدٌ فحسب؛ مقعدي القديم أوروزيمبو. ففي مكانه، وُضع كرسيٌّ آخر تزيّنه أغصان حمراء وبيضاء. وكان عليّ أن أجربّ كلّ هذا. وسُرعان ما، رميتُ بنفسي في السّرير. ثمّ قفزتُ إلى الكرسيّ. وكان كلّ شيء مريحًا وناعمًا.

قلتُ لآدم، معترفًا:

- إنّها لسعادة حقًّا ألاّ أعود إلى المنزل القديم.

- ومن يدري، لعلّ أباك قد فكّر بنفس الطّريقة.

تفاجأت بإجابته.

- لا. لا أعتقد ذلك. إنّني أفتقر إلى الأهمّيّة بالنّسبة إليه، مجرّد ولد لا فائدة منه في أيّ شيء. ولا أحد يهتمّ لأمري.

- من يدري؟ إنّ القلب البشريّ مليء بالمفاجآت.

- هذا مستحيل يا آدم. وعلى أيّة حال، فالعيش هنا نعيمٌ خالص.

ورحتُ أستكشف المكان بكلّ تفاصيله، راغبًا في خلق الألفة مع كلّ شيء.

إنّ ما فتنني أكثر هو الجانب الممتدّ من البيت، حيث توجد شجرة مانجو رائعة، مليئة بالأغصان الطّرزانيّة المغرية. وهي أغصان كبيرة جدًّا، حتّى إنّها تغطّي الجدار الفاصل بيننا وبين الجيران. وطبعًا، كان من العاجل والضّروريّ أن أكتشف أولئك الجيران. فالأمر مهمّ جدًّا بالنّسبة إليّ. كان هناك مرآبٌ هائلٌ بين المنزل وشجرة المانجو، التي يبدو عليها أنّها يمكن أن تُسمّى دونا غوستافا. ظللتُ أحدّق في سقفه بإعجابٍ كبير. فهناك يمكنني أن أثبّت أرجوحة.

كان كلّ شيء بمثابةِ حفلةٍ كبيرة. إنّها حفلةٌ كبيرةٌ جدًّا بالنّسبة إلى كلبي الصّغير تولو، الذي تمكّن مع مرور الوقت من تقوية عموده الفقريّ ومن الرّكض مثل أيّ كلب آخر لم يتحطّم جسمه من قبل. لقد ظلّ تولو لصيقًا بي طيلة الوقت، كأنّه يريد أن يستدرك الوقت الذي قضّيته في الإقامة الدّاخليّة. ينام اللّيل كلّه أمام باب غرفتي. وما إن يوشك النّهار على الطّلوع حتّى يشرع في خدش الباب بمخالبه.

وحين لا يكون بصحبتي، يكفي أن أصفّر ليأتي راكضًا وهو يهزّ ذيله بقوّة.

- هيّا لنستكشف المرآب يا تولو!

عدونا معًا باتّجاهه. وكان هو يتخلّل ساقيّ طيلة الوقت.

- أيّ ركن هذا؟! يمكننا أن نُدخل هنا سيّارتين على الأقلّ. لا شكّ أنّ المالك القديم للمنزل ثريّ جدًّا... يا لهذه النّافذة الكبيرة!

فتحتُها. وقفزتُ. ومكثتُ أتأمّل بقيّة الحديقة المسوّرة بالجدران. يا لكلّ هذه الأشجار! يا لأشجار الكاجو! كان هناك المزيد من النّخيل في هذه الجهة. ولم أعرف بأيٍّ منها أبدأ. وجب عليّ أن أنظّم كلّ شيء وأخطّط لما سيأتي. فالعطلة في بدايتها. وأمامي على الأقلّ ثلاثة أشهر لأستغرق في المتعة والبهجة دون حدٍّ أو قيد. كان رمل الحديقة أبيضَ ناعمًا، مثل رمل الشّاطئ. هذه صحرائي إذن. ولكن، هل توجد أشجار الكاجو في الصّحراء يا ترى؟ بدا لي أنّ الإجابة الصّحيحة هي «لا». ولذلك، قلتُ لنفسي إنّ صحرائي مختلفة. وهي من دون كلّ الصّحارى تحتوي على هذه الأشجار العظيمة.

تفحّصتُ المرآب من الدّاخل، حيث الرّفوف الكبيرة المليئة بأشياء قديمة مازالت صالحة إلى حدّ الآن. ومثلما تركنا الدّجاجات في بيتنا القديم، تخلّى ملاّك البيت السّابقون دون شكّ عن هذا العالم الذي تشكّله الأشياء والأدوات. وما أدهشني أكثر من كلّ شيء هو كومة أنابيب الهواء العالية، وإلى جانبها في ركنٍ مّا آلةٌ كبيرة لنفخ إطارات العجلات. هل كانت تعمل يا ترى؟ نفختُ على الغبار الكثيف الذي يُغطّيها، وأوقفتُها فأسندتُها إلى ركبتيّ. ثمّ رفعتُ رأسها فعملت. هل كان ذلك رأسًا أم ذراعا؟ أظنّ أنّ الكلمة الأدقّ هي الذّراع. كانت مشحّمة بشكلٍ جيّدٍ. ضغطتُ فاستجابت لي. وأحدثت صوتًا وهي تنفخ على غبار الأرضيّة. فصحتُ منتصرًا:

– إنّها تعمل يا تولو. والآن، سنأخذ أنبوب هواء ونرى ما إذا

كان سينتفخ.

وضعتُ أنبوب الهواء في مكانه. عدّلتُه. وشغّلتُ ذراعَيْ الآلة. فراح الأنبوب يكبر شيئًا فشيئًا، حتّى صار من العسير عليّ أن أضخّ أكثر.

- يا للتّمرين الرّائع!

جلستُ أرضًا كي أستريح. وأخذتُ أتأمّل في استحسان المضخّة المستندة إلى الجدار.

- ابتداء من اليوم، سأشرع كلّ يوم في نفخ كلّ هذه الأنابيب الهوائيّة القديمة. لا أريد الخروج يوم الأحد، لأنّني سوف أنفخ بلا توقّف ودون هوادة. وبهذا الشّكل، تكبر عضلاتي حتّى تقدح غيرة طرزان.

سألني آدم:

- هل فكّرتَ في اسمٍ للمرآب وآخر لمضخّة الهواء؟

- عليّ أن أفكّر أوّلًا. إنّهما شخصان مهمّان جدًّا. ولا يجدر بي أن ألقّبهما بأوّل اسمين يخطران على بالي.

- بالنّسبة إلى المرآب، لا فكرة لديّ. ولكن، إذا شئت يمكنني أن أعمّد المضخّة.

فاجأني كلامه تمامًا. إذ لم يطلب منّي آدم مثل هذه الأشياء من قبل مُطلقًا.

- حسنًا، هيّا افعل ذلك.

تلفّظ آدم بكلمتيه مرتبكًا بعض الشّيء:

- دونا سيليست.

أووف! آدم... أيّ أعجوبة هذه! فبخلافها هي، لا أحد يحمل هذا الاسم.

أقعى تولو عند قدميّ. وراح يُصغي إلى حديثي مع علجومي. تأمّلتُ المرآب طويلًا. وكنتُ أعلم جيّدًا أنّ عليّ أن أجد له اسمًا جميلًا وفريدًا من نوعه. وفجأةً، لمعت الفكرة في رأسي. حسنًا، لقد وجدتُها!

- هذا المرآب شبيه ببستانيٍّ ضخمٍ ولطيف.

- هذا صحيح زيزا.

- ويبدو أنّ له مئزرًا ذا مربّعات. ولهذا، سيكون اسمه دون إيسيدرو.

- رائع!

وحينئذٍ، هنّأ أحدُنا الآخر.

- أتعرف يا آدم، أعتقد أنّنا أعظم مخترعي أسماء في العالم.

وُزّعت أولى الأطباق على الطّاولة. كنتُ ما أزال مُضربًا عن الكلام مع أبي. لكنّنا بدأنا نتبادل النّظرات من جديد. كان آدم يحثّني بلا هوادة في الدّاخل. ويهتف بي: «هذا يكفي يا زيزا. يكفي...».

حَدَّق إذن في طبق الأرز. ثمّ نظر إليّ. ومن جهتي، التفتُّ إلى الأرز. ونظرتُ إليه. حملتُ الطّبق إذن. ومددتُ يدي نحوه. فمدّ يده كذلك. واستلمه.

هتف آدم مزهوّا: «هذا جيّد يا زيزا... جيّدٌ جدًّا».

كنتُ واعيًا بصعوبة الأمر في البداية. وأدركتُ أنّ هناك أكثر من «إِذَنْ» ستحدث بيني وبينه وتتوالى أطباق الأرز، قبل أن ينتهي كلّ شيء.

وانتهى كلّ شيء على ما يرام حقًّا، حتّى إنّه طرق باب غرفتي يوم الأحد التّالي وأشعل مصباح الإنارة، قائلًا:

- هل تريد أن تحضر قدّاس الصّباح؟

- نعم، أريد ذلك.

- أسرع إذن. فأمامنا ربع ساعة لنكون في الكاتدرائيّة.

استعجلتُ أمري. ونزلتُ. ففتحتُ باب دون إيسيدرو لتخرج أجمل سيّارة في ناتال. كانت المدينةُ غارقةً في الظّلام. فمصابيحها ما تزال مطفأة.

قال لي:

- لستَ مضطرًّا للمشاركة في القربان إذا كنت لا تريد ذلك.

ألقيتُ نظرةً عليه خلسةً. كان يثبّت وجهه إلى الأمام كأنّه لا يلاحظ أيّ شيء.

- لا أستطيع، لأنّني لم أقم بالاعتراف.

- حسنًا.

استمرّ في القيادة صامتًا، بينما اعترف آدم قائلًا:

- أتعرف يا زيزا؟ بدأت أُحبّه حقًّا. وفي الواقع...

- أعرف ما ستقوله. في الواقع، نحن الاثنان غبيّان.

في البداية، بدا كأنّه لن ينجح في الأمر أبدًا. لكن عليه أن يتعلّم.

- انظر يا تولو. لا تخف.

كان الكُلَيْب على الجدار يريد المحاولة. لكنّه ظلّ يرتجف بشدّة. وعملتُ جاهدًا كي أهدّئه:

- لا تخف يا تولو. لن تسقط. أعرف أنّها موهبة القطط. لكن إذا التزمت بالتّمرين، فستتحسّن أنت أيضًا وتتوصّل إلى فعل لذلك.

أطلق تولو لسانه الأحمر الصّغير إلى الخارج. وحدّق بعينين خائفتين في وجهي.

- لا تكن غبيًّا. ألا ترى أنّ هناك ترابًا ناعمًا في الأسفل؟ ولذلك، لن يحدث لك مكروه حتّى إذا سقطت. تعال إلى هنا!

جلستُ على الجدار، تاركًا مسافة متر تفصلني عنه.

- تعال يا صغيري. تعال.

فتحتُ ذراعيّ لأمسك به. لكنّه أَنَّ بصوتٍ باهت. وظلّ في مكانه.

- تعال ببطء. لا حاجة إلى الإسراع. فهو لن يفيدك في تعلّم أيّ شيء. هيّا، خطوة اثنتان... خطوة اثنتان...

أطاعني، وهو يرتعش بشدّة جعلتْني أحترس وأتأهّب للإمساك به إذا ما انزلقت سُوَيْقَاتِه عن الجدار. تقدّم شيئًا فشيئًا. فَمَسَّحْتُ على جسمه.

– أحسنت يا تولو! أنت أشجع كلب في العالم. وعلينا الآن أن نعاود المحاولة من جديد. هيّا!

تراجعتُ مترين إلى الخلف، بينما راقب تولو كلّ شيء.

– هيّا... مثل المرّة الأولى. الهدوء! والتّماسك!

لقد كانت المحاولة الأولى هي الأصعب بالنّسبة إليه. ولكن ما إن وقف على سيقانه الصّغيره حتّى صار متلهّفًا للاقتراب منّي.

– سأبتعد بعض الشّيء.

ابتعدتُ عنه مسافةَ أمتارٍ ثلاثة.

– هيّا. واحدة، اثنتان... واحدة اثنتان.

تحسّن أداؤه هذه المرّة. وفي غضون ساعتين، صار الكلب الصّغير يتبعني بسهولة. أمشي واقفًا أمامه. وألتفتُ إلى الوراء. فأجده مقتفيًا أثري.

جاءت دادادا دون أن تحدث ضجّة. وظلّت تراقب درسي.

– لم أر من قبل شيئًا كهذا. ياه! كلب يمشي على جدار!

انفجرتُ ضاحكًا. ثمّ قفزتُ على الأرض. وحملتُ تولو بين ذراعيّ.

– ارتح الآن قليلًا. وسنستأنف التّمرين لاحقًا.

وراح يهرول في الحديقة هانئًا ليسقي نبتة الماراكويا[1] الملتفّة حول شجرة الكاجو.

- قريبًا جدًّا، سيصير قادرًا على الرّكض على الجدار بسهولة. لقد كدتُ أفقد عزمي في البداية، لأنّه كان يرتجف بشكل مبالغٍ فيه. وقد كنت أظنّ أنّه لن يستطيع التوازن أبدًا بعد أن كُسِرَ عموده الفقريّ.

كانت دادادا تتأمّلني مبتسمة.

- إنّك حقًّا مجنون. ولا غرابة في أن تفكّر في وضعِ كلبٍ صغيرٍ على الجدار كأنّه قطّة.

جلستُ على كومة من القرميد. وسألتها:

- قولي لي يا دادادا؛ من هم جيراننا شمالًا؟

- ليس هناك سوى رجل وزوجته. يقال إنّ لديهما ابنة تدرس في ريو، وإنّها ستعود في العطلة القادمة.

- وهذه المرأة التي تسكن في الجهة الأخرى؟

- آه! هذه هي السّيّدة الإنجليزيّة. إنّها متينة مثل باب سجن. اسمها دونا سيفروبا.

- ماذا؟

- اسمٌ معقّد جدًّا. وخادمتها لا تجيد نطقه. فتكتفي بسيفروبا.

---

(1) تسمّى كذلك نبتة زهرة الآلام. وهي نبتة متسلّقة. يعود موطنها الأصليّ إلى البرازيل، الباراغواي وشمال الأرجنتين.

- هذا ليس اسم إنسان. ومع ذلك، فهو طريف.

حذّرتني دادادا:

- لا تتوغّل في جهتها تلك. إنّها لا تسمح لأحد بأن يلمس حبّةَ ثمارٍ في حديقتها، حتّى أولئك الذين يعيشون معها. إنّها أبخل من الشّيطان.

ابتسمتُ في مكرٍ. وسألتها:

- هل تحبّين ثمار الجوّافة يا دادادا؟ تلك الحمراء بلون الدّم؟

- أفضّلها أكثر من أيِّ شيءٍ آخر.

- انتظريني إذن.

رفعتُ بعض القراميد. وكشفتُ لها عددًا من ثمار الجوافة.

- هيّا تذوّقي! إنّها منتقاة بعناية.

- أين عثرت عليها؟ ليس هناك جوافة في الحديقة.

- عند دونا سيفروبا.

- هل أعطتها لك؟

قالت ذلك، وهي تفتح عينيها على وسعهما من الدّهشة.

- لم تعطني أيّ شيء. انظري. لها ثقوبٌ صغيرة جدًّا،

تفحّصتها دادادا في اشمئزاز. وقالت:

- هل هي ثقوب حشرات؟

- لا. إنّها ثقوب أحدثتها المسامير.

ازدادت حيرتها أكثر من قبل. فشرحتُ لها:

- لقد وجدتُ قضيبًا قرب البئر. فغرزتُ مسمارًا في آخِره. وبعد ذلك، صعدتُ على الجدار. وأخذتُ أقتنص الثّمار كلّما لاحظت ألاّ أحد في الجوار. وبعد أن تسقط حبّات الجوافة على الأرض، ألتقطها بواسطة المسمار دون أيّ صعوبة تذكر، حتّى إنّني لم أفلت أيّ واحدة منها.

علّقت إيزورا بفم مملوء:

- ألم أقل للتّوّ إنّك مجنون؟

- يمكنكِ كلّما رغبتِ في تناول الجوافة أن تطلبي منّي ذلك أو أن تأتي لتتثبّتي هنا في مخبئي. ولكن، لا تنسي! الأمر سرّ بيننا!

كانت تلك وصيّة لا فائدة منها. ابتعدت دادادا، وهي تتلمّظ، بينما ناديتُ تولو لأكمل الدّرس.

- هيّا، تعلّم بسرعةٍ أيّها الأبله! سوف تصبح كلبًا عالمًا مثل كلاب السيرك.

أوه! السيرك، السيرك، السيرك! إنّه يسحرني تمامًا. وقد قمتُ بتثبيت أرجوحة البهلوان في المخزن. قمت بعد ذلك ببسط مهاراتي أمام تولو الذي ظلّ يراقبني طيلة الوقت. أعتقد أنّه منذ أن أصبحَ لاعبَ توازنٍ، صار يطمحُ إلى أن يصير بهلوانًا.

كنتُ أصعد على طاولة. وأنطلق في الهواء، تاركًا رأسي يتراخى إلى الأسفل. أظلّ أتدلّى من طرَفَيْ قَدَمَيَّ، وأنا أتمسّك بواسطة ركبتيّ. ثمّ أحرّرهما. وأتدارك نفسي، لأنتهي واقفًا من جديد.

عندما فعلتُ ذلك أوّلَ مرّةٍ شعرتُ برعبٍ لا مثيل له. كنتُ أحدّق في البلاط اللاّمع، وأرتجف بشدّة. فلو أخفقتُ في الأمر لحطّمتُ رأسي. ولكن، وجب عليّ أن أحاول. بما أنّ بهلوانيّي السّيرك كلّهم يفعلون ذلك، فلم لا أنجح مثلهم؟ ثمّ إنّ الأمر أصبح طفوليًّا وممتعًا بعد ذلك، باستثناء شيء من الألم النّاتج عن تهرّؤ يديّ من الحبال.

كنتُ أحلم بأرجوحة البهلوانيّين. أصعد على الطّاولة، مرتديًا زيًّا يلتصق بالجسد. فأحيّي الجمهور. وأسمع مروّض الأسود في الأسفل، يتكلّم في مكبّر الصّوت مُعلنًا ابتداء عرضي:

- والآن آنساتي سادتي، يقدّم لكم كالدو، وهو أقوى رجل في العالم، عرضه الخطير.

أقفز في الهواء. فأرى سقف السيرك، وهو يدنو منّي. ويدوّي التّصفيق حينئذٍ. أنزل من موقع المراقبة. فأجد تولو، جالسًا في رصانة. وقد كان يتفرّج في كلّ تفصيل بانتباهٍ شديد. ثمّ يمضي لاعقًا العرق عن جبيني، بينما أمسّح على فروه.

- يؤسفني أنّك لا تستطيع أن تفعل ذلك أيضًا يا تولو. ولكنّ الأمر صعب جدًّا حتّى بالنّسبة إليّ. فما بالك إذن بكلبٍ صغير قصَمت ظهره سيّارة. هل تعي ما أقول؟ ولكن، حين تتمرّن بجدّيّةٍ أكبر ستستطيع أن تنهي جولةً كاملة على جدار الحديقة. إنّ المشي على الأرض أمرٌ جيّد بالنّسبة إلى النّاس ، ولكن ليس الفنّانين.

عندما أنهيتُ سمعتُ احتجاجات آدم:

- لقد انقلبت معدتي من الخوف.

- إنّك تُبالغ يا آدم.

- يمكنك أن تلاحظ بوضوح أنّك لستَ أنت من يُقيم هنا، في قلبك. وعندما تقوم بهذه الحركات البهلوانيّة، أختنق تمامًا. ستقتلني ذات يومٍ، دون أن تنتبه إلى ذلك.

- أووف يا آدم! ألستَ أنت من طلب منّي أن أتحلّى بالشّجاعة؟ ها إنّك صرت الجبان إذن!

- لقد قلتُ ذلك دون شكّ. ولكن، يجدر بك ألاّ تبالغ أيضًا.

أحزنني الأمر كثيرًا. ففتحتُ قميصي كي أتيح للهواء أن ينفذ إلى جسدي ويريح آدم قليلًا.

إذَا ما أضربتُ ذاتَ يومٍ عن الرّحيل إلى الغابة، أو عن الفوز بكلّ بطولات العالم في السّباحة مثل جوني فايسمولّر، ولم أعد أرغب في أن أصبح مثل كالدو، أعظمِ بهلوانيّ في العالم، يُمكنني حينئذٍ أن أعتنقَ مهنةً أُخرى. إنّها التّجسّس. وكم أعشقها! مازالت دونا سيفروبا إلى حدّ الآن ضحيّتي الدّائمة. أعرف جيّدًا كلّ خطواتها ومواقيتها، ابتداءً من السّاعة التي تعبر فيها الحديقة لتسقي الأزهار وصولًا إلى موعد قدومها كي تحصي الثّمار النّاضجة.

أتسلّق غصنًا كثيفًا من أغصان دونا غوستافا. وأمكث هناك دون حركة. فتقطّب دونا سيفروبا حاجبيها، وتتأمّل بعينيها الزّرقاوين في وجهها المجعّد مثل خريطة، أنهارَ شجرِ البابايا وهو يكبر على نحو عجيب. كان عليها أن تحصي على أصابعها الأيّام المتبقّية لتنضج هذه

الثّمار. وكذلك كنتُ أفعل أيضًا. كانت تبدو سعيدةً جدًّا، يتبعها دومًا كلبٌ بوليسيّ، وهي تتبختر في أثوابها المصفرّة، محتفظةً من حين إلى آخر بكعكةِ شعرٍ صفراء تميل إلى الحمرة. يقال إنّ الكلب شرسٌ جدًّا. واستنادًا إلى طريقة نباحه في اللّيل، يمكنني أن أؤكّد ذلك. لكنّني كنتُ أحبّه. ولو كان كلبي أنا لسمّيتُه رين-تين-تين بدلًا من ليون[1]. كم من مرّة اكتشف أمري، وأنا ألتصق بالجدار مختفيًا. فأناديه، وأقدّم له قطعةَ خبزٍ أو مرطّبات، حتّى إنّنا صرنا أصدقاء في النّهاية.

مرّت ثلاثة أيّام على هذا النّحو؛ أمكث بين أغصان دونا غوستافا، بينما يتعقّب ليون خطوات دونا سيفروبا. وتثبّت دونا سيفروبا في المقابل عينيها في شجرة البابايا التي أخذ ظهرها الأخضر يصفرّ شيئًا فشيئًا.

«إنّه يوم القطاف».

لكنّ شيئًا لم يحدث. ولذلك انتظرت اليوم التّالي بلهفةٍ ونفادِ صبرٍ.

«لن يمرّ هذا اليوم دون أن تجمع ثمارها».

ومرّةً أخرى، لم يحدث أيّ شيء.

«إذا ما انتظرت إلى الغد فستندم دون شكّ».

حدّقت دونا سيفروبا في الثّمرة. وتردّدت بعض الشّيء. فكّرت قليلًا. ثمّ قرّرت أن تنتظر يومًا آخر. ولم تكن المسكينة تعرف أنّ عينَيْ قرصانٍ تُراقبان كلّ حركاتها من بعيد.

---

(1) الكلمة فرنسيّة. ومعناها الحرفيّ الأسد.

بعد العشاء، رفضتُ الذّهاب في جولةٍ حول الفناء. وهي جولة نادرًا ما تقدم عليها العائلة. ولذلك قلت لهم إنّني أرغب في القراءة قليلًا. ومن ثمّ سأذهب للنّوم.

أغلقت باب غرفتي عليّ. ووضعت أذني خلفه مُصغيًا لأحاديثهم. سيرجعون متأخّرين إذن. وعند عودتهم، سيحتاجون إلى وقتٍ طويلٍ حتّى يناموا. أحصيتُ الأبواب التي تنفتح وتنغلق. ثمّ انطفأت الأضواء في الغرف. ولم يبق أمامي سوى سماع أزيز باب دادادا المجاور للمرآب. وقد تأخّر ذلك حقًّا. لا شكّ أنّها استغرقت في الحديث مع خادمة دونا سيفروبا. يا ربّ! ستبدأ جولتي في الغابة مع السّاعة الحادية عشرة ليلًا! وتركتُ لنفسي أن أتداعى على سريري دون أن أخشى الوقوع في النّوم. فذلك لن يحدث اليوم دون شكّ. كان عليّ أن أتصرّف لأنّها اللّيلة الأخيرة التي تقضّيها الثّمار في الشّجرة، على أيّة حال. وفي النّهاية، نام الجميع.

بحثتُ في الدّرج عن مئزري الجميل، الأبيض والصّغير. فربطته جيّدًا. كانت قطعة القماش تحجبُ مقدّمة جسدي فحسب، فيما ظلّ الجزء الخلفيّ مكشوفًا للهواء. فعلتُ كلّ شيء دون أن أُشعل أيَّ مصباح. فقد اعتادت عيناي الظّلمة.

- والسّكّين؟

فتّشتُ منضدة السّرير. فعثرتُ عليها داخله. وضعتُها تحت حزامي. وتأكّدتُ من ثباتها هناك.

- والآن يا زيزا. احبس أنفاسك. وافتح النّافذة دون أن تُحدث أيَّ صوت.

كنتُ قد انطلقتُ في مهمّتي عندما تذكّرتُ شيئًا مّا فجأةً. فعدتُ إلى باب الغرفة. وفتحته قليلًا. ومسّحتُ على تولو الذي كان نائمًا على سُجّادٍ صغير:

- إيّاك أن تُحدث أيّ جلبة! إنّني ذاهب إلى الخارج.

وربّتُّ عليه مرّةً أخرى. فحرّك ذيله في غفوته تلك. لقد كان خلال النّهار مستعدًّا للقيام بأيّ شيء. لكنّ اللّيل أمرٌ آخر...

أتممت هذا الاحتياط. فعدت إلى النّافذة التي لم تحدث عند فتحها أيّ صوت، بما أنّ مفاصلها مشحّمة بشكلٍ جيّد.

انزلقتُ إلى الفناء، حيث كان اللّيل خلوًا من الرّيح، رائقًا لطيفًا، لا وجه فيه للخطر. ورفعتُ رأسي أتأمّل السّماء التي صارت شجرة مانجو هائلة، تمتلئ أغصانها بنجوم متلألئة.

زحفتُ حتّى المرآب، حيث تنام الأرجوحة نومًا عميقًا. حبستُ أنفاسي مُجدّدًا. وأوصيتُ آدم بألاّ يشعر بالخوف.

تسلّقتُ بحثًا عن غصن دونا غوستافا الذي يجاوز الجدار. أصختُ السّمع. فكان كلّ شيء غارقًا في سكونٍ تامّ. كان بإمكان ليون أن يتشمّمني ويقترب من الجدار. ولكنّ ذلك لم يحدث. وحده صمتُ اللّيل النّائم خيّم في المكان. نزلتُ من الجدار. فجلستُ. وتركتُ لنفسي أن أتوغّل في الحديقة المجاورة، حيث تفصلني عن شجرة البيايا ثانية فحسب. كم هُو سيّء تسلّق تلك الشّجرة. إنّها

أسوأ حتّى من النّخلة. ويجدر بالمرء عند تسلّقها أن يحذر من نسغها الذي يلهب أيّ خدش. لحسن حظّي أنّ الأمر تمّ بسلام. ولويتُ غصن الشّجرة بعناية. لقد كانت أكبر ممّا اعتقدت. كان عليّ أن أظلّ متشبّثًا بها. في حال وقعت أرضًا، ستحدث ضجّة لا مثيل لها. حرّرتها بانتباه. ونزلتُ بصعوبة، متشبّثًا بقدميّ قدر استطاعتي. إذ لم أعد أملك سوى يدٍ واحدة طليقة.

ما إن وجدت نفسي على الأرض مُجَدّدًا، حتّى انطلق قلبي يخفق بشدّة، لا من الخوف بل من البهجة. لم يعد أمامي سوى أن أضع الثّمار متوازنةً على الجدار، أرفع جسدي وأقفز إلى بيتنا. ضغطتُ على الثّمار إزاء صدري. وتبعت الجدار حتّى وصلتُ إلى المرآب. كنتُ عند جدار الحديقة الكبيرة، أبحث عن الرّكن الأكثر كثافة. رميت البابايا على الرّمل النّاعم. ثمّ تمسّكت بغصن. وقفزتُ.

سيكون قنّ الدّجاج القديم المليء بحقائب غير صالحة للاستعمال وأشياء أخرى لا يستخدمها أحد مخبأ كنزي الجديد. إنّه كهف اليد الحديديّة، الأبعد والأكثر خطرًا. فمثلًا، كان كهف وينيتو في مستودع القراميد القديمة. ولو خبّأت الكنز هناك لجازفتُ بأن ينكشف أمري. ولذلك، من الأفضل أن أشقّ كلّ هذه الغابة والصّحراء وأظلّ في مأمن في المقابل.

جلستُ على إحدى الحقائب. وسحبتُ سكّيني من الحزام. وابتسمتُ. لقد انتشلتها من المكان الذي وضع فيه أبي مكتبته الطّبّيّة. إنّها سكّين جديدة تفخر بكونها قد هجرت مهنتها القديمة

في تمزيق الكتب. وعندما انتبه أبي إلى غيابها أوشك أن يُفرغ المنزل كلّه.

- لا شكّ أنّنا فقدناها أثناء الانتقال.

ثمّ توقّف عن البحث. وصارت هذه السّكّين ملكًا لي. هي ليست مسنّنة بشكل جيّد في الحقيقة. لكنّها كافية لقطع الثّمار.

عندما انتهيت من عملي، أخفيت البابايا في حقيبة. وغطّيتُها بسعفِ نخيلٍ قديم. لقد كانت تشكّل كومة كبيرة. وقبل أن أذهب طمأنتُها قائلًا:

- لا تخافي. ستستمرّين في النّضج مع حرارة النّهار. وسآتي كلّ يوم لآكل نصيبًا منك. أمّا الآن، فأقول لك؛ إلى اللّقاء!

رجعتُ في نفس المسلك الذي بدا لي أقصر من قبل. وشعرتُ بأنّني أتممتُ مهمّتي بنجاحٍ عظيمٍ. تأمّلتُ غرفتي وسريري المفعم بالسّلام. خدش تولو الباب بلطف ليقول لي إنّه منتبه إلى عودتي. مكثتُ عاريًا لوهلة حتّى أنتعش قليلًا. وكنتُ في الحقيقة محتاجًا إلى الذّهاب إلى الحمّام حتّى أغسل قدميّ. ولكن، هيهات! لا أريد أن أخلّف أيّ أثر يدلّ عليّ، أو أوقظ أيّ شكوك.

في اليوم التّالي وعند موعد تجسّسي، كنتُ رابضًا في مخبئي. ويا يسوعي الصّغير ذا الحمل على الكتفين! كانت دونا سيفروبا شبيهة بجوبيتر، إله الرّعد وكتلة من الحنق. ظلّت تطلق صرخات عالية وتنادي على خدمها، فتشير إلى الشّجرة الخاوية. كم كنتُ أرغب في الضّحك. لقد أحسنت عملًا حين أسرفتُ في الانتظار. وكما

يقول الأخ أمبروزيو: «بين الملعقة والفم، ضاع الحساء». إنّ ثمارها الجميلة تلك ملكي الآن. وستكون اللّيلة متعة خالصة.

في اللّيل، ارتديتُ زيّ طرزان. وأخذتُ ألتهم ثمار البابايا الحلوة كالعسل. ثمّ تركتُ شطرًا وافرًا منها لليال قادمة. همَمتُ بإلقاء القشور عندما سمعتُ صوتًا ناصحًا يقول لي:

- لو كنتُ مكانك، لاحتفظتُ بها.

- لماذا؟

- احتفظ بها. وسترى.

إنّها فكرةٌ طريفة. عزمتُ على الاحتفاظ بها. لكنّ آدم تدخّل فجأةً:

- ارمها يا زيزا! إنّها لا تصلح لشيء.

- وقد تكون مفيدة. من يدري؟

جمعتُ القشور. ووضعتُها كذلك في الحقيبة.

وخلال اليومين التّاليين، ظلّت دونا سيفروبا تحوم حول الشّجرة كأنّها تبحث عن دليل إدانة أو خيط يقودها إليه. لقد كانت متيقّنة من أنّ الثّمار حملت بين يدين مجرمتين. وخلال اللّيلتين التّاليتين، كنتُ أذهب لأستمتع بثمار البابايا.

- إنّك ألذّ وأروع بابايا أكلتها في حياتي كلّها.

كانت القشور تتقلقل في يديّ.

- والآن، عليّ أن أحسم أمري. ماذا أفعل بها؟

وعلى الفور، أجاب آدم:

- ارمها يا زيزا!

لكنّني لم أطعه. فقد ألحّ عليّ الصّوت مُجدّدًا:

- ضعها مع الأخرى!

وكذلك فعلت.

- والآن؟

- والآن، هل تريد أن تموت بهجةً وسرورًا؟ احمل إذن هذه القشور إلى هناك. وضعها بعناية تحت شجرة البابايا. وغَدًا ترى الكارثة بعينك.

أيّ فكرة عظيمة هذه! كان آدم ليحتجّ على الأرجح. لكنّه لم يكن ليغيّر رأيي ولو أتى بالمستحيل.

تسلّقتُ دونا غوستافا[1]، وأنا أحمل كومة القشور في يدي. وهذه المرّة، كانت هناك ريح ليليّة خفيفة. قفزتُ فوق الجدار. وتسلّلتُ إلى حديقة الجارة. ركعتُ. وبنيتُ هرَمًا مرتّبًا وجميلًا من القشور.

وفجأةً، انتابني خوف شديد حتّى إنّ شعر رأسي انتصب واقفًا. لقد تشمّم ليون رائحتي عبر النّسيم. واقترب منّي بفروٍ شائك.

- يا قدّيسي فرانسيس الأسيزي! النّجدة! نوتردام دو لورد،

---

(1) دونا غوستافا: كُنية أطلقها زيزا على الشجرة في إطار لعبة التسمية التي يمارسها على الأشياء والعناصر ومن ذلك تسميتُه الجرسَ «موسى».

احرسيني أرجوك! أعدك بأن أتلو من أجلك ثلاث مسابيح إذا لم ينبح الكلب. يا أرواح المطهر العزيزة! سأصلّي من أجلك إذا شئت. ولكن ساعديني كي يتعرّف عليّ.

كان ليون جامدًا في مكانه، كأنّه يتأهّب لينقضّ عليّ. وكنتُ تائهًا تمامًا. لقد حذّرني آدم سلفًا. لِمَ كلّ هذه التّعقيدات؟ سرقتُ البابايا. وأكلتُها. فلِمَ أطيح بنفسي هكذا؟ حسنًا، يبدو أنّ الصّوت الذي وسوس لي هو صوت الشّيطان.

كان قلبي يخفق بشدّة، حتّى إنّي كنت لأتفهّم غثيان آدم هذه المرّة.

غرق جسدي في العرق البارد.

- نوتردام دو لوردا! أرجوك، أتوسّل إليك! احرسيني. يا قدّيسي فرانسيس الأسيزي!

حاولتُ أن أنهض. لكنّ ساقيّ تجمّدتا في مكانهما. وارتجفت ركبتاي بشدّة.

توصّلتُ إلى إسناد ظهري إلى الجدار، بينما علّقتُ نظري في جسم الكلب البوليسيّ الضّخم الذي بدأ فروه يتراخى.

- ليون! يا كلبي الجميل! توتوتو!...

كان صوتي واهنا، كأنّه صوت صرصار عجوز محال على التّقاعد.

- إنّه أنا يا ليون. أنا... ألم تلاحظ ذلك؟ غدًا، آتي لك بقطعة مرطّبات. تعال إلى هنا يا صغيري ليون... تعال. هيّا

تعال...

حرّك ذيله إذن، وقد تعرّف عليّ. ثمّ اقترب منّي. ولعق يديّ، بينما مسّحتُ عليه في حذرٍ وتوجّس، لأنّه إذا غيّر رأيه وانقضّ عليّ ستكون الفضيحة الكبرى؛ ابن الطّبيب يسرق البابايا شبهَ عارٍ.

توصّلت إلى الهدوء أخيرًا. لقد ساعدني قدّيساي الحاميان. ولذلك أقسمتُ ألاّ أسرق بعد الآن. كما أنّ الكلب قد فهم حكاية المرطّبات دون شكّ.

استجمعتُ كلّ شجاعتي. ومسّحت على ظهره كلّه. فحرّك ذيله سعيدا. ودون أن أبدي نيّتي اتّجهت نحو الجدار، والكلب يتبعني كعادته.

- والآن يا ليون، سأتسلّق الجدار. وما إن تتاح لي الفرصة حتّى أحضر لك ما وعدتك به. اتّفقنا؟!

تسلّقتُ الجدار بسرعة. فقفز ليون محاولًا أن يمسكني. لكنّني أحسستُ أنّه لم يرد إيذائي، وإنّما كان يلاعبني فحسب.

جلستُ على طاولة المخزن، وروحي مقطّعة مزقًا مبعثرة. وجدتُ صعوبةً في التّوازن من جديد. لم يقلْ آدم أيّ شيء. فلا شكّ أنّه شعر بالخوف أكثر منّي. إنّني متيقّن أنّ الشّيطانة المدعوّة دونا سيفروبا قد أطلقت الكلب عمدًا.

- سأسدّد ثمن الثّمار التي أكلتها صلواتٍ وتسبيحًا. لا يهمّ. سوف أذهب يوم السّبت كذلك للاعتراف وطلب التّخفيف في كفّارتي.

عندما شعرتُ بهدوء أكبر، ذهبتُ إلى نافذتي. وقفزتُ إلى غرفتي. فلمحتُ جسدًا ممدّدًا على فراشي. لا شكّ أنّه أبي. لكنّ المصباح أضيء فجأةً. ووجدتُ موريس مُستلقيًا في سريري.

شرع يضحك من الزّيّ الذي أرتديه، بينما كنتُ أرتجف من رأسي حتّى قدميّ وسكّيني مثبّتة في حزامي.

- أيّ زيٍّ هذا يا صغيري!

انهمرت الدّموع سيولًا من عينيّ. وارتميتُ بين ذراعيه وسِخًا وغارقًا في عرقي. إنّ تَجربتي الرُّعب اللّتين مررتُ بهما للتّوّ هما شيء مبالغ فيه بالنّسبة إلى طرزان واحد.

- حدّثني عن كلّ شيء.

ولكنّه غيّر رأيه على الفور:

- اسمع، اذهب أوّلًا إلى الحمّام. اغسل قدميك. واشرب كأس ماء محلّى بالسّكّر.

استجبتُ لطلبه، دون أن أُحدث جلبةً كي لا أوقظ أحدًا. ثمّ رويتُ له كلّ شيء بسرعة.

استغرق موريس في الضّحك طويلًا.

- انتبه يا موريس! ستوقظ أحدًا من نومه.

- لا تخف. ولكن، أيّ مغامرة هذه يا صغيري!

كان يضحك دون توقّف، فيما لم أجد الأمر مضحكًا بتاتًا. وعندما استعاد جدّيّته تأمّلني ليتفحّص ردّ فعلي:

- وغدا، هل ستتجسّس على النّتيجة؟

- ليحفظني اللهّ من ذلك!

مسّح موريس على شعري.

- أيّ رأس طريفٍ هذا الذي تملكه!...

صرّحت أمّي عند الفطور، قائلة:

- هذه الجارة مجنونة.

- أيّهما؟ جارة اليمين أم الشّمال؟

- اليمين. فالأخرى تبدو مثل عصفور. ومن حين إلى آخر، تمرّر رأسها عبر النّافذة. إنّني أتحدّث عن العجوز الأجنبيّة. لقد شرعنا من قبل في تبادل نظرات من اللّطف والوداعة. أمّا اليوم، فعندما رأتني... أتعرفون ماذا فعلت؟

وحدّقت فينا جميعًا قبل أن تكمل:

- لقد عضّت على شفتيها، كأنّها غاضبة من شيء مّا، وأدارت لي ظهرها...

(2)
غابة مانويل ماتشادو

صفّرتُ. فأقبل تولو راكضًا، وقد خمّن شيئًا مّا.

- سنقوم بنُزهة، ففِي مثل هذه السّاعة يُمثّل الذَّهاب إلى حدود الميدان من جهة مُستشفى جوفينو باريتو أعجوبةً لا مثيل لها.

وعلى الفور، ركض لينتظرني عند البوّابة.

عبرنا مسلك التراموايّ. وأخذنا نمشي على مهل. وكان المساء يهبط ناعمًا جدًّا، حاملًا معه النّسيم البحريّ، الذي ظلّ يصفع وجهي ويطيّر خصلات شعري الفاتح.

استطعنا أن نلمح في وسط البحر قُدوم الزّوارق الشّراعيّة، ثُمّ شاهدنَا الأشرعة التي تُلفّ وتُلقى على الرّمل الأبيض والنّاس الذين يقتربون منها ليَشتروا الأسماك الطّازجة.

على الشّعاب السّوداء، ينتهز الصّيّادون فُرصة الجزر للصّيد بواسطة الصّنّارات. وهناك في البعيد، حيث يطلُّ حصن المجوس الثّلاثة، تلوح سُجون الأبطال الوطنيّين. يا للمساكين! لقد كانُوا شبه مَقبورين هناك. وعندما يرتفع المدّ، تغمرهم المياه حتّى الأعناق. هذا ما يُروى. ولا شكّ أنّه صحيح. فالتّاريخ لا يكذب في النّهاية.

جلستُ على الدرابزين، بينما وقف تولو مُستندًا إلى قائمتيه الخلفيّتين. فابتسمتُ لذلك.

- إنّك مهووس يا تولو. لا يُمكنك أن ترى جدارًا دون أن ترغب في صُعوده. ألم أقل لك إنّك سوف تصير أعظم «مُتسلّق جدران» في العالم؟

وراء المستشفى، يُوجد المكان الأجمل في المنطقة كُلّها. فخلف أطراف الكثبان الرّمليّة المهجورة يلوح حيّ الصُّخور. وهُناك يُوجد «ركن المانجو»[1]، حيث يرجع الصّيّادون في مثل هذه السّاعة بأسماكهم ومراكبهم ذات الأشرعة التي تصير أكبر من قبل عندمَا تُنزّل ببطء لتَنام ليلتها. كانت عيناي تُحدّقان في الأُفق أمامي. وتَشرعان في النُّزول على امتداد سكّة التراماواي الصّفراء في بيتروبوليس. ولكنّ ما يشدّني حينئذٍ ليس التراماواي وإنّما الغابة الكبيرة الخضراء، غابة ماتشادو الكثيفة. إنّها غابة تُناسب تمامًا ذائقة طرازن القردة.

وفجأةً، قال الصّوتُ مُقترحًا:

- يُمكنك أن تذهب في جولةٍ قصيرة هُناك.

- لقد تأخّر الوقت.

- ولكنّ اللّيل مازال بعيدًا.

وإذ شعر آدم بالقلق، حوّل انتباهي إلى أمرٍ آخر:

- أترى يا زيزا كم أصبحتَ مُهمًّا؟

---

(1) «ركن المانجو»: اسم تُكنّى به المنطقة.

- كيف؟

- الجميع مُهتمّ بك أنت.

كان آدم يُلمّح إلى زيارتي للأخ فيليسيانو الذي عاد للتّو من مدينة رسيفي ليُقضّي عُطلته الشّاطئيّة. لقد احمرَّ تمامًا وتقشّرت بشرة وجهه. بعد أن تعانقنا، ارتسمت على جبيني تجاعيد أوحت له باهتمامي، فقال لي:

- شوش! شوش!

ووجّه نحوي إصبعًا محذّرًا.

- أتعرفُ في أيّ موضوع أُريد التحدّث إليك؟

- إنّني أحدس ذلك.

كان فايول على علم بشغفي الجديد؛ السّيرك. لقد أضربتُ حتّى عن الذّهاب إلى السّينما. لم أعد أحبّ ذلك حقًّا. ولم تعد أحلامي تنفصل عن خيام السيرك وأعمدتها الهائلة. من المُؤسف أنّ كُلّ عرضٍ لا يتجاوز ساعتين. إنّ رجلًا مثل دينو، البهلوانيّ ذي الدّرّاجة النّاريّة الصّغيرة، يرسل القشعريرة في جسدي كلّه. يا لأولئك الإخوة البهلوانيّين الهوائيّين الذين لم أشكّ في كونهم إخوة! يا لأجسادهم المكسوّة بأزياء لامعة! يا لرقصهم في الهواء، وأيّ سحر يمتلكه ذلك الرّجل الذي يهيمن على شراسة الأسد المنهك والمتعوّد على التّظاهر بالهيجان! آه، وما أجمل تلك الشّابّة التي تعبر الحلبة حاملةً مظلّة، وهي تخطو خطوات متوتّرة في رقصة متأرجحة! تلك التي تذهب وتجيء على الحبل... وكنتُ أحلم

أن أتمدّد أنا أيضًا في إحدى تلك المقطورات، وأسافر على مهل في طرقات العالم... سيرك ستيفانوفيتش، سيرك أولياشا وغيرهما كثير. أمّا أنا، فيُمكنني أن أثبت أنّ بإمكاني أيضًا أن أكون بهلوانيًّا هوائيًّا. وسوف أعرض مواهبي الصّغيرة على الجميع. وإذا كنتُ أعرض البراعات في فضائي الضّيّق هذا، فكيف يكون الأمر إذَن في مكانٍ شاسعٍ ضخمٍ حيث يُمكنني أن أكبر وأتعلّم وأتطوّر؟

أعادني فايول إلى الواقع، قائلًا:

– هذا يثبت أنّك تعني له شيئًا مّا... وإلاّ لما جاء ليطلب منّي التّحدّث إليك.

– هذا مؤكّد. ولكن لا أستطيع أن أكون أيّ شيء في حياة من أحبّ.

– لماذا تقول هذا يا شوش؟

– لأنّني حدّثته مرّة عن شغفي بعلم الفلك وعن كلّ ما ندرسه في الإعداديّة، وعبّرتُ له عن رغبتي في دراسة ذلك. أتعرف ماذا سمعت منه؟ لقد قال: «أضرب عن هذه الفكرة. إنّ علم الفلك حكر على الأغنياء. وعليك أن تستعدّ لشيء عمليّ بشكل أكبر حتّى تبدأ سريعًا في مساعدة عائلتك». والآن السّيرك...

– ولكن، هل تحبّ حقًّا أن تصير بهلوانيًّا؟

– يا لشغفي بذلك! انظر إلى يديّ.

كشفتُ له كفّيّ المهترئتين من فرط التّمرّن على الحبال.

- لقد بدأتا في التصلّب إلى حدّ مّا.

صفعهما برفق. وابتسم.

- إنّه حماس سيأفل سريعًا يا شوش. لا مستقبل لديك في هذا الطّريق. تحدّث إلى هؤلاء النّاس. وسترى أنّك ستأمل الابتعاد عن مهنتهم، من أجل الحصول على منزل وحياة أكثر هدوءًا. ما رأي موريس في هذا؟

- يقول إنّني مجنون، وإنّه لن يكلّمني بعد الآن إذا ما واصلتُ التّفكير في مثل هذه الحماقة.

- وآدم؟

- آدم؟! الأمر أسوأ معه. فقد اعتاد المرض بسبب تأرجحي في شجرة المانغو، ويمكنك أن تقدّر حاله عندما أقوم بقفزة الموت، أو حين أقفز من أرجوحة مُعلّقة في الهواء إلى أخرى، وأنا أكاد ألمس رأس الخيمة. ذلك الأحمق! لقد هدّدني هُو أيضًا بالرّحيل إلى الأبد.

- إذَن يا شوش، إنّ كلّ أصدقائك المقرّبين، وأنا كذلك، نرفض هذه الفكرة ونمقتها. هل لاحظت أنّني لا أُؤيّدها بدَوري؟

- كيف يُمكنني أن أعرف، ونحن نتحدّث في الأمر لأوّل مرّة؟ لقد ذهبتَ إلى رسيفي. ولم أجد الفرصة لأحدّثك عن اكتشافي هذا.

- هل ستُضرب عنه؟

- ما العمل؟ لا تُوجد طريقةٌ للالتحاق بهم.
- إنّني سعيدٌ لسماع هذه الكلمات منك. وعلى أيّة حال، لا أعتقد أنّك ستحبُّ البقاء لفترةٍ طويلة دُون سباحة.
- وما دخل السّباحة في هذا الأمر؟
- للسبّاحة علاقة مُباشرة بالأمر... ففي السّيرك، لن تجد الوقت لفعل أيّ شيء آخر. خلال النّهار، يتمرّنُ الجميع على امتداد اثنتي عشرة ساعة دُون انقطاع. وهُم لا يتوقّفون خلال الظّهيرة إلّا حين يكون هُناك عرض للجمهور. وعادةً ما تُقدّم العُروض الرّئيسيّة في المُدن الكُبرى ليلًا، اثنان في ليلة واحدة. إنّهم يعيشون في تلك القاطرات القذرة. ومن أجل أن يستحمّ الواحد منهم لن يجد سوى مرشّ المياه.
كنتُ أحدّق في وجه فايول مذهولًا.
- كيف تعرف كلّ هذا؟
- لقد تحدّثت مع كثيرٍ من عاملي السّيرك في حياتي.
- إذا كان السّيرك سيحول بيني وبين السّباحة، فإنّي سأتجاهل الأمر نهائيًّا.
تنفّس فايول، مُنشرحًا:
- إنّك محقّ في العدول عن قصّة السيرك هذه بملء إرادتك. إذ من المُستحيل بالنّسبة إليك أن تهرب مع جماعة سيرك. فضلًا عن أنّك لم تبلغ السّنّ...
- وماذا أيضًا؟

- لقد اتّخذ أبوك الاحتياطات اللاّزمة. وكنتَ لتفعل الشّيء نفسه لو كنت في مكانه...

- أيّ احتياطات؟

- ألا تعرف الدّكتور فرانسيسكو فيراس، رئيس الشّرطة؟

- بلى.

- إنّه صديق مُقرّب من أبيك. وبالتّالي...

أخذت الرّيح تُحرّك خُصلات شعري. ومرّةً أُخرى كنتُ أتأمّل الميدان وأسمع صوت التراموای العابر الذي يصمّ أذنيّ.

ألحّ الصّوت قائلًا:

- مازال لديك مُتّسع من الوقت.

- ستعتم عمّا قَريب.

- وإن يكن... أليسَ من عادتك أن تتجوّل في اللّيل خلال غزواتك؟

- تلك مسألة أخرى.

- تقول هذا لأنّك لم تر روعة هذه الغابة بعينيْك، إنّها جديرة بأن تكون جزءًا من الأمازون أو من غابة إفريقيّة عذراء. وفي الحقيقة، إنّ عذرك سخيف، فلديك نصف ساعة قبل أن تُضاءَ مصابيح الشّوارع.

- هل نذهب يا تولو؟

رفضتُ الإصغاء إلى نصائح آدم الحكيمة. وحاولتُ أن أُهدّئه،

قائلًا إنّني لن أُجازف في مثل هذه السّاعة وبعد أن استحممتُ بتلويث ملابسي عبر تسلّق الأشجار.

كانت غابة مانويل ماتشادو تجذبني مثل المغناطيس. عبرتُ منطقة الكثبان. ومررتُ حذو بعض الأكواخ أين تعيش نساء كثيرات تَعملن في غسل الثّياب. حين مرَرت لاحظت أنّهنّ قد تركن الغسيل مُعلّقًا طوال اللّيل حتّى تُجفِّفَه الرّياح. كنتُ قد رأيتُ سلفًا، وذات ليلة، الغَسيل يتأرجح على الحبال مثل أشباح خرجت في موكب. لقد رغبتُ حتّى في قطع الحبل، مثلما فعلتُ عندما كنتُ صغيرًا، الأمر الذي كلّفني عقابًا رهيبًا على أيدي أخواتي. أمّا الآن، فـ«لا». إنّني أملك الرّغبة فحَسب. ولن أمرّ إلى الفعل. فهذا هو مكسب عيش هؤلاء النّاس. وهم فقراء جدًّا إلى حدٍّ لا يُوصف. لذلك لم أرد أن أكون شرّيرًا.

انتشر ضوءُ اللّيل في المكان. وكان قادمًا من قلب الأشجار.

تردّد تولو قليلًا عندما انحنيتُ وتجاوزتُ سياج السّلك الحديديّ الشّائك.

– تعالَ أيّها المُغفّل! ليس هناك خطر.

وأطاعني إذ لاحظ أنّني أُتابع طريقي، باحثًا عن مسلك. كانت الأوراق تُطقطق تحت قدميّ. والمكان أصبحَ شبه مُظلم. تجاوزتُ في البداية صفًّا من الخشب الحديديّ[1] ذي السّيقان الرّقيقة. ثُمّ

---

(1) لقب يُطلق على فصائل مختلفة من الأشجار تنتمي إلى عائلة واحدة، وتتميّز بصلابة خشبها.

ظهرت الأشجار التي أجهل اسمها. وهي مليئة بأغصان كبيرة وأوراق كثيفة. تخيّلت كم سيكون لذيذًا تسلّقُ كلّ تلك الأشجار ورؤية كلّ تلك الأوراق عن قُرب.

شاركني الصّوت حماسي، قائلًا:

- هذا هو يا صغيري ما يُمكن أن نُسمّيه مُغامرة كبرى!

ظللتُ أقتفي المسالك على الأرض. كانت واسعة جدًّا. ويبدو أنّ أناسًا كثيرين يُسمح لهم بالقُدوم إلى هُنا خلال النّهار، كي يجمعوا الخشب والأغصان الميّتة.

قال لي الصّوت:

- هنا تجول الأرواح المعذّبة ليلًا، وكذلك العفاريت والساسي[1]. ويأتي إلى هُنا أيضًا حتّى المابينغواري[2] وطيور الأوروتاو.

- إنّك تُبالغ. فالجميع يقول إنّها لا تُوجد إلّا في الأمازون أو في بقيّة غَابات البرازيل الكُبرى.

حينئذٍ، غضب الصّوت من كلامي.

- حسنًا. لم أقل إنّ هناك عددًا كبيرًا منها. ولكنّها تظهر من حين إلى آخر. وعندما يحدث ذلك تكون مُحاطةً بديدان مُشعّة تتوهّج في الظّلام.

(1) شخصيّة أسطوريّة من الفولكلور البرازيليّ تتمثّل في فتى له ساق واحدة. ويكون أسود أو خلاسيًّا، يُدخّن غليونًا ويرتدي قُبّعة حمراء سحريّة تُتيح له أن يظهر ويختفي حيث يشاء.

(2) حيوان أسطوريّ يُشبه من حيث المظهر حيوان الكسلان. وله فرو أحمر. إضافة إلى أنّه يعيش في غابة الأمازون في البرازيل وبوليفيا.

أدهشني هذا الوصف العجيب.

- كذلك لم تر شيئًا بعد. فعندما تُقرّر التّعرّف بشكل جيّد على هذه الغابة ليلًا، حين تتعانق النّجوم في أرجوحة اللّيل المعلّقة وحين يُمسّح القمر على شعر الأشجار، حينئذٍ فقط سوفَ ترى أشياء جميلة جدًّا لا يُمكن حتّى تخيّلها.

- شكرًا لك. سأفكّر في الأمر. والآن، عليّ أن أعود إلى البيت، لا شكّ في أنّهمّ قَد جهّزوا مائدة العشاء.

خرجت من الغابة الصّغيرة راكضًا، يتبعني تولو. ولكنّ قلبي كان فائضًا بالسّعادة والجمال.

يا للخوف الهائل! كان على طرزان خلال المرّات الأولى أن يدفعني قُدمًا. لقد أقسمنا وأبرمنا ميثاق دم وشرف ألّا يعرف أحدٌ أيَّ شيءٍ عن رحلتنا الاستطلاعيّة، أو رحلاتنا الأخرى. فقد مضينا في الكثير منها.

لقد جازفتُ من قبل باستكشاف ضواحي المغاسل والأركان الأخرى. ولكن النّفاذ إلى تلك الغابة ليلًا يُعتبر إنجازًا خارقًا للعادة. ظللتُ أضرب موعدًا كلّ ليلة مع طرزان عندَ طرف الغابة. وكان هذا في البداية، لأنّه عندما تيقّن من أنّني صرتُ مُدرّبًا بشكلٍ جيّد توقَّفَ عن مُرافقتي. فعالمه الإفريقيّ المليء بالغوريلا والأسود والفهود يحتاج إلى مساعدته أكثر منّي.

كان يكفيني انتظار انتهاء العشاء وقيام كلّ فرد من العائلة بطقسه المعتاد الذي لا يتغيّر مُطلقًا؛ ساعة البرازيل في الراديو،

جولة السّاحة، بعض الأحاديث المتفرّقة ثمّ إلى السّرير. بعد ذلك، تنطفئ النّيران. ويتعطّل الزّمن في انتظار الصّمت المُطلق. أرتدي مئزري الذي لم يكن سوى قميص الجمباز، أضع سكّيني في الحزام، ثُمّ أنطلقُ في مُغامرتي اللّيليّة. لم أكن أفكّر حتّى في الخطر الّذي قد ينجرّ عن ذهاب أبي إلى غُرفتي واكتشافه أنَّ سريري فارغ. لم أرد التّفكير في ذلك أصلًا، لأنّني مهما اخترعت من أكاذيب لن أجد واحدة قادرة على تعليل غيابي.

- هل هو اليوم يا زيزا؟

ارتجف صوتُ آدم خوفًا.

- نعم، اليوم. لقد اتّخذتُ القرار.
- ولكن، هل تعتقد أنّ الأمر سينجح؟
- أنا مستعدّ تمامًا. أتحسب أنّ طرزان سيتركني وحيدًا وسط هذا؟ اهدأ! لن يحدث أيّ شيء.
- لقد قلت نفس الشّيء بالنّسبة إلى ثمار دونا سيفروبا.
- الأمر مختلف في ما يتعلّق بالغابة. ليس هناك أيّ شخص. يخشى النّاس دُخولَ المكان. لا أحد يذهب ليجمع الحطب في اللّيل.
- لو كنتُ مكانك لأضربتُ عن الفكرة.
- وبما أنّك لست أنا، فإنّني لن أعدل عنها.

ظللتُ أذهبُ إلى هناك كُلّما سنحت لي الفرصة كي أتعرّف على الطّريق مثلما أفعل في النّهار.

أطلق آدم أنينًا بطُول كيلومتر. وقال مُتذمّرًا:

- لحسن الحظّ أنّ الموعد صار قريبًا!

- أيَّ موعد؟

- موعد رحيلي... اللّحظة التي سأذهب فيها لأحيا حياتي، لأنّك لم تعد خائفًا من أيّ شيء.

ضحكتُ ملء قلبي.

- إنّك رائع يا آدم! لقد جئتَ لتُعلّمني تفادي الخوف. والآن، ها إنّك ترتجف مثل ورقة في الرّيح!

شعرتُ على الفور بالشّفقة عليه، لأنّ صديقًا مثله عُملة نادرة جدًّا.

- اهدأ. سيكون كلّ شيء على ما يُرام.

قضّيتُ النّهار مُسترخيًا جدًّا، ولم تهتزّ مياهي ولو بموجة خوفٍ واحدة. ذهبتُ للاستحمام في البحر. وفي الظّهيرة، قُمت ببعض تمارين الجمباز مع دونا سيليست. ظللتُ أعمل على تقوية عضلاتي حتّى لا يسخر منّي موريس بعد الآن. وبعد ذلك، خرجتُ مع تولو للتّعرّف على جميع الجدران التي ينبغي علينا استخدامها في تلك اللّيلة. كان كلّ شيء في وضع مثاليّ. عبرتُ فوق جدران حدائق مُختلفة، ابتداءً بحديقة الجارة التي لا تكلّم أحدًا. وعند الحديقة الثّالثة، نزلتُ عن الجدار وملتُ من خلف الكثبان، لأنّ هناك كلبًا شرسًا جدًّا. كنتُ أبحثُ دومًا عن المناطق المُعتمة، تمامًا مثلما يفعل طرزان. وفي كلّ مرّة أسمع فيها صوتًا مريبًا، أختبئ على الفور في

إحدى الأجمات لكي أتثبّت ممّا إذا كان هُناك شخصٌ قادم نَحوي. ثمّ أركض مثلَ سهم حتّى أصل إلى الخروع[1]. وهُناك تستيقظ كلّ حواسّي. فأتفحّص جانبيْ الطّريق. ليس هُناك خطر الترامواي. فهو يمرّ على السّاعة العاشرة. أقطع الطّريق، مُسرعًا كالبرق. وألقي بنفسي تحت نباتات الخروع الأخرى. لقد كان إدراك تلك الغابة الصّغيرة بالنّسبة إليّ لُعبةً لا مثيل لها.

- أترى كيف سارت الأمور بشكلٍ جيّد يا آدم؟

- إلى حدّ الآن، نعم...

- وكذلك ستظلّ. والآن، علينا أن ننحني كي نمرّ من أسفل السّلك الحديديّ الشّائك. إنّ الغابة ملك لنا. ونحن نعرف جميع مسالكها.

- هل فكّرت مليًّا يا زيزا؟

- فيمَ؟

- في أمرين اثنين. أوّلًا، إنّك تبعد على الأقلّ كيلومترين عن منزلك.

- وإن يكن؟

- إذا عُثر عليك وأنت ترتدي هذا الزيّ! كيف سيُنظر إليك بمُؤخّرة عارية وسكّين مُثبّتة في الحزام؟

(1) نبات شجريّ له بذور وأوراق سامّة جدًّا. أمّا الزّيت المستخرج من بذوره فهو مادّة طبّيّة هامّة.

- ومن تُريد أن يعثر عليّ؟ ليس هنا أيّ روح حيّة. لا أحد يعبر بين هذه الأشجار.

- «روح حيّة»؟ أهذا ما قلته للتوّ؟

- نعم. الأرواح المعذّبة ليست موجودة. وفي حال كانت موجودة حقًّا، لا داعي للخوف منها أيّها الأبله. فالأحياء هم مصدر الخطر الحقيقيّ. هيّا، فلنستمتع بليلتنا. هل تشعر بضوع الغابة وعطرها؟ إنّه ناجمٌ عن كلّ شيء يُحيط بنا. يا للمتعة! من الأرض، ومن اللّحاء والأوراق... والآن، فلنتسلّق هذه الشّجرة الضّخمة.

- زيزا، هل تعدني بألّا تنتظر مُنتصف اللّيل؟

- أعدك بذلك. سنمكث هُنا في الأعلى رُبع ساعة. وإذا كُنّا محظوظين، فسنرى خلالها أقزام اللّيل ومخلوقات السّاسي والمابينغواري... بالإضافة إلى مواكب الدّيدان المتوهّجة! هيًّا، تعال معي!

بحثت عن شجرة تُلائمني. وتسلّقتها دُون أن أحدث أيّ ضجّة. ولأقل صراحةً إذا كان تسلّق الأشجار في النّهار أمرًا مُمتعًا فهو في اللّيل أكثر مُتعةً بكثير. لقد تعوّدت عيناي على الظّلام وصارت أذناي مُرهفتيْن مُتيقّظتيْن لأدنى صوت. كان هناك علجوم يغنّي من بعيد.

- هل تعرفه يا آدم؟

- لا. إنّني أنتمي إلى فصيلةٍ من نوع خاصّ. وهي لا تُغنّي.

كان آدم يتكلّم بصوتٍ منخفضٍ جدًّا، حتّى إنّني سمعته بصُعوبة، بينما كانت الصّراصير تصرّ من كلّ جانب. لا شكّ أنّ هناك كتيبة كاملة منها. وكانت فئران الحقول تركض تحت أكداس الأوراق المتناثرة.

استندتُ إلى جذعٍ بالأعلى، ومَدَدتُ قدميَّ على غُصن متين. أمسكتُ غصنًا متشعّبًا بيدي اليُمنى، لم يظهر أيّ شيء، ولكنّ إحساسي في تلكَ اللّحظات كان رائعًا جدًّا، رائعًا قدرَ روعة السّباحة في البحر، وأنا لا أشكّ في أنّ ما شعرت به آنذاك هو الحرّيّة ذاتها، أو رُبّما يكونُ شيئًا يُوشك على أن يَكونَها.

اشتكى آدم، وهو يتباكى:

- زيزا!

- نعم.

- ألم يقترب منتصف اللّيل؟

- وفق حساباتي، مازال بعيدًا.

- ألم تفكّر في شيء مّا؟

- ما هو؟

- في أيّ يوم نحن؟

- وما أدراني؟ اليوم الخامس أو السّادس من الشّهر.

- لا، أقصد أيّ يوم من أيّام الأسبوع؟

- الجمعة.

وابتسمتُ على الفور.

- فهمت. إنّك تقصد أنّ الجمعة هو يوم خروج الأرواح المعذّبة. هذا كلام فارغ. اطمئنّ يا آدم. فهذه الأرواح لا وُجود لها.

- هي ليست مَوجودة فقط لأنّك قرّرت ذلك.

في هذه اللّحظة سمعتُ صوتًا، فقلتُ على الفور:

- أسمعت يا آدم؟

- نعم، سمعت. وها إنّي أرتجف بشدّة.

- ألم تتعرّف على صوتي؟

شعرت بالانشراح وبدأ خَوفي الشّديد يتلاشَى. لقد كان الصّوت المعتاد:

- جئتُ لأمنحك إلهامًا. ألَا ترُيده؟

- الأمرُ خاضعٌ لطبيعة الإلهام.

حدّثني الصّوت في أذني، نافخًا فيها بدعةً جديدة:

- لِمَ لا تجرّب أن تكون أنت نفسك روحًا مُعذّبة؟

وثبَ آدم وثبةً بمترين.

- أغلق أذنيك يا زيزا! لا تَسمعه مُطْلَقًا!

اعتبرتُ كلامَ الصّوت مُهمًّا جدًّا على الرّغم من الخوف الّذي سيطر على آدم.

- وكيف أفعلُ ذلك؟

- هيّا يا زيزا. إنّك ماكر دومًا.
- صحيح. ولكنّني شاهدتُ في السّينما أنّ النّاس الذين يتحوّلون إلى مُستذئبين[1] يجدون صُعوبة كبيرة في العودة إلى صُورتهم الأولى. إذ يجدر بهم أن يَنتظروا انتهاء البدر.
- ولكنّك لستَ في حاجة إلى التّحوّل إلى أيّ شيء. يَكفيك أن تتظاهر بذلك.

بدأت أفهم الفكرة، وأحبّها.

- أليس اليوم هو الجمعة؟ إنّ النّاس يخشون هذا اليوم بشكلٍ فظيع.
- الجميع كذلك في ما أعتقد.
- إذَن، ليس عليك سوى أن تطلق صرخةً تعقبها بتأوّهات تذوّب الرّوح وتُؤلم القلب. وسيقتنع الجميع أنّ الأرواح المعذّبة تطوف في المكان.
- هذا رائع!
- ما الذي تنتظره إذَن؟
- لم يسبق لي أن حاكيت...
- هيّا، حاول!

---

(1) المستذئب هو شخصيّة خياليّة تستند إلى التّراث الأسطوريّ الأوروبيّ. وهي توافق تحوّل إنسان، بشكل جزئيّ أو كلّيّ، إلى ذئب عند اكتمال القمر.

وفي تلك اللّحظة استقال آدم. ولم يقدّم لي بعدها أيّ نصيحة إضافيّة. وقفتُ على الغصن مُستندًا إلى الجذع بيدي اليمنى، ثُمّ شكّلت باليُسرى فوقًا حول فمي وَأطلقتُ صيحةً مُتقطّعة، تردّدت بين أرجاء الأشجار في الغابة وتقدّمت لتَتوه في الأُفق.

- هل هذا جيّد؟

- بالنّسبة إلى محاولة أولى، لا بأس بها. ولكن، يجدر بك أن تكون مُقنعًا أكثر من ذلك. فالأمر ينبغي أن يكون مؤلمًا، كأنّك تُقطّع إلى نصفين.

- كأنّ سمك قرش يشطرني نصفين؟

- تقريبًا.

- إذَن، عرفت كيف يكون ذلك.

وأطلقتُ التّأوّه الأكثر ألمًا في العالم. لقد كان مفعمًا بنشيج رهيب. وظللتُ أتوقّف لبرهة. ثمّ أستأنف من جديد.

- ممتاز! أعد الكرّة مرّتين أخريين. فأرواح العالم الآخر لا تتأوّه طيلة اللّيل.

استجبتُ لأمره. وكنتُ قد شعرت بالتّعب. فجلستُ أستريح على الغصن.

- والآن، اسمع...

أصختُ السّمع. فبلغني نباح كلب أخذ يوقظ الكلاب الأخرى.

- أترى أيّ أثر أحدثته؟

استمرّ النّباح لعشرات الدّقائق. ثمّ راح يخفت شيئًا فشيئًا.

- هيّا، مرّةً أخرى ولتكن الأخيرة بالنّسبة إلى اليوم.

وشققتُ عزلة اللّيل بصراخ هو الأكثر امتلاءً بالألم والعذاب.

فنبحَتْ مجموعة الكلاب من جديد، ولكن بشكل أحدَّ هذه المرّة.

- يجدر بك الذّهاب عند توقّفها عن النّباح. فالنّاس قد سمعوا كلّ شيء.

- ومتى عليّ استئناف الأمر؟

- كلّ ثلاثة أيّام. وبعد ذلك اكتفِ بالجمعة. على هذا النّحو سيبدو الأمرُ حقيقيًّا.

ثمّ تثاءَب الصّوت. وقال:

- أشعر بالنّعاس. سأذهب للنّوم. ليلة سعيدة.

حدّقتُ من حولي. كان اللّيل قد استعاد هدوءه. وهناك في الأعلى، كانت ملايين النّجوم ماضية في استطلاعهَا اللّيليّ.

- هيّا، سنعود إلى البيت يا آدم. كان الأمر رائعًا. إنّها أجمل خدعة قمتُ بها في حياتي. ولذلك، سأنام اللّيلة نوم الملائكة.

لم ينقضِ على تلك اللّيلة أسبوعان حتّى تجلّى أثرها. كان الجميع يتحدّث عن الأمر.

- هناك أرواح في اللّيل، داخل غابة مانويل ماتشادو.

- لقد سمعتها بأذنيّ هاتين. واقشعرّ لصوتها جسدي كلّه. ثمّ صلّيتُ ثلاث مرّات للسّيّدة العذراء من أجل أرواح

المشنوقين.

لقد زادت هذه التّعليقات من كبريائي وفخري بنفسي. وعظمت نتيجة لذلك رغبتي في العودة إلى الغابة لإتمام المهمّة. كانت الأحاديث في كلّ مكان، حتّى إنّها أدركت طاولتنا في البيت، عند فطور الصّباح:

- لقد حدّثتني إيزورا أنّ الغسّالات يمتن من الرّعب. وقالت إنّ أرواحًا معذّبة تئنُّ في أشجار مانويل ماتشادو. تظلّ تئنُّ وتتأوّه حتّى تُذيب روح من يسمعها.

- إنّه اختراع هؤلاء النّاس البسطاء. الشّعب مهووس بهذه الأشياء.

كانت إيزورا تقدّم أكواب القهوة حينئذٍ، فخرجت فجأةً عن صمتها المعتاد:

- الأمر صحيح يا دكتور. فلُوريندا التي تعيش هناك تقول إنّها لا تستطيع في اللّيل أن تغمض جفنًا. وتقول أيضًا إنّ الأرواح تهدأ بعد منتصف اللّيل، عندما يشعل أحدهم شمعة.

توقّف أبي عن مطالعة *الجمهوريّة*. وانخرط في الحوار قائلًا:

- إنّها مناسبة ملائمة لإعداد قدّاس من أجل أرواح المطهر.

ثمّ أعاد ارتداء نظّارته. واستأنف قراءة الصّحيفة.

كم أبهجتني تلك المحادثة. فلقد كنتُ مُستمتعًا جدًّا مثل فنّان يعلّق الجميع بإعجاب على أعماله. ومع ذلك، تظاهرت بالبراءة وبأنّي أشعرُ مثلهم بالخوف والرّعب.

ذات ظهيرة، جاء فايول يبحث عنّي خلال فترة الاستراحة. قدّم لي بعض الحلوى. وانقضّ عليّ بصراحته:

- شوش، هل سمعت عن الأرواح المعذّبة في غابة مانويل ماتشادو؟

ابتلعتُ اللّقمة قبل أن أُجيبه بهُدوءٍ لا مثيل له:

- لقد تحدّثت الخادمة عن الأمر في البيت.

- هل تصدّق أنت أنّ أرواحًا تأتي من المطهر كي تُخيف النّاس البسطاء المساكين؟

- طبعًا، أصدّق ذلك حتّى إنّني أنوي أن أُصلّي من أجلها.

- أمّا أنا، فـ«لا». لا أؤمن بذلك.

حوّلتُ وجهة المحادثة على الفور:

- لكنّ تعاليم الكنيسة تخبرنا بأنّ لدينا جسدًا وروحًا. أليس كذلك؟

- تلك مسألة أخرى.

حدّق في عينيّ مباشرة، فبذلتُ جهدًا عظيمًا حتّى لا يُكشفَ سرّي.

- يَنتابني شُعور بأنّك تعرف عن الأمر أكثر ممّا تدّعي. لا أعرف حقًّا. لكنّ هذه الأرواح أخذت تظهر منذ فترةٍ فحسب، أي بُعيْد انتقالكم إلى ذلك الحيّ.

- هل تقصد أنّ لي دخلًا في هذه الحكاية يا فايول؟

- من يدري؟ الأمر ليس غريبًا عن أسلوبك. لعلّك تحالفت مع مجموعة من الأوغاد...

ثُمّ أجبته بأكبر قدر ممكن من الهدوء، مُتظاهرًا بالبراءة القصوى:

- أنا؟ إنّني أموت رعبًا من هذه الأرواح الملعونة؟ أفضّل ألّا أُفكّر في الأمر أصلًا.

سواء أكان مقتنعًا بكلامي أم لا، فإنّه أطلقني من جديد. وعدتُ إلى الاستراحة مُرتبكًا بعض الشّيء. اللّعنة على فايول! إنّه يتّجه رأسًا نحو الهدف. لم أرد حقًّا أن أكذب عليه. لكنّني لم أرغب أيضًا في أن أنقض ميثاق الدّم الذي يصلني بطرزان.

ولكنّ ما لم أتوقّعه حقًّا هو الحجم الذي اتّخذته المسألة لاحقًا. إذ انتشرت الأخبار في كامل المنطقة. وراح الجميع يُعلّق عليها حتّى عند حدود الأحياء البعيدة. وبدأت أشعر فعلًا بالخوف.

ومن جديد، دار الحديث على المائدة حول مسألة الأرواح المعذّبة تلك:

- إنّهم يفكّرون حتّى في استقدام القساوسة، ذات جمعة، كي يُباركوا الغابة...

- يُريدون تنظيم موكب تُرافقه الشّموع ليلة الجمعة.

- يُقال إنّها رُوح تَائه. وهُو عجوز أعمى قام بشَنق نفسه في غُصن شجرة.

وخرجتُ دون أن أشارك بكلمة واحدة. إذا كُشف أمري، قد

أُوضع في المصحّة التي يُديرها أبي.

وبّخني آدم قائلًا:

– هل تعي الآن ماذا اقترفتَ يا زيزا؟

– على أيّة حال، الأمر مُفيد بالنّسبة إلى الأرواح. فالجميع يُصلّي من أجلها الآن.

– هل ستتوقّف إذَن؟

– أذهب اللّيلة أيضًا. ثمّ أتوقّف لفترةٍ حتّى ينسى النّاس الحكاية.

– ولكن، لماذا يا زيزا؟

– لا أعرف. ولكن، من بين كُلّ ما اقترفته حتّى الآن، هذه أكثر خدعة تُمتعني. إنّ لديّ شعورًا بكوني سيّد العالم. إنّني ذاهب.

– بحقّ محبّة الرّبّ يا زيزا، أضرب عن ذلك!

– اليوم فقط يا آدم. ثمّ أتوقّف عن الأمر لبعض الوقت.

– عليك أن تنتبه قدر المستطاع. إذ يمكن للنّاس أن ينصبوا لك كمينًا، ويمكثوا مُسلّحين بمُسدّس أو بُندقيّة.

– هل تعتقد ذلك حقًّا؟! النّاس هنا لا يملكون إلاّ السّكاكين.

عاودنا كلّ تفصيل. ومثلما يحدث الأمر أوّل مرّة، كان كلّ شيء مثاليًّا. أئنُّ وأنشجُ بشكلٍ يُدمي القلب ويُعذّب الرّوح، ببطء شديد تمامًا مثلما نصحني الصّوت الهاتف. يا لهُ من شيطان!

حجبت اللّيلة المظلمة طَيفي المنزلق بين الجدران. وكدتُ أدرك منزلنا حين قفزتُ، ولكنّي سقطتُ قرب كهف اليد الحديديّة.

لقد جعَل ما رأيته قلبي يخفق بشدّة والعرق البارد ينزّ ويُجمّدني. كان هناك طيف مقرفص، ملفوف في عباءة يقف أمامي. استندتُ إلى الجدار كي أتفادى السّقوط.

- أيّها الفتى الماكر، ماذا تفعل هُنا؟

إنّها دادادا. هدأ قلبي إذَن. لكنّني تكلّمت بصعوبة بالغة:

- هسس! دادادا. لقد حسبتُك روحًا من العالم الآخر.

كانت غاضبة جدًّا.

- إذَن، إنّه أنت أيّها الطّاعون الصّغير! لقد شَككتُ في ذلك طوال الوقت. أنت الرّوح التي تئنُّ في غابة مانويل ماتشادو.

طفقتُ أرتجفُ مثل ورقة في الرّيح. وأوشكت دموعي أن تنهمر:

- أرجوك يا دادادا، لا تخبري أحدًا بذلك.

- يجدر بي أن أسحبك من أذنيك وأجرّك حتّى أوقظ المنزل كلّه. أيّ فضيحة هذه؟!

- لا تفعلي هذا يا دادادا. أرجوك. أعدُكِ ألّا أُكرّر أي فعلٍ شبيه بهذا. إذا أخبرتهم بالأمر، سيضعونني في المصحّة أو في السّجن.

- هذا أقلّ شيء تستحقّه.

- إذا كتمتِ السّرّ لن أعيدها مُطلقًا. أعدك بذلك.

- لا يجدر بي فعل ذلك في الحقيقة. ولكن، اسمعني... إذا حدث الأمر مرّةً أخرى فحسب أو سمعتُ، ولو عرضًا، شخصًا مّا يتحدّث عن أرواح غابة مانويل ماتشادو، فإنّني سوف أفشي كلّ شيء.

- لن أذهب إلى هناك بعد الآن.

- هل تقسم؟

- بما تشائين.

فكَّرَت قليلًا. وشعُرَت بأنّه لا فائدة من جعلي أقسم بأبي أو بأيّ شخص آخر من البيت.

- أقسم بمَحبّة الأخ فيليسيانو أنّك لن تُعيد الكرّة مُطلقًا.

- أقسِمُ بالأخ فيليسيانو.

هدأَت قليلًا. ثمّ لاح عليها خوفٌ أخَذ يتصاعدُ من روحها:

- هل فكّرتَ في ما كان سيحدث لو أنّ أحدًا أطلق الرّصاص عليك؟ أو أنّ الرّجال تحلّقوا وطعنوك بسكاكينهم؟

ثمّ انغمست في نوبة ضحك. وظلّت تضحك مثل مجنونة، عندما اكتشفت الزّيّ الذي أرتديه بتلك المؤخّرة العارية في الهواء. ظلّت تضحك بقوّة وتتقلّب على الجدار.

- يكفي يا دادادا. سيسمعك كلّ من في البيت.

أطلقت نحوي إصبعًا مهدّدًا، وهي تسترسل في الضّحك.

- اذهب للنّوم أيّها الرّأس الفارغ والوغد الماكر. ولكن، لا

تنسَ؛ إذا عدتَ من جديد لفعلتك هذه فاحذر منّي!

رجعتُ إلى غُرفتي راكضًا. وكان جسدي ما يَزال غارقًا في العرق. وجب عليّ أن أنام وأُصلّي صلاةً كبرى، أن أبدأ مسبحة من أجل أرواح المطهر المسكينة. وإذا تجلّى لي ذلك الصّوت مُجَدّدًا، فسوف أكسر وَجهه.

ومنذ تلك اللّيلة، لم يُسمع في الأرجاء أيّ حديث عن أرواح غابة مانويل ماتشادو.

(3)
قلبي اسمه آدم

في تلك اللّيلة، عذّبني شيء مّا غريبٌ وثقيلٌ جدًّا ومُوغل في الحزن.

مكثتُ إلى جانب الرّاديو بعد العشاء، ورُحت أُصغي إلى برنامج ساعة البرازيل الذي يُعدّ هوسًا بالنّسبة إلى أسرتي. ثمّ تسكّعت عند الشّرفة، محدّقًا في النّجوم المُضيئة للسّماء الحالكة. إذ لم أكن راغبًا في التّجوّل حتّى بُلوغ الميدان ولا في تأمّل سفينة مضاءة تمامًا، وهي تنتظر ارتفاع المدّ كي تدخل ريو بوتنغي. كنتُ أتثاءب، متمطّطًا بينما يُشير كُلّ شيء إلى أنّ السّرير هُو الملاذ الأسلم بالنّسبة إليّ.

وخلال خمس دقائق، نظّفتُ أسناني وارتديتُ ثوب النّوم. كان الجوّ حارًّا. فتركتُ النّافذة مفتوحة قليلًا كي أنعم بشيء من النّسيم البحريّ.

شعرتُ بنُعاسٍ شديد، حتّى إنّني عدلتُ عن تلاوة صلاتي. وكان من الأفضل لي أن أُطفئ الأضواء قبل أن أنهار تمامًا.

كانت أفكاري بصدد النّوم وفقَ إيقاع بطيء. أشياءُ صغيرة ظلّت تعبر رأسي مصحوبةً بنتف من ذكريات قديمة.

وبعيدًا، بعيدًا جدًّا، لاحت مشاعرُ أسفٍ على موريس. لقد

اختفى قليلًا في الآونة الأخيرة. لا شكّ أنّه قد لاحظ أنّ الوقت قد مرّ، بينما ازدادت ثقتي بنفسي. كما أنّ المسكين ظلّ يقبل عقود الأفلام، الواحد تلو الآخر، وهو مَا استنفد وقته ولم يترك له نصيبًا وافرًا من أجل حياته الخاصّة. وبهذا الشّكل، لم أعد قادرًا على توقّع موعد قدومه. يا لموريس! إنّه رجل عجيب حقًّا! حصص الأدب التي يدرّسها الأخ أمبروزيو كانت عجيبة كذلك. فقد كان يُعلّمنا التّأليف ويُحفّزنا للقيام بذلك. إنّني لا أنسى ذلك التّغضّن الطّفيف في عينيه كلّما أعجبه أحد الواجبات التي نقوم بها.

ازداد تثاؤبي. ولم يترك لي النّعاس أيّ فرصة لأكون طرزان في تلك اللّيلة. ستنام الجدران في سلام إذَن، وكذلك أشجار الكاجو. وكان العالم الذي أَسوده يتلاشى في الأُفق البعيد.

لم يكن بإمكاني أن أُحدّد ما إذا كنتُ قد نمتُ طويلًا. ولكنّ عينيّ انفتحتا بسبب الضّوء في الغرفة. ففركتُهما مُتذمّرًا:

– بحقّ الشّيطان! أنا متيقّن من أنّني أطفأت الأضواء قبل أن أنام...

خرج صوتٌ هادئ من تحت السّرير:

– وأنا متيقّن من أنّني أشعلتُها للتّوّ.

حدّقت أسفل سريري، باحثًا عن مصدر الصّوت. إنّه شبيه إلى حدّ مّا بصوت آدم. ولكنّه مع مرور السّنوات صار جهوريًّا، وأكثر هدوءًا ورصانة.

سألته إذَن:

- آدم، هل تسمع هذا الصّوت؟

وظلّ صدري صامتًا. لا أحد يُجيب في قلبي. شعرت بالقلق. فهتفتُ:

- آدم! آدم! هل تسمعني؟ هل أنت هُنا؟

- هُنا؟ لا. إنّني تحديدًا تحتَ سريرك.

استيقظتُ تمامًا. وقد هزّني قلق غريب:

- لماذا لستَ في قلبي؟ وماذا تفعل تحت السّرير؟

- انظر بعينيك. واكتشف بنفسك.

انحنيتُ. ومرّرتُ رأسي تحت السّرير. كان علجومي الكورورو يسحب حقيبة بصُعوبة بالغة.

- أتريد أن أُساعدك؟

- لا حاجة إلى ذلك. سأتصرّف بمُفردي.

لقد مرّ وقتٌ طويلٌ منذ أن شعرت بالذّهول الذي أشعر به الآن. لذا قرّرتُ أن أُراقبه لبعض الوقت قبل أن أطرح عليه أيّ سؤال جديد.

نفخ آدم على الغبار الذي يُغطّي حقيبته. وأدار القفل المغلّف ببعض الصّدإ إلى أن سمعت طقطقة خفيفة. في تلك اللّحظة تمكّن من فتحها. فلاحظتُ أنّ كلّ شيء بداخلها قد كان مُرتّبًا، خلافًا لأدراج خزانتي حيث تختلطُ السّراويل الدّاخليّة مع الجوارب ومع أشياء أخرى كثيرة لا حصر لها. حمل آدم قُبّعة سَوداء صغيرة ذات حوافّ مُستقيمة. ووضعها على رأسه. ثُمّ حدّق فيّ مُبتسمًا:

- هل تُناسبني؟
- على نحوٍ مُذهلٍ ورائع!
هزّ كتفيه بنَوع من اللاّمُبالاة:
- لستُ موريس شوفالييه، ولكن لي الحقّ في ارتداء قُبّعة!
ازدادَ ذُهولي أكثر من قبل. هل أصبح آدم بعد كُلّ هذا الوقت غيورًا من موريس؟ هذا غير مُمكن. فلطالما أظهر تعاطفًا وإعجابًا كبيرين إزاءَه. إنّه يعشقه في الحقيقة. ولا يكفّ عن مديحه. إذَن، لماذا هذه الملاحظة السّاخرة نوعًا مّا؟

رفع قبّعته. ووضعها قرب حقيبته. ثمّ قال:
- لا أريد أن أرتدي قبّعةً داخل المنزل. فذلك نذير شؤم.
ثمّ فكّ شالًا ولفّه حول عنقه، قبل أن يُضيف:
- قد يكون الجوّ باردًا هناك. ولا أرغب مُطلقًا في أن أُؤذي حنجرتي.
- ولكن أيّ «هناك» يا آدم؟
- قريبًا أشرح لك الأمر.
- هذا أفضل. فهناك أشياء كثيرة أريدك أن تشرحها لي. ومن بينها مثلًا ما تفعله خارج قلبي.
- أليس لديّ الحقّ في الخروج منه؟
بلى طبعًا. تستطيع ذلك إذا أردت... وإلّا لما كنتَ هنا الآن. أقصد؛ ما الذي تعدّ له يا آدم؟

- أشياء قليلة. أعني شيئًا مّا لا أهمّيّة له.

- لا أهمّيّة له؟ ولكنّك لم تطلب الإذن للخُروج من قلبي!

- وما الخطب في ذلك؟

- حقًّا؟ عندما جئتَ لتسكن معي، توسّلتني طويلًا كي تدخل قلبي.

- مرّ زمنٌ طويلٌ على هذا. وقد تغيّر كلّ شيء الآن.

- لا أعرف ما الذي تغيّر حقًّا. فبالنّسبة إليّ، كلّ شيء على حاله.

- لعلّ الأمر لا يصحّ إلّا عليّ.

- ورغم ذلك، كان عليك ألّا تكلّمني بهذه الطّريقة القاسية اللاّذعة. ففي نهاية المطاف، لطالما كنّا صديقيْن مقرّبين.

- ومازلنا كذلك.

اتّبعتُ سلوكًا متُسلّطًا. سَحبته قُرب السّرير. وأمسكتُه بعناية. ثُمّ أجلسته هناك. وقُلت:

- والآن، قُل لي: ما الذي يحدث فعلًا؟

أخفض عينيه الزّرقاوين كي يتفادى النّظر في عينيّ. وابتلع مشاعره بجُهد عظيمٍ، كأنّه يُفضّل أن يموت على أن يتكلّم.

- هيّا، قُل!

انسكبت دموعٌ صغيرةٌ جدًّا على وجنتيه. فاهتزّت داخلي تلك الحساسيّة اللّعينة التي تمنعني من أن أرى أيّ شخص يبكي دون أن أتأثّر. هدّأتُ صوتي إذَن. وقلتُ له:

- مَاذا هُناك يا آدم؟ من العاديّ جدًّا أن يحدث سُوء تفاهم بيننا، حدّثني فقط عن سَببِ حُزنك. ففي النّهاية، أنا صديقك الأوّل.

رفع عينيه الرّطبتين. وقال:

- زيزا، إنّني ذاهب.

- هل أنت مجنون؟ كيف يُمكنك الذّهاب هكذا، دون أن تُشير إلى الأمر؟

- كم مرّةً قلتُ لك إنّني سوف أرحل عنكَ ذات يوم!

اخترقني شيء من اليأس.

- ولكن، لماذا لم تنبّهني إلى أنّك تهمّ بالخروج من قلبي؟

- إنّ الأمر عسيرٌ جدًّا. أتحسب أنّ ذلك لن يؤلمني؟ لهذا السّبب تركتك تنام عميقًا.

- وهل كنتَ تنوي أن ترحل دُون أن تُودّعني؟

- تقريبًا... فكّرتُ في أن تَراني على الأقلّ وأنا أتأهّب للذّهاب.

وعصفت بي فجأةً رقّةٌ هائلة. فصحتُ به:

- ولكن، لماذا؟ لماذا كلّ هذا يا آدم؟

- إنّه الزّمن. أو نحن أنفسنا ربّما، إذ لا وُجود للزّمن في الحقيقة. نحنُ الذين نعبر فحسب. وفي إطار عُبورنا وتحوّلنا، حانت ساعة رحيلي. لقد أتممتُ مُهمّتي.

- هل كنتُ سيّئًا معك؟ يمكنني أن أعتذر لك...

- اسمعني يا زيزا! لِمَ كلّ هذا؟ لقد حان الوقت. وينبغي عليّ أن أرحل. لم تعد في حاجة إليّ. وقد أصبحتَ فتًى حازمًا لا يخشى شيئًا. كما أنّك قد تعلّمت كيف تدافع عن نفسك، تمامًا مثلما كنتُ أرجو لك أن تفعل.

- أيكون قرارك هذا بسبب مواضع الخوف التي دفعتك إليها مُؤخّرًا؟

- في بعضٍ منه فحسب... ولكنّه نصيب هيّن لا قيمة له. انظر إليّ جيّدًا! اقترب منّي أكثر. وتأمّل هذه التّجاعيد التي تعمّقت حول عينيّ. أترى كم ابيضّ حاجباي؟ عيناي أيضًا مُتعبتان. ويبدو أنّني سأحتاج قريبًا إلى نظّارات، ترافقني في الحياة الجديدة التي سأحياها.

هجم عليّ النّدم فورًا. يا لآدم المسكين! أيّ خوف فظيع تسبّبتُ له فيه، عند حادثة سمك القرش وخلال رحلاتي الاستطلاعيّة في غابة مانويل ماتشادو! قلتُ له ذلك. فضحك، راغبًا في عدم اتّهامي بأيّ شيء.

- أعترف أنّني شعرتُ في بعض الأحيان بالخوف الشّديد. ولكنّني كنتُ فخورًا بك في أعماق نفسي، لأنّكَ أصبحتَ فتًى شديدَ البأس وشجاعًا.

تنهّد طويلًا. وأضاف:

- لقد كانت فترةً جميلةً جدًّا من حياتي. إنّ أولئك الذين يتمكّنون من خدمةِ شخصٍ آخر ومُساعدته محظوظون

جدًّا، لذا سيغمرني شُعور بالسّرور والرّضا في حال شعرتَ بأنّني فعلتُ شيئًا مّا من أجل مُستقبلك.

- لقد كنتَ كلّ شيء تقريبًا في حياتي يا آدم. ولو لم تكن هُنا أنت وفايول وموريس...

- وطرزان كذلك.

- نعم. وطرزان. إلام كانت ستؤول حياتي من دُونكم؟

حافظَ على صمته.

- أتعرف يا آدم؟ غريب جدًّا ما يحدث لي. فحتّى موريس بدأ يبتعد عنّي شيئًا فشيئًا. وأخذت زياراته تقلّ تدريجيًّا. لماذا إذَن يحدث هذا معي؟

- الأمر بسيط يا زيزا. إنّك تكبر يومًا بعد آخر، وتنفذُ شيئًا فشيئًا إلى حقيقة الأشياء.

سكتنا معًا. ولكنّني لم أكن قابلًا بالوضع القائم. إذ كيف أشعر بقلبي وهو فارغ من آدم؟ كيف أتوقّف عن الثّرثرة معه؟ كيفَ سأُحدّث نفسي بمُفردي الآن، والحال أنّني اعتدتُ نصائحَه ولومه وتشجيعه لي؟

- هل أنت راحل حقًّا يا آدم؟

- ليس هناك خيارٌ آخر. فحين يُقدَّرُ لعلجوم الكورورو أن ينفذ إلى صدر صديق، فهو لا يفعل ذلك إلّا مرّةً واحدة في حياته. ولذا، حتّى إذَا قرّرتُ أن أعود إلى صدرك لن أتمكّنَ

من ذلك. ليستْ إرادتي هي التي تحكم الآن، وإنّما أوامر تأتي من بعيد. وهَا هي تَفصلنا إلى الأبد.

أطلق سُعالًا صغيرًا يخصّ علجومًا مُتأثّرًا. ثُمّ تابع كلامه:

- لقد فكّرتُ طويلًا يا زيزا. أينما ذهبتُ، وسواء أكنتُ قريبًا منك أم بعيدًا، فإنّني لن أنساكَ مُطلقًا وسوف تظلّ راسخًا في أفكاري.

أطلقت عبارة «أنا كذلك» من فمي. ولكنّها كانت فاترة وواهنة. استندتُ إلى الجدار، وقد فاجأني شُعور طفيف بالدّوار. مَن يدري؟ قد تحدث مُعجزةٌ أخرى. فيتصالح آدم معي، ويعود مجدّدًا إلى داخل صدري.

- وأحلامنا؟

- ستنفصل هي الأُخرى، من الآن فصاعدًا. فتصير أحلامك ملكًا لكَ وحدك. أمّا أحلامي، فسأبدأ في خَوضها بمُفردي.

دنا آدم منّي. وأمسك بيدي. كان ملمس كفّه باردًا، مثل عرق ميّت. وشعرتُ بأنّ اللّحظة كانت تُؤلِمه قدر إيلامها لي.

- زيزا صديقي! زيزا عزيزي! أرجوك، أصغِ جيّدًا إلى ما سأقوله لك الآن.

كان على وشك التّوسّل، وهُو يقول:

- لستُ نادمًا على أيّة لحظة عشتُها في قلبك، سواء اللّحظات الجميلة أم السّيئة، والحقّ أنّ اللّحظات السّيّئة قد كانت قليلة

وسريعةَ النّسيان. هل تسمعني؟ حسنًا، لقد حانت السّاعة الآن كي أعيش حياتي بصفتي محض علجوم. وقبل أن يَثقُل جسدي ويتراخى ويعتم بصري، أُريد أن أرى جمال الحياة. أرغب في أن أحيا على ضفاف نهر، مُصغيًا إلى حكايات المياه المتدفّقة، أملك ركنًا بين أوراق النّباتات لأنام فيه ليلًا وأثناء القيلولة، ثمّ أطارد ناموسي العزيز وحشراتي الأخرى. أريد أن أهرب من ضجيج المدن وأستمتع بنشيد سلام الرّبّ، أُنعش جسدي بقطرات المطر النّاعمة وأدفّئ عظامي الصّغيرة المُتألّمة تحت أشعّة الشّمس، وأطرد منها آثار البرد والتّعب. أُريد أن أرى تلك الأشعّة، وهي تخترق المياه وتُذهّب الحصى والصّخور القاتمة. وفي اللّيل، يُمكنني أن أستمع إلى نشيد النّسيم وأصيخ السّمع إلى صفير الصّراصير. أمّا في ليالي البدر الرّائعة، فسوفَ أجلس في قرصه الفضّيّ المنعكس على مياه النّهر وأغنّي أغاني العلاجيم البسيطة. وعندما تصبح السّماء مُظلمة تمامًا، سوف أُحوّل عينيّ الخضراوين والمنهكتين نحو طَوق النّجوم المشعّة. سيكون كلّ شيء نقيًّا جدًّا وهادئًا إلى أبعد حدّ. أليس كذلك يا زيزا؟

– أفهم ما تقصده يا آدم. إنّه عالم أجمل بكثير من قَلب طفل.

– لا يا زيزا. ليس الأمر كذلك. علينا أن نقبل مصير الأشياء وقدَرَ الكائنات. سوف أشتاق إليك كثيرًا. إنّه شوق عظيم ينبغي عليّ أن أُهوّن من حدّته بواسطة جمال الحياة. لعلّ

الجمال يملأ الفراغ الّذي خلّفته الرّقّة والحنان، وليس الحنان سوى قلبك أنت. وهذا ما لا يجده أيّ شخص لا في النّجوم ولا في لمعان القمر. ولكن سَوف يُهدّئني الجمال العظيم شيئًا فشيئًا. وسوف يخفّف في غمرة الحزن الذي يملأ روحي من شُعوري بالفقد النّاتج عن غياب رقّتك وحنانك.

أطلقتُ زفرةً تكاد تكون أبديّة. وهمستُ قائلًا:

- لقد أثبتّ لي شيئًا للتّوّ، وهو أنّ الحيوانات أفضل وأكرم من البشر.

نفض آدم الارتباك عنّي:

- ثمّ إنّك ظللتَ طيلة هذه السّنوات طفلًا خلوًا من الأنانيّة. إنّ إحدى خصالك الكبرى تتمثّل في كونك فتى كريمًا يفكّر في الآخرين. وحين أفكّر مليًّا، ألاحظ أنّني أنا الذي أسأت إلى طيبتك في الحقيقة. فقد سكنتُ داخلك دون أن أسدّد ثمن إقامتي تلك، بأيّ طريقة كانت. لقد حملتني دومًا، دون أن تتذمّر من ثقلي ودون أن تحتجّ بسبب إعيائك. أليس كذلك؟

- تكاد لا تزن أيّ شيء يا آدم. ومع ذلك، لو شئتَ أن تعود إلى قلبي لن يُزعجني وزنك وإن كان ثلاثينَ كيلوغرامًا!

- لقد صار ذلك مستحيلًا. لهذا السّبب فكّرتُ في الرّحيل دُون وداع. لعلّك كُنت لتُفضّل ذلك.

- لا، مُطلقًا، كُنت سأفكّر في أنّك جحود، أو في أنّك قد صرت تكرهني إلى حدٍّ جعلكَ ترحلُ دُون أن تُودّعني.
- شكرًا يا زيزا. ولكن لا تتجهَّم ولا تبكِ. أرجوك! عليّ أن أتمّ حقيقة حياتي العلجوميّة. لقد كان كلّ شيء جميلًا جدًّا طيلة مكوثي معك. وليس كلّ علجوم محظوظًا إلى هذه الدّرجة التي تخوّل له أن يُنضج قلب طفل وأن يعيش بين أحلام الطّفولة.
- لا تخفْ. لن أبكي. ولكنّك ستترك برحيلك ثقبًا هائلًا في قلبي. وفي هذا الثّقب، سوف أرجو لك أجمل ما تمنحه الحياة.
- أحسنتَ يا زيزا! كنتُ أعرف جيّدًا أنّ بإمكاني أن أعوّل عليك.

ثمّ ضحك. وقفز على الأرض. فطقطق قلبي من الخوف والبرد. وضع آدم نظّارتيه وشاله وقبّعته الصّغيرة الجميلة. ولكنّه لم يحسم قراره بعد. حاول أن يُكلّمني ويُمازحني:
- أصبحتُ علجومًا عجوزًا طيّبًا. أليس كذلك؟
- لا يا آدم، ما تقوله ليسَ صحيحًا بالمرّة. أنت أجمل علجوم ذي عينين زرقاوين في العالم، ولن يُوجد علجوم مثلك مُطلقًا.
- شكرًا. ولكن، لا تُحط نفسك بالأوهام. فأنا عَجوز. ولم أعد أفكّر في البحث عن جميلة ذات جدائل ذهبيّة طويلة وقبّعة جميلة على الرّأس. لقد ولّى زمن هذه الأشياء بالنّسبة إليّ.

ولكنّي أعرفُ أنّك ستشعرُ بالرّضا عندما تعلم أنّي عثرت على نهري وأنّي أحيا في هُدوء وسكينة...

- لماذا لا تُهاجر إلى بحيرة بونفيم؟ إنّ المياه هُناك وفيرة. فضلًا عن كون البحيرة عميقة جدًّا إلى درجة أنّ أزرقها تحوّل إلى بنفسجيّ.
- عليّ أن أذهب إلى مكان لا تعرفه. أقصد مكانًا لا يمكنك أن تجدني فيه مُطلقًا. أتعرف يا زيزا؟ لقد فكّرتُ جيّدًا في الأمر، حتّى إنّني فكّرت كذلك في بحيرة بونفيم. ولكنّها مزدحمة بالمتنزّهين والمتجوّلين. إنّني أخشى أن يلمحني الصّبية فيؤذونني. يمكنهم أن يلقوا عليّ الحجارة أو يضربوني بعصيّهم.
- ولِمَ قد يفعلون ذلك؟ أنا لم أسئ إليك قطّ.
- هذا أنت. ولو لم يكن قلبُك طيّبًا لما أُرسلتُ إليك مُطلقًا. والآن، أنا ذاهب. أغمض عينيك إذا شئت. يمكنني تفهّم الأمر.

لم أستجب لاقتراحه. إذ كنتُ أفضّل أن أرى كلّ شيء حتّى النّهاية.

اقترب آدم من الحقيبة الصّغيرة. فعدّل نظّارتيه، شاله وقبّعته الصّغيرة الجميلة. وانحنى، وهو يبذل جهدًا ليغلقها. كان القفل صدِئًا إلى حدّ مّا. فأطلق صريرًا خافتًا.

أخذ يتقدّم في قفزاتٍ صغيرة. ولم يُحدث ضجيجًا إلّا داخل حزني وفي قلبي الذي صار يشكو الآن من فراغ رهيب.

توقّف عند الباب. والتفت إليّ قائلًا:

- هل أترك الباب مُواربًا؟

أومأتُ برأسي إيجابًا، لأنّ صوتي كان قد تبخّر.

- هل أُطفئ الأضواء؟

- يمكنك تَركها مضاءةً.

رفع يده المقفّزة. فلمعت ساعته الصّغيرة.

- وداعًا عزيزي زيزا!

واختفى في ظلام الرّواق.

حينئذٍ، استيقظتُ من نومي. كان جسدي مبلّلًا بالعرق، وكان يُغلّفني شُعور رهيب بالضّيق. لم يكن كلّ ما حدث إذَن سوى كابوس فظيع. ومع ذلك، تعجّبتُ لرؤية الأضواء في الغُرفة. فقد كنتُ متيقّنًا من أنّني أطفأتها قبل النّوم.

- آدم!

ما من إجابة. هتفتُ ثانية:

- آدم، هل تسمعني؟

ساد صدري صمتٌ كئيبٌ أخرس.

انحنيتُ فزعًا. ونظرتُ تحت السّرير. لم يكن هناك إلّا الفراغ ماكثًا في مكان الحقيبة، حيث ارتسم مسلك من الغبار الأبيض.

قفزتُ حتّى الباب الموارب. يا إلهي! يُمكنني أن أقسم بأنّني أغلقت ذلك الباب قبل النّوم. لقد رحل إذَن، بحثًا عن نهره وسلامه الخاصّ.

عدتُ حزينًا إلى سريري، وجلستُ بيدين متدلّيتين من فوق ركبتيّ.

تردّد في المكان صوتٌ مألوف. وفجأةً، انفتح الباب على مصراعيه. وابتسم موريس داخلًا.

- ألم تكن تنتظرني يا صغيري؟

رغبتُ في الابتسام. فلاحت ابتسامتي المدفوعة قسرًا من خلال دموعي التي انسكبت على وجنتيّ. وكدتُ لا أشعر بوجه موريس إزاء وجهي، ومنديله الأبيض النّاصع يمسّح عينيّ.

- ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

انكمشتُ وأنا أبكي وأنشج على صدره.

- موريس، لقد وقع مكروهٌ عظيم. رحل آدم.

- اهدأ! اهدأ قليلًا! وارو لي كلّ شيء.

ابتلعتُ مشاعري. ورويتُ له كلّ التّفاصيل.

- هذا محزنٌ يا صغيري. ولكنّني هُنا الآن.

توسّلتهُ في يأس:

- أنت لم تأت أيضًا لتُودّعني. أليس كذلك؟ أرجوك يا موريس!

- لا. سوف أمكث هُنا لفترةٍ طويلة. ولن أرحل حتّى تكتشف

الحبّ. وهُو أجمل شيء في الحياة. سوف يستغرق هذا نصيبًا من الوقت يا صغيري.

صرنَا نتبادل النّظرات. ولم أكن قد تقبّلتُ رحيل آدم بعد.

- موريس، لقد رحل عن قلبي.

ابتسم موريس. وسألني:

- أمْ تُراك أنت الذي غادرتَ قلبه؟

زفرتُ. وأجبتُه مُحبَطًا:

- أعتقد أنّ كلّ واحدٍ منّا فعل ذلك.

(4)
حبّ

ظللتُ أطوف داخل المطبخ، بينما كانت دادادا تنهرني:

- ألا تعرف أنّ المطبخ ليس مكان الرّجال؟

- أردتُ فقط أن أطلب منك شيئًا بسيطًا يا دادادا.

أشارت بإصبعها نحو الباب:

- إلى الخارج! فورًا! لا أريد أيّ مشكلة هنا. هل نسيتَ قصّة القطّة؟

- ليس هناك أيّ شخص في المنزل. وأنت على علمٍ بكلّ شيء.

جلست دادادا على مقعد. وانطلقت تضحك بشدّة.

ثمّ راحت تتفرّسني من أعلى إلى أسفل كأنّها تُخضعني إلى تحليل دقيق.

- هيّا يا دادادا. كنتُ أحسب أنّك صديقتي.

توقّفَتْ عن التّحديق فيّ.

- كم سنّك الآن؟

- خمس عشرة سنة تقريبًا. سأُنهي المرحلة الإعداديّة هذه السّنة، ثُمَّ أُسافر إلى ريو.

صفّرت دادادا فورَ سماعها ذلك، ثُمّ قالت:

- الوقت يمرّ بسُرعةٍ شيطانيّة عجيبة. لقد صرتَ رجلًا! إنّي أذكركَ حين كُنت صبيًّا هزيلًا بطُول ثلاث تفّاحات، أذكر ذلك كأنّه الأمس. وها إنّك ترتدي سروالًا طويلًا الآن، وقريبًا جدًّا، سيصير لديكَ شاربان ولحية.

- وحينئذٍ سأتزوّج.

- اسمعوا ما يقوله هذا الصّبيّ! إنّك تتلفّظ بالحماقات بصوت الدّيك الفتيّ الّذي تملكه!

- كيف ظهرت هذه الفتاة الشّابّة؟

- أعتقد أنّ من الأفضل لك أن تغادر. فأنا مشغولةٌ جدًّا.

- إنّها جميلة يا دادادا. أليس كذلك؟

- لم أتأمّلها جيّدًا.

- نعم، لم تتأمّليها. لكنّك تحدّثت إليها لفترةٍ من الوقت، وأنت تُطلّين من فوق الجدار.

- لقد منعني الجدار من تبيُّن ملامحها.

- دولوريس. أليس اسمها دولوريس؟

- وكيف عرفت ذلك؟

- لست أصمّ. فقد سمعتُ أمّها تناديها: «دولوريس!» إنّها جميلةٌ جدًّا.

- ليس إلى هذه الدّرجة.

- بلى. جميلة، ذات بشرة بيضاء وعينين فاتحتين. ولها وجه شبيه بوردة. إنّها آلهة، أجمل امرأة في العالم!

- كُفّ عن المبالغة. إنّها صبيّةٌ يافعة جميلة. هذا كلّ ما في الأمر.

- أنت لا تفهمين شيئًا. كيف ظهرت هذه الفتاة؟ لم يسبق أن رأيتها مُطلقًا!

- لا أعرف كيف حدث ذلك. إنّها البنت الوحيدة للزّوجين اللّذين لا يكلّمان أحدًا.

- أين كانت مختفية طيلة هذا الوقت؟

- كانت بصدد إنهاء تعليمها في مدرسة داخليّة في ريو، وقد عادت بمُناسبة العُطلة. لقد تحدّثنا عنها مرّةً، ولكنّك نسيت ذلك على الأرجح.

- هل تعرفين إن كانت ستمكث طويلًا أم لا؟

- بعض الوقت حسب اعتقادي. يعمل والدها في بنك البرازيل. وقد طلب نقلتها إلى مدينة فورتاليزا.

أحسستُ بوخزةٍ في قلبي فورَ سماعي ذلك.

- أوف! أوف! يا لقسوة الحياة وظلمها! سترحل دولوريس بعد أن صرت مجنونًا بحبّها!

- ماذا؟! هذا الصّبيّ عاشق! هل تعرف عمّا تتحدّث؟ إنّك لا تعرفها، إضافةً إلى أنّك لا تعرفُ رأيها فيك...

- لا رأي لها حتّى الآن. ولكنّها ستحبّني. هذا مُؤكّد. سنهرب

معًا إلى الغابة العذراء. وقبل ذلك، سنتزوّج بمُباركة الأخ داميان في كورويس نوفوس.

- توقّف عن التّلفّظ بالحماقات واغرب عن وجهي. إذا سمعتك سمكة البيرانها ستفضحُ أمرك لأمّك. وهكذا، تجد نفسك مقيمًا في مدرسة المريميّين. هيّا، انصرف واتركني في سلام! لديّ الكثير من الملابس لأكويها.

- لماذا لا تفعلين ذلك في المرآب، فالمكان هُناك شاسع ومليء بالهواء المنعش؟

- ما هذا الاهتمام المُفاجئ بي يا فتى؟

- إنّني أفكّر في راحتك ومصلحتك يا دادادا. فضلًا عن أنّ كَويَكِ للملابس في المرآب سيُمكّنك من مُلاحظة قُدوم أمّي وتَنبيهي كي أحذر.

- أيّها الشّيطان الماكر، فيم تُفكّر هذه المرّة؟

- الأمر بسيط. أريد التّغزّل بآلهتي دولوريس. سأذهب إلى آخر الجدار. يُمكنك رُؤية كُلّ شيءٍ من نافذتك.

لوّحت دادادا بالمكنسة مُهدّدة.

- انقشع من هنا، وإلّا سيكون عقابك وخيمًا!

انفجرتُ ضاحكًا، إذ كنتُ أدرك جيّدًا أنّها لن تعترض طريقي مُطلقًا. لقد أشبَعت دادادا نصيبًا من فضولي، وكان هذا كافيًا في تلكَ اللّحظة، لذا اختفيتُ من المطبخ.

كان ذلك أكثر شيء محرج في العالم. لكنّ الحبّ جعل قلبي يقفز إلى الأعلى على ارتفاع ستّمائة متر، ويكرّر ذلك أكثر من مرّة. أردتُ أن أحدّق في عينيها. ولكن، أين أعثر على الشّجاعة لفعل ذلك؟ لقد احمرّ وجهي تمامًا، كأنّه بوق الأب كالازانس[1]. وكلّما التقت نظراتنا أخفضنا رأسينا بسرعة صوب الجدار، ميّتين من الخجل. أردتُ أن أبوح لها بشغفي. ولكنّ ما ظلّ يخرج من فمي كان من هذا القبيل:

- هل تحبّين الشّاطئ؟

- كثيرًا. ولكنّ أبي لا يسمح لي بالذّهاب إلى هناك. فالشّمس هنا قويّةٌ جدًّا. وبشرتي بيضاء فاتحة.

حوّلتُ بصري نحو يديها الطّويلتين المنحوتتين بعناية. آه، لو أنّ بإمكاني أن أضع شفتيّ...

- هل تعزفين على البيانو؟

- لا، لم يُتح لي أن أهتمّ بالموسيقى. ولطالما مثّلت فشلًا ذريعًا بالنّسبة إليّ.

- أنا درستُ الموسيقى عدّة سنوات...

أيّ أسى هذا الذي يمنعني من أن أقلّد موريس في أفلامه؟! كان ينبغي أن أنظر إلى الفتاة اليافعة وهي تبتسم و...

- لقد رأيتك بحذاءٍ مزلاجٍ عند ساحة الميدان. إنّك ماهرة في ذلك.

---

(1) القدّيس جوزيف كالازانس، أحد قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة.

- لقد أُتيح لنا التّمرّن على التزلّج في استراحات الإعداديّة. لا يحتاج الأمر إلاّ لذلك.

ومكثنا صامتيْن، بينما ظللتُ أمطّط أذني جهة نافذة المرآب حيث تكوي دادادا الملابس. فإذا انطلقت في الغناء، وجب عليّ إنهاء كلّ شيء والاختفاء على الفور.

اختلستُ النّظر إلى شعرها المجعّد الأشقر الذي يوشك أن يبيضّ. هذا الجمال الإلهيّ يُرهقني! كان موريس ليدفن أصابعه بين هذه الخصلات، فيمسّح شعرها. لا شكّ في ذلك. عندما يرجع لرؤيتي ينبغي عليه أن يعلّمني أشياء كثيرة من هذا القبيل. سيقول لي دون شكّ: «هذه الأشياء لا يمكن تعلّمها. فالمرء يكتشفها بمفرده» أو يهمس لي: «يا صغيري، لا تصدّق كلّ ما رأيتَني أقوم به. فهو مجرّد تمثيل في السّينما».

- هل تحبّين طرزان؟ إنّهم يلقّبونني بطرزان في الإعداديّة.
- إنّه لا يهمّني حقًّا. فمَثلي الأعلى هو كلارك غايبل[1]. هل تحبّه؟
- جدًّا. إنّه ممثّل جيّد.

لقد أصابني كلامها ذاك بالقنوط واليأس. فكلارك غايبل كان أسمر، قويًّا كالشّيطان، فيما كنتُ صبيًّا لم يُكمل نموّه بعد، يتحامل على نفسه كي يُوسّع صدره من كثرة السّباحة وتكرار التّمارين في

---

(1) ويليام كلارك غايبل (1901-1960) ممثّل أمريكيّ شهير ترشّح أكثر من مرّة لجائزة الأوسكار لأفضل ممثّل. وتحصّل عليها عن دوره في فيلم «حدث ذات ليلة».

دونا سيليست. ولكنّ ما أحزنني أكثر من كلّ شيء في ذلك الموقف هو شعري الأشقر الذي لم يكن يعجبها دون شكّ، علمًا وأنّ شعر كلارك أسود رطب يتساقط دومًا على جبهته. قرّرتُ أن أنتقم منها. فاخترتُ ممثّلة سمراء ذات شعر أسود. وقُلت:

- أمّا أنا، فأحبّ كاي فرانسيس[1].

- بحقّ الرّبّ! تلك العجوز! لها وجه لا بأس به. وهي أنيقة جدًّا. لكنّها كبيرة في السّنّ. إنّها عجوز.

قطعنا هذه المحادثة التي انحرفت عن مسارها وصارت مُضجرة. جلست دولوريس على الجدار. ومدّدت ساقيها. كانت جواربها بيضاء ناصعة وحذاؤها الملمّع يشعّ بشكل مبالغ فيه. كان عليها أن ترتدي حذاءَ زيّها المُوحّد في الإعداديّة. تخيّلتُ دولوريس في زيّ السّباحة. وبدا لي أنّ جسدها جميل جدًّا. فقوامها أهيف رقيق. وهي فاتنة بل آلهة حقيقيّة. لقد بدت لي في عدم مبالاتها متجاهلة لكلّ ذلك الحبّ الذي يستنفدني من الدّاخل.

- عليّ أن أذهب بعد حين، قبل أن تبدأ أمّي في الارتياب...

اللّعنة! كان قلبي يعاني سَلَفًا من فكرة رحيلها وغيابها، رغم غزواتي العاطفيّة التي أقوم بها من حين إلى آخر. يا لقسوة الحياة!

- مازال الوقت مبكّرًا.

- يجب عليّ ذلك.

افترقنا، وقد تلامست يدانا بشكل طفيف جدًّا خلال وداعنا

---

(1) كاي فرانسيس (1905-1968) ممثّلة أمريكيّة شهيرة.

الوجيز. نزلت دولوريس عن الجدار. واختفت في الحديقة. ولم تلتفت حتّى لتلقي نحوي إشارةً أو تحيّة. تبعتْها عيناي، بينما راح قلبي يُودّعها. يا للعجب! كم تتشابه جميع النّساء!

وبعد العشاء، بعد ساعة البرازيل، وبعد هبوط السّلام المقدّس على العائلة، اتّجهنا نحو الشّرفة أمام المنزل. أحضر كلّ واحد منّا مسبحته. وفي عتمة الشّرفة الواسعة المحاطة بالزّجاج، شرعنا نُصلّي معًا مُتأمّلين البحر التّائه في سواد اللّيل. لم تكن لحظة سيّئة. أثناء صلاتنا كانت تلوح من حين إلى آخر سفينةٌ مُضيئة وهي تبتعد في الأفق، أو تتقدّم باتّجاه مدخل الشّريط السّاحليّ، واصلة إلى ميناء ريو بوتنغي.

ما كان سيّئًا تمثّل في المحادثة التي تسبق بداية الصّلوات، إذ يتعلّق الأمر دومًا بمسائل تخصّ الكنيسة أو بإحدى المواضيع الجديرة بالتّأمّل.

كان قلبي مُستنفدًا من الحبّ، لأنّ دولوريس كانت تملأ اللّيل مُوسيقى من أعلى الطّريق حتّى أسفله. إنّها موسيقى حذائها ذي العجلات وهو ينزلق على الطّريق.

كم كانت جميلةً ومفعمةً بالألوهة والأناقة! وكم كانت شبيهةً بالرّاقصة آنّا بافلوفا[1] في «البجعة المحتضرة»[2]، تلك التي رأيتها في إحدى مجلّات ريو. ولكنّ ذلك لم يكن رأي أختي في دولوريس:

---

(1) آنّا بافلوفا (1882-1931) راقصة باليه روسيّة شهيرة تعتبر علامة فارقة في هذا الفنّ.
(2) عرض باليه شهير أخرجه سنة 1905 ميشال فوكين.

- ها هي تحاول جلب الانتباه إليها مرّةً أخرى. الأمر ذاته كلّ ليلة!

احتجّ أبي على كلماتها. وكم أحببتُه في تلك اللّحظة!

- أُنظري! هذه الفتاة اليافعة لا تؤذي أحدًا. إنّها مُتمكّنة من التزلّج بالأحذية. ولا تضايق أحدًا على الإطلاق.

سمعَتْ ذلك. فبحثَت عن سُمّها قائلةً:

- تحسب نفسَها مهمّة. إنّها دجاجةٌ سخيفة تستند إلى ساقين هزيلتين. ولها وجهٌ شبيهٌ بورقٍ ممضوغ.

صرختُ في داخلي: «أيّتها البومة العجوز! أيّتها الكسيحة! يا ضفدعة المعبد! أيّتها الصّفراء! أيّتها السّاحرة!».

لو كانت على الأقلّ جميلة مثل دولوريس! لقد كانت تموت من الغيرة بجسدها الشّبيه بلوح الكيّ.

جلس أبي في مقعده المعتاد. أمّا نحن وأمّي، فقد مكثنا واقفين نتأمّل اللّيل. وقبل الصّلاة، تمّ الخوض في إحدى المسائل الدّينيّة. كانت عيناي في مكانٍ آخر، بينما كان قلبي يتزلّج مع دولوريس وهي تذهب وتجيء في رقصةٍ مُتقنةٍ رقيقة. آه، يا حبّي الرّائع! يا آلهة أحلامي!

وفي غمرة نشوتي تلك تجاهلتُ المُحادثة ولم أسمع أيّ شيءٍ منها، ولكنّني تلقّيتُ سؤالًا مفاجئًا:

- وأنتَ، ماذا كنت لتفعل؟

يا للشّيطان! ماذا كنتُ سأفعل؟ عمَّ يتحدّثون؟

- عن الشّهيد المسيحيّ[1].

يا ربّ السّماء، أيّ فكرة هذه؟! وما شأني أنا بالشّهيد المسيحيّ. إنّها مسألة تنتمي إلى الماضي. وقد انتهت منذ أزمنةٍ غابرة. ولكنّ أبي ألحّ عليّ قائلًا:

- هل تهب حياتك من أجل عقيدتك؟ هل تقبل أن تكون شهيدًا؟

مكثتُ صامتًا لوهلة.

- نحن جميعًا مستعدّون لقبول تاج الشّهادة من أجل حبّنا لديننا. وأنت؟ هل كنتَ لتفعل ذلك؟

- أنا... أنا...

تردّدتُ قليلًا. لكنّني لم أستطع الكذب.

- إذن؟

- أعتقد أنّني سأقف في الجهة المقابلة لكم.

هيمنت على المكان خيبةُ ظنّ عامّة. وتردّدت بين زجاج الشّرفة حمحمةٌ جماعيّة.

لم يتكلّم أحدٌ بعد ذلك. قام أبي بحركةٍ حزينة، ثمّ قال لي:

---

(1) تتعلّق الإشارة هنا بمن يُقتل بسبب اعترافه بعيسى المسيح والرّبّ. وحدث ذلك مرارا خلال السّنوات الأولى لتأسيس الكنيسة. ويكون القتل من خلال الصّلب أو الرّجم أو الحرق أو غير ذلك من وسائل التّعذيب الشّديد التي تؤدّي إلى الإعدام.

- لقد قمنا بتربيةِ ناكرٍ لجميل الرّبّ. فلنصلّ له ونسأله مغفرة هذه الهرطقة الفظيعة... أؤمن بالرّبّ...

كانت دولوريس تدور في رقصتها العظيمة. أمّا أنا، فكنتُ أمسك مسبحتي التي تكاد تنزلق من بين أصابعي. وعندما جاء الترامواي الذي يعبر كلّ عشرين دقيقة وأضاء العائلة الجالسة في الشّرفة، حذّرتنا أختي، وجه السّمكة، قائلةً:

- ها هو الترام!

خبّأنا مسابيحنا في أيدينا كي لا نعرض ساعة التّأمّل والسّلام هذه. انعطف الترامواي، وهو يصرّ على سكّته الحديديّة القديمة. فاستأنفنا صلاتنا. اختفى الترامواي، وعادت دولوريس لتموّجها على الرّصيف. كانت كلّ حركة تقوم بها مثاليّة. أهذه دجاجة تستند إلى ساقين هزيلتين؟! محض غيرة لا أكثر! السّلام عليك يا مريم، يا مفعمة بالرّحمة! كيف يمكنني أن أكون شهيدًا؟ في الخامسة عشرة؟ بكلّ هذه الرّغبة في السّباحة والحياة، الحياة والحبّ؟! لقد توقّع لي موريس كلّ هذا ذات يوم. وكان يقول لي سوف ينقذك الحبّ طيلة حياتك. يجدر بالمرء أن يكون أحمق لكي يحبّ فتاةً مثل دولوريس ومع ذلك يُلقي بنفسه بلا سبب، في فمِ أسدٍ أو نمرٍ مرقّط. في الخامسة عشرة، أفكّر أن أُصلبَ، رأسي محنيّ إلى الأسفل، وأنا أمدّ عنقي الفتيّ إلى عبدٍ وحشيّ كي يقطعه...؟! المجد للآب والابن والرّوح القدس. وعلى أيّة حال، لا يمكن لهذا أن يحدث لي. فحكاية الشّهداء هذه مسألة تخصّ الكبار، أولئك الذين عاشوا طويلًا. وقد

كانت تحدث في ما مضى، خلال الأزمنة التي يسهل فيها أن يكون المرء قدّيسًا. ها هو الترامواي يعبر تاركًا خلفه دولوريس المُنهمكة في دورانها. في الحقيقة، لا يمكن أن نسمّي ذلك دورانا، لأنّها كانت تذهب وتجيء وتصعد الرّصيف ثمّ تنزل منه. كم هي جميلة وإلهيّة! يجدر بك أن تأتي يا موريس، يجبُ أن أخبرك بكُلّ ما يحدث بداخلي، إنّ «صغيرك» عاشق محبّ، عاشق مجنون، وهذا الحبّ الخافق في صدره سيدوم قرونًا!

عاد الترامواي وأُضيئت الشّرفة، فَتوقّفنا عن الصّلاة. ماذا يقول السّائق وقاطع التّذاكر في سرّهما وهما يشاهدان هؤلاء النّاس المجمّدين بالشّرفة مثل تماثيل؟

أيّتها القدّيسة مريم العذراء، يا أمّ الرّبّ! صلّي من أجلِنا فنحن مُذنبون، ولكن صلّي من أجل ذُنوبنا الأخرى، وليسَ من أجل الحبّ، فأنا لا أرى أيّ ذنب في أن يحبّ قلبي الفتيّ بهذه الطّريقة السّاحرة التي تكاد تصير مُؤلمة! كانت اللّيلة طويلةً جدًّا. ولم أنوِ أن أخوض أيّ مغامرة طرزانيّة. سأنام وأحتضن وسادتي بشدّة بين ذراعيّ، كما لو كنتُ أحضن دولوريس وأضمّها إلى قلبي. يا للأسف! إنّها لا تحبّ طرزان والغابة، ولكنّها ستحبّهما مع مرور الوقت. ستعتادهما في النّهاية. أمّا أنا، فسأُصارع الغوريلا والتّماسيح، أو بالأحرى النّمور البيضاء والتّماسيح. إذ لا وجود لأيّ غوريلا في البرازيل.

أوشكت المسبحة أن تنتهي. وقد لا يمرّ أيُّ ترامواي آخر. كيف تكون الرّغبةُ في أن يحيا المرء الحياة التي وهبها له الرّبّ

هرطقةً؟ لو كان يريد أن أهلك بين فكوك النّمور والأسود، لكان قد ترك القرش يلتهمني في ريو بوتنغي. جعلتني هذه الفكرة أقشعرّ تمامًا. فإذا أغمضتُ عينيّ رأيتُ ذيله الفضّيّ يعبر قرب وجهي. وهذا ما لا أرغب فيه. فرغبتي كلّها موجّهة نحو دولوريس. إنّني أتلهّف لانقضاء اللّيل وعودة الشّمس من جديد وانتهاء الصّباح على الشّاطئ، حتّى تأتي هي بعد الظّهيرة إلى جدارنا بحذائها اللاّمع وشعرها الأشقر المجعّد المُتَلوّي في الرّيح مثل شلاّل ذهبيّ. «*السّلام عليك أيّتها الملكة*»[1]... أنهينا الصّلاة. ولا شكّ أنّ أبي لن يباركني اللّيلة. بل سيخلد إلى النّوم مُباشرةً بقلبٍ ثقيل. فهو يربّي مارقًا في بيته. أمّا أنا، فقد كنتُ مجنونًا بالحياة. انتهت دولوريس من التزلّج، كأنّها أحْصَتْ سلَفًا المدّة التي تستغرقها الصّلوات التي أدّيناها على الشّرفة. ظهرت الخادمة عند البوّابة. وقالت لها إنّ والدتها تناديها. صار ليل الشّارع ميّتًا من دون ذلك الضّجيج الذي تحدثه عجلات حذائها. يا لقسوة الحياة! آمين! سأغسل أسناني الآن. كان قلبي راغبًا بشدّة في لقاء موريس الذي صارت زياراته متباعدةً أكثر فأكثر. سأحتضنه بين ذراعيّ بقوّةٍ لم أعهدها مُطلقًا من قبل، والأهمّ من ذلك أنّي سأقبّله بنفس الطّريقة الّتي كُنت أقبّله بها في الأيّام الخوالي، لأسمع منه هذه المُلاحظة:

– ماذا يحدث لك يا صغيري؟ أنسيتَ أنّك صرت رجلًا؟ هل تقبّلني؟

---

(1) صلاة كاثوليكيّة تؤدّى باللّاتينيّة. وتحمل استهلالها عنوانًا. وهي موجّهة إلى مريم العذراء.

أحدّق ساعتها في عينيه الصّافيتين. وأعترف له بالحقيقة:

- موريس! موريس! لقد كنتَ على حقّ. الحبّ أجمل شيء في العالم. ولقد وقعتُ في الحبّ. إنّني أحبّها بجنون. أتعرف ما اسمها؟

- قُل يا صغيري.

- ببساطة... دولوريس.

(5)
القدّيسة السّمكة

- شوش!

فتح فايول ذراعيه كي يحتضنني.

- انحنِ قليلًا. عليك أن تتوقّف عن النّموّ يا فتى، وإلّا لن أتمكّن من تقبيلك بعد الآن.

كنتُ أشارك في القدّاس داخل الإعداديّة. ولم يكن هناك أيُّ تلميذ. أدهشتني قدرة الأروقة الفارغة والقاعات الخرساء وروائح الصّمت على جعل الإعداديّة أكثرَ حُزنًا وأكبر حجمًا ومساحة.

ليس هناك وقعُ ضجّةٍ أو صيحةٍ أو خطوةٍ واحدة. بدت المدرسة القديمة ناعسةً وهي تنتظر بلا هوادة انتهاء العطلة، وبدت كنيستها الصّغيرة مشطورةً نصفين، حيث تُوجد في المقدّمة جوقة الأب والإخوة، ومن خلفها في الوسط يمكث التّلاميذ في الفراغ، وفي النّصف الأخير بقيّة الحضور. لقد صارت الآن كئيبةً ومهجورة. ولا شكّ أنّ القدّيسين أنفسهم يشعرون بالاضطراب.

- حسبتُ أنّك قد ذهبتَ سلفًا إلى ريسيفي.

- لقد تمّ تأجيل عطلتنا هذه السّنة.

جعلني أستدير كي يتفحّصني بشكل أدقّ. ثمّ قال:

- بذلة جديدة؟

- لقد دشّنتُها اليوم.

- هل ذهبتَ إلى الشّاطئ؟ لقد اسمرّت بشرتكَ تمامًا.

- وأنفي يتقشّر أيضًا. لقد صرتُ أحظى بإذن لأبقَى هُناك طويلًا. هل أعجبتك بذلتي؟ أردتُك أن تراها قبل دولوريس نفسها.

بدت عليه علامات الاندهاش.

- دولوريس؟ هل هناك جديد لا أعرفه؟

- آه يا فابول! لو تعلم حقًّا... أعتقدُ أنّني عثرتُ على حبّ حياتي الأعظم.

شرع يضحك بشدّة.

- في سنّ الخامسة عشرة؟

- الأمر مختلفٌ الآن... مختلف تمامًا.

- إذَن ستروي لي كلّ شيء لاحقًا. أدعوك الآن إلى تناول فطور الصّباح معي في قاعة طعام الإخوة.

- حسنًا، أقبل دعوتك.

مشينا على امتداد الأروقة الطّويلة. كانت بعض نوافذ القاعات مفتوحةً حتّى ينفذ إليها الهواء، وتُتاحَ للحاضرين إمكانيّة مُشاهدة المكاتب الفارغة اللاّمعة والإعجاب بها. بدا لي مطعم المقيمين

بمقاعده المقلوبة فوق الطّاولات أكثر شساعةً من قبل.

جلستُ بين الأخ أمبروزيو وفايول. وقد ظهر عليهما الابتهاج بوجودي معهما وراحا يكرّران نفس المُلاحظات عن قامتي. سألني الأخ لويز:

- ألّا تلاحظ أيّ غياب يا زيكا؟

حدّقتُ في الإخوة واحدًا واحدًا فلاحظتُ غياب ثلاثة وُجوه، لكنّني خمّنتُ أنّهم قد بدؤُوا عطلتهم الكبيرة قبل الآخرين.

- الأخ غونسالو؟

- لقد غادرنا.

- إلى ريسيفي؟

ظهرت على وجه الأخ أمبروزيو ملامح الحزن.

- لا. إلى الأبد.

- والأخ أنطونيو؟

- لقد اقتفى أثر الأخ غونسالو. هكذا هي الحياة يا زيكا. لا يُمكن للجميع أن يُكملوا مهامهم فيها. أليس هناك أيّ غائب آخر؟

كان هناك غائب آخر دون شكّ. وقد بذلتُ قصارى جهدي لأتذكّره. في الأثناء، حاكى أحد الإخوة نقيق الدّجاجة. فانقبض قلبي على الفور.

- الأخ مانويل. ليس...

- لقد تمّ نقله إلى ماسايو.

- ولكن، هو فحسب؟

- يا صديقي، لقد نذرنا أنفسنا للطّاعة والفقر والعفّة[1].

لحسن الحظّ أنّ فايول كان هناك. أوشكتُ أن أنهي سنتي الخامسة، وهو لم يُنقل بعد. تلك نعمة من الرّبّ الرّحيم.

استفسر الأخ أمبروزيو قائلًا:

- وكيف هو الجوّ عندكم في البيت؟

- لقد تحسّن كثيرًا. لا أعرف ما إذا كان السّبب في ذلك أنّني كبرتُ أم هو تغيّر ببساطة. لكن، هذا واقع الحال.

- إنّك أنت من تغيّر يا صغيري. لقد كنت شيطانًا صغيرًا من قبل. وإذا كنتَ قد جرّبت كلّ أنواع الشّيطنة هنا في الإعداديّة، فكيف كان الحال في المنزل يا تُرى؟!

- أعترف بذلك.

مدّ الأخ أمبروزيو يده إلى جيب سترتي الخارجيّ.

- وهذا أيّها الفتى؟

احمرّ وجهي تمامًا وصار مثل حبّة فلفل.

- هل يعرفون هذا في المنزل؟

- لا، طبعًا. أعتقد أنّهم لا يشكّون في الأمر لحظةً.

---

(1) إشارة إلى نذر شعائريّ وعامّ يوجّه إلى الرّبّ، وعدًا بالزّهد والتّفرّغ في الحياة للبحث عنه وعن مكاسبه الرّوحيّة.

أخذت علبة السّجائر في يدي.

- لقد اشتريتُها للتّوّ من حانة السّيّد آرتور.

- ممتاز. إذَن صار لدينا رجل حقًّا.

وانفجر الجميع ضاحكين، فأخفيتُ علبة السّجائر من جديد، وانتهى بي الأمر إلى الضّحك بدَوري.

انتهى فطور الصّباح. فرافقتُ فايول إلى الأمانة العامّة.

جلسنا كعادتنا، إلّا أنّ صمت الإعداديّة المطبق جعلني غير مرتاح.

- إذن؟ أريد معرفة كلّ شيء.

- دولوريس ببساطة... فتاة يافعة جميلة. أنا مجنون بحبّها يا فايول.

- وماذا عن تلك المدعوّة ماريا دو لورد؟

- كان ذلك مجرّد تصابٍ. لقد تبادلنا بعض البطاقات لا أكثر. كانت نحيفة على نحوٍ لا يُطاق!

- والأخرى؟ ما اسمها؟

- فالديفيا. ليس هناك أيّ مشترك بيننا. إنّها فتاة بدينة تتظاهر بالصّرامة والرّفعة.

- هل تقول هذا الآن يا شوش؟! في السّابق بقيتَ تتحدّث عنهما كأنّهما أجمل فتاتين في العالم!

- فايول، إنّ دولوريس فاتنة.

رويتُ له كلّ شي دُون أن أخفِي أيّ تفصيل، وفي كلّ الأحوال لم يكن هُناك ما يُخفى في قصّة حبّنا الصّغيرة.

ضحك. وقال:

- شوش، إنّك توشك على بلوغ الخامسة عشرة. ولكنّك احتفظت بقلب الطّفل ذاته. المجد للرّبّ، سوف تظلّ هكذا طيلة حياتك. والآن، أكمل بقيّة الحكاية.

- أيّ بقيّة يا فايول؟

- هل قَبِلَ علجومك الكورورو هذه المستجدّات؟

شعرتُ بوخزٍ في القلب. يا إلهي، لماذا يكبر المرء؟

- لقد رحل آدم. قال إنّني صرتُ فتى قويًّا وشجاعًا وآن له أن يستريح. حمل حقيبته الصّغيرة ونظّارتيه، ووضع قبّعته وشاله، واختفى من قلبي. في الحقيقة، لقد ساعدني كثيرًا طيلة مكوثه معي.

- وموريس يا شوش؟

تأمّلني فايول بشيء من التّفهّم. وقد كان مهتمًّا بكلّ ما هدهد حياتي وأحلامي.

- ستظنُّ أنّني غبيّ. لكنّه مازال يظهر لي حتّى الآن.

- كان ظنّي ليخيب لو كان العكس هو الصّحيح.

- لقد قال لي موريس ذات مرّة إنّه سوف يرحل عندما أكتشف الحبّ. ولذلك، لديّ انطباع أنّه سيغادر قريبًا هو الآخر. لقد

صار يزورني نادرًا بين فتراتٍ تزدادُ تباعُدًا مع مرور الوقت.

لاحظ فايول أنّ الحُزن قد بدأ في التسلّل إلى ملامحي، فغيّر الموضوع على الفور:

– والآن، يا شوش. أُريد أن تُجيبني على سُؤال. ولكن، إيّاك أن تكذب عليَّ أو أن تُراوغني! هل تعدني بذلك؟

– من دون شكّ.

– ما هي قصّة الأرواح المعذّبة في غابة مانويل ماتشادو؟

ابتسمتُ.

– لقد انتهت الآن. ولا أحد مازال يخوض فيها.

– أعرف يا شوش. فالنّاس يؤولون إلى النّسيان دومًا. ولكنّ إصبعك كانت تحرّك كلّ هذا.

– وكيف ارتبت في ذلك؟

– لأنّ المسألة كانت تتضمّن أسلوبك، فضلًا عن أنّ كلّ شيء قد انطلق بُعيْد انتقال عائلتك إلى بيتروبوليس.

– لم أكن قادرًا على الاعتراف لكَ بالحقيقة عندما سألتني أوّل مرّة يا فايول، فلقد عاهدتُ طرزان عهدَ دمٍ على ألاّ أبوحَ بشيء لأحد... أنت تفهمني دون شكّ. إنّها أشياء طفل واسع الخيال.

– شوش! شوش! أيّ خطر قد عرّضت نفسك له؟! ماذا لو أُطلق عليك الرّصاص في إحدى اللّيالي؟ لحسن الحظّ أنّ كلّ شيء قد مرّ بسلام.

وقفتُ.

– عليّ أن أذهب الآن يا فايول. يجدر بي أن أكون في البيت.

انشرح صدري حين قال لي مُبتهجًا:

– استمتع بالحياة يا شوش، وحاول قدرَ استطاعتك أن تحتفظ بأحلامك ما دامت تُرافق نبضَ قَلبك. سأعود من ريسيفي وأراكَ وأنتَ تتخرّج من الإعداديّة. أتعرف شيئًا؟ سيقضّي الإخوة شهرًا على الشّاطئ في العطلة.

– إلى اللّقاء يا فايول.

ربّت على كتفي برفق. وقال:

– اعتنِ بنفسك يا بنيّ.

كانت دادادا تقوم بكيّ الملابس في المرآب، بينما نجلسُ نحن معًا مثل مخطوبيْن:

– ماذا فعلت يوم الأحد؟

– أشياء قليلة. وأنت؟

– ذهبتُ إلى القدّاس عند المريميّين وتناولتُ فطور الصّباح مع الإخوة هناك. وماذا أيضًا؟ دعيني أتذكّر. حسنًا، لقد رحل ثلاثة إخوة منهم. وقد آلمني غياب أحدهم على نحو خاصّ. والآن، عندما تستأنف الدّروس سنرى وجوهًا جديدة. وينبغي أن يُبادر المرء بمُصادقتها منذ البداية.

– هل تحبّ الآباء في مَدرستك؟

- هم ليسوا آباءً بل إخوة. وأنا أحبّهم كثيرًا.

- حسنًا. أمّا أنا، فعندما أغادر الإعداديّة لن أرغب في رؤية أيّ وجه من وجوه الأخوات هناك. لقد تحمّلتهنّ بما يكفي.

- دون استثناء؟

- دون استثناء. لا فرق بينهنّ جميعًا.

صمتنا معًا لوهلة. ولم أكن أعرف ما إذا كانت «الخطوبة» لدى الآخرين تشبه ما كُنّا عليه أم لا، لم أكن أعرف هل يتحدّثون عن أشياء أخرى أم يُردّدون فقط كلامًا يُشبه ما كُنّا نقوله. كلّ ما كنتُ متيقّنًا منه هو أنّني أكون أسعد رجل في العالم عندما أجلس إلى جانب دولوريس. هذه هي السّعادة من دون شكّ؛ تبادل الحكايات عن نتف صغيرة جميلة لا تساوي شيئًا. والحقّ أنّه من الغَريب أن أُفكّر في موضوع الخطوبة، فأنا فقط من يتوقّف عندهَا ويُوليها اهتمامًا، أمّا دولوريس فلا تكفّ في كلّ مناسبة عن حفر قلبي بتذكيري باقتراب موعد مُغادرتها إلى سيارا.

- أكثر من أربعة عشر يومًا؟

- نعم.

- وهل ستكتبين لي؟

- بأيّ طريقة؟

- صحيح. إنّك مراقبة جدًّا من قبل والديك.

اجتاحتني موجة حنان مفاجئة.

- راقبي النّجوم في اللّيل. ستأتي لك برسائل منّي.

- وماذا إن أمطرت السّماء؟

لم أستطع أن أجيب بأيّ شيء. فَلَا شكّ أنّ المطر سيبلّل الرّسائل، ويجعلها حزينة، ويؤخّر وصولها.

- هل ذهبت إلى الشّاطئ يوم الأحد؟

- نعم.

- وهَل رأيتَ الكثير من الفتيات الشّابّات؟

- ذهبتُ من أجل الشّمس والسّباحة. فأنا لا أفكّر في أيّ فتاة غيرك... أنت فحسب.

وضعت دولوريس يدها على يدي فغَمرتني البهجة، إذ لم يسبق لها أن فعلت ذلك قَطُّ. كانت يدُها معطّرةً بماء الكولونيا، الأمر الّذي جعلني في تلك اللّيلة أنام ويدي تتدلّى من سريري حتّى أحلم بأنّها تلامس عطر يد دولوريس.

راحت دادادا تغنّي أغنيتها، فقفزت دولوريس على الجدار ووثبتُ نحو القرميد القديم، متظاهرًا بأنّني أجمع أفضل القطع.

ووضعت أختي مُقدّمة أنفها على النّافذة، فتظاهرتُ بعدم رؤيتها.

- لقد مرّت أبديّة وأنت تعتني بهذه القراميد.

رفعتُ بصري بازدراء.

- هذا ليس شأنك يا وجه...

سحبَت رأسها مُتراجعة إلى الخلف مثل وقواق. تلك السّاحرة ترتاب في أمري، ومن المُؤكّد أنّها ستتكفّل بخلقِ كلّ عوائق الشّياطين المُمكنة عندما تتيقّن من كلّ شيء. لهذا السّبب حذّرني قلبي منها، ودعاني إلى الاستعداد لمُواجهتها.

- دادادا، هل تجدين دولوريس فظيعة؟
- طبعًا لا. إنّها فتاة جميلة جدًّا ومُؤدّبة جدًّا كذلك.
- هل ساقاها شبيهتان بساقي الجرادة؟
- أيّ فكرة هذه؟!
- هل يشبه لون بشرتها الورق الممضوغ؟
- مُطْلَقًا. ما هذه الأسئلة؟
- إنّها الأخرى، «السّمكة»... تقضّي كلّ وقتها في قول أشياء سيّئة عن دولوريس. تقول أيضًا إنّها صلعاء تقريبًا ومليئة بالبثور.
- لا تنتبه إليها أيّها الأحمق. كلّ هذا بسبب الغيرة. إنّ الغيرة إذا لم تقتل صاحبها أعمته. دولوريس تملك بعض البثور فحسب، مثل كلّ الفتيات في سنّها.
- ولكن، هل تجدين أنّها صلعاء؟
- هل تعتقد ذلك؟! صحيح أنّ لها جبهة عريضة. ولكنّ شعرها أشبه بحُلم. وكم من فتاة ترغب بشدّة في أن يكون لها شعر مثله.

أحسستُ بثورة تهتاج في داخلي.

- السّمكة السّمكة! يا للقدّيسة السّمكة! إنّها تقضّي كلّ حياتها في لطم صدرها النّحيل وفي تلاوة الصّلوات وتعديلها. ثمّ حين تتوقّف عن ابتهالاتها، توجّه سُمّها نحو حياة الآخرين. هل تعتقدين يا دادادا أنّها سوف تنجح في الزّواج ذات يوم؟

- سواء تعلّق الأمر بالكفن أم بالزّواج، فإنّه خاضعٌ دومًا لما تقدّره السّماء. من يدري؟

وشرعت دادادا تحاكي صوت أختي:

- لا أريد الزّواج بالدّكتور فلان. فهو ليس جدّيًّا... ولا حتّى الدّكتور المدعوّ بكذا. إنّه روحانيّ... الدّكتور الآخر؟... مُستحيل! هو ليس كاثوليكيًّا. أنا لن أتزوّج إلاّ رجلًا على ديني....

انفجرتُ ضاحكًا.

- إنّك تقلّدينها بشكل مثاليّ، دادادا.

- لقد قضيّتُ وقتًا طويلًا في هذا البيت، سأكونُ غبيّة جدًّا لو لم أصبح عليمة بكلّ ما يُوجد هُنا.

طوت أحَدَ القمصان بعناية. وقالت مُستنتجة:

- أعرف الكثير من النّساء أمثالها. إنّهنّ يتمنّعن، بينما الوقت يمرّ. وعندما يكتشفن أنّهنّ صرن عانسات، يقبلن الزّواج

بأيّ حيوانٍ ذي قدمين مادام من الجنس المذكّر.

ثمّ استأنفت عملها. وأمرتني:

- والآن، عليك أن تختفي وتهتمّ بشؤونك الخاصّة. اذهب للقاء «خطيبتك» أو عمل أيّ شيء. وانتبه! يمكنني أن أشتمّ رائحةَ عاصفةٍ في الهواء. ستجد نفسك في إحدى الأيّام القادمة مُقيمًا في إعداديّة المريميّين.

- الآن؟ مستحيل! الإعداديّة مغلقة. وجميع الإخوة في ريسيفي.

- أو في مكان آخر. لا أعرف شيئًا... كلّ ما أدركه أنّني أفقد أعصابي عندما يُستنفد صبري أثناء العمل.

تأمّلتُ وجه إيزورا الكابوكلو[1].

- ألم ترغبي في الزّواج مُطلقًا يا دادادا؟

- ليس للفقراء وقت للتّفكير في مثل هذه المسائل.

- سمعتُ قريبتك روزا تقول إنّك كنتِ خطيبة لامبياو[2] عندما هجم على موسورو.

لوّحت بالمكواة نحوي. وصرخت مُهدّدة:

- انقشع من هُنا، وإلّا أحرقتُ مؤخّرتك!

فاختفيتُ من المرآب بأقصى سرعةٍ ممكنة.

---

(1) لفظ برازيلي يشير إلى الخلاسيّين الذين يملكون أصولاً أوروبيّة وهنديّة في الآن ذاته.

(2) كنية تعني المصباح. وهي تخصّ فيرغولينو فيريرا دا سيلفا، أحد أشهر وأنجح قادة العصابات وقطّاع الطّرق في البرازيل خلال القرن العشرين.

(6)
النّجمة، السّفينة والحسرة

تبقّت ثلاثةُ أيّام على رحيل دولوريس عندما انفجرت المأساةُ. كنتُ أحصي الأيّام وهي تمرّ بحزنٍ فظيع. ولم أكن أعرف ما إذا كان قلبي قادرًا حقًّا على تحمّل هذا الألم العظيم. انتهزنا كلّ اللّحظات الممكنة لنلتقي، ولكنّ الكلام لم يُسعفنا في كلّ المرّات تقريبًا. كُنّا نمكث صامتيْن، يُواسي كلٌّ منّا الآخر من خلال حُضوره فحسب. في هذه المرّة، بادرتُ أنا بمسكِ يدها ورحتُ أمسّح على أصابعها الطّويلة فترةً بدت لي أبديّة. لماذا الكلام أصلًا؟ لقد كنّا يافعين جدًّا على الشُّروع في خلق مشاريع من أجل المستقبل، وكان صِغر سنّنا يمنعنا من أيّ حلم وأيّ إمكانيّة...

- وماذا إن فررنا معًا؟

اعترضت دولوريس التي كانت أكثر واقعيّة منّي، فقالت:

- الفرار إلى أين؟ لن نستطيع الذّهاب بعيدًا. ستمسك بنا الشّرطة قبل أن نصلَ إلى ولاية بارايبا. لا مهرب لدينا من دون مال، ومن الأفضل أن نترك للزّمن حيّزًا حتّى يَفعل فعله، ثُمّ نلتقي لاحقًا.

- هل سوف تنتظرينني؟

- طيلة حياتي. وأنت؟

- إلى الأبد.

استطعتُ أن ألاحظ خلال تلك الأيّام الأخيرة أنّها هي أيضًا قد أصبحت «خطيبتي» وأنّ مشاعرها صارت مماثلة لمشاعري.

استعملَتْ ظفرها لترسم على الجدار قلبين يخترقهما سهمٌ مُشتعل بالحبّ. لم يكن الرّسم مُتْقَنًا جدًّا، ولطالما اعترفت لي دولوريس بأنّها فاشلة في الرّسم. ولكن ما المشكلة في أن يكون القلبان مُلتويين قليلًا؟ إنّ نواياها العظيمة هي الّتي تهمّ في الحقيقة.

وفجأةً، أخذَت إيزورا تُغنّي أغنيتها ملءَ صوتها. فانزلقت دولوريس عن الجدار. وقفزتُ أرتّب قطع القرميد بينما انخرطت دادادا في محادثة حادّة مع «القدّيسة السّمكة». تسلّقتُ الجدار حتّى أصلَ إلى نافذة المرآب، ومكثتُ هناك أُراقب أختي وهي تبتعدُ مُستاءةً وصَارخة:

- يا للفجور!

شحب وجهي على الفور. هل كشفت أمرنا يا تُرى؟ هل فاجأتنا في لحظة غير لائقة؟

- ماذا هناك يا دادادا؟

كانت دادادا في أوج غضبها فصبّت سعيره عليّ:

- أترى ما أفضى إليه لعبك دور الفتى المدلّل العاشق؟ لقد سمعتُ منها ما لم أسمعه من أحدٍ طيلة حياتي.

- اهدئي يا دادادا. قولي لي ماذا حدث.

سَحبَتْ نفَسًا عميقًا كي تستعيد هُدوءها. وقد صار وجهها المصفرّ أحمر أرجوانيًّا من الغضب.

- لقد لمحتُها، وهي تقترب. فشرعتُ في الغناء بهدوءٍ تامّ حتّى تختفيَا. وحين لاحظتُ أنّها تتّجه مباشرةً نحو النّافذة، غنّيتُ أغنيةً أخرى بصوتٍ أعلى، حتّى أُحوّل وجهة انتباهها.

ثُمّ أعادت إنشاد الأُغنية، فأوشكتُ على الاسترسال في ضحكٍ لا نهاية له:

نام الأب، نامت ماما
نامت الصّغيرة
نامت كلّ العائلة
وأنا أريد النّوم...
دونا شويكوينها
هذا الطّفل يبكي
بطنه ممتلئة
ويريد...

- عندما سمِعَت أُختك نهاية الأغنية، شَتمتني. وقالت إنّي أُغنّي بذاءَات رخيصة في بيتٍ مُحترم. ستسرد كلّ هذا لأبويك حتمًا. والأسوأ أنّها قالت لي إنّني صرتُ أقضّي الآن حياتي كُلّها في المرآب، وإنّ في ذلك شيئًا مّا خبيثًا أُخفيه... شيئًا تغمره الذّنوب.

- ولكن لا عواقب في هذا. إذا روت الحكاية لأبي وأمّي، فسيضحكان على الأرجح. وهذا كلّ ما في الأمر.
- هناك شيء آخر. لديّ انطباع أنّها رأتكما معًا. أُرجّحُ ذلك.
- وماذا لو رأتنا؟ لم نفعل شيئًا غير أخلاقيّ.
ورغم ما قلتُه، لم تلن دادادا ولم تهدأ.
- أعتقدُ أنّني مكثتُ طويلًا في هذا المنزل. وقريبًا سأحزم حقائبي وأرحل.
- ماذا تقولين يا دادادا؟ سيمرّ الأمر بخير.
قُلت لها ثُمّ خرجتُ من المرآب قلِقًا على نحوٍ غامض.

تمدّدتُ في سريري، ورحتُ أحيي المشهد في ذاكرتي. أيّ سوء اقترفناه؟ وأيّ ذنب عظيم يكمن في أن يحبّ المرء؟ وانظر ماذا قالوا لي! قالوا إنّني لا أعرف احترام شرف بنات الجيران، وأشياء أُخرى كثيرة قبيحة... «مُلتصقين أحدكما بالآخر؟ الخدّ على الخدّ؟ أين ذهبت مبادئك الأخلاقيّة؟ وما هذه الفكرة المُتعلّقة بالهرب؟ فكرتكَ خالية من المعنى... ألم تكن ترى ذلك؟ كانوا سيُعلمون الشّرطة، وسيُقبض عليكما بسُرعة فائقة.» ثُمّ أضافوا مُستفهمين: «فيم كنتَ تُفكّر؟ وماذا تعتقد؟ أن تتزوّج وأنت لم تدرك الخامسة عشرة بعد؟ أيّ جنون هائج هذا؟...»

وتساءلتُ كيف أمكنهم أن يستنتجوا كلّ ذلك. فحتّى إيزورا لم تكن تعرف تفاصيل حواراتنا. ولو عرفتها لما أفشت أيّ نتفة منها. يا للبشر المقرفين! أيّ أرواح ضالّة تسكنهم! وما نتيجة كلّ

هذا؟ حسنًا، لم أعد قادرًا على الذّهاب إلى الحديقة إلى أن تغادر الفتاة الشّابّة. سُمح لي بالذّهاب إلى الشّاطئ في المقابل، لأنّني أكون هناك بعيدًا عن الإغواء. وفي الظّهيرة، يجدر بي أن أتنزّه حتّى وقت العشاء. بعد العشاء، لا أضع قدميّ خارج المنزل حتّى من أجل ثلاث خطوات في الميدان. أمّا دولوريس فقد عُوقبت بشدّة، إذ روت لي دادادا أنّها تلقّت بعض الصّفعات، والأسوأ من ذلك هو أنّها ستظلّ مُحتجزةً في غُرفتها حتّى موعد رحيلها، لا تخرج إلّا من أجل الطّعام والحمّام. مُنع خَدم مَنزلَيْنَا من التّحدّث في ما بينهم. وما آلمني أكثر من أيّ شيء آخر هو معرفتي بأنّها صارت مُجبرة على الجُلوس على رُكبتيها حاملةً مقعدًا على رأسها طيلة السّاعتين اللّتين تسبقان النّوم.

كيف تمكّنت إيزورا من معرفة كلّ هذا إذا كانت ممنوعة من الكلام مع خادمة المنزل المجاور؟ إنّه لغز حقًّا.

ما إن أوشِك على إنهاء العشاء حتّى أتوقّف وأتّجه نحو غرفتي، دون أن أعرف شيئًا عمّا يحدث في العالم ودون أن أرغب في الكلام مع أيّ شخص. كنتُ وحيدًا مع آلامي، وعيناي مليئتان بالدّموع، أفكّر في دولوريس وهي تُتمّ في تلك السّاعة عقوبتها. آه، لو كان بإمكاني على الأقلّ أن أتقاسم معها عذاباتها! أن أكون إلى جانبها، حاملًا مقعدًا على رأسي! لم يكن ليزعجني ما إذا كان مقعدًا أو أريكة أو حتّى كلّ الأثاث... ما كان يدفع قلبي إلى الانكسار حقًّا هو عدم قدرتي على رؤيتها ومشاركتها مصيرها، لأنّنا إذا كنّا مذنبين

بخصوص أمر مّا فعلينا أن نكفّر عنه بنفس الطّريقة ونتقاسم معًا عواقب ذنبنا العظيم.

كنتُ أدور في فراغ لا حدّ له، مغمورًا بالعرق والكآبة. وقد تضاءل قلبي كثيرًا، إلى حدٍّ جعله لا يقدر على إيواء ضفدعٍ صغيرٍ.

كُنت بعيدًا جدًّا عن التّفكير في ارتداءِ مئزري ووَضْعِ خنجرِ قَطْعِ الورقِ في حزامي، بل إنّ الرّغبة في أن أعود طرزان من جديد قد هجرتني. كان من الأفضل ترك فكرة طرزان جانبًا. إذ لا بدّ أن يكون محبط العزيمة وساخطًا في مثل هذه السّاعة. ليمكُثْ طرزان إذَن في غابته مع قِرَدَتِه المليئة بالبراغيث!

لم أكن غاضبًا من موريس مُطْلَقًا. ولكنّني لم أرغب في الآن ذاته -ويا للغرابة- في لقائه. لم أرد أن أقصّ عليه حكاية فشلي العظيم. ولعلّ ذلك يحدث للمرّة الأولى.

لم أرَ دولوريس بعد ذلك. كان العقاب الذي سُلّط عليها بلا رحمة. وأعتقد أنّها قد وجّهت ذات ليلة مصباحها في اتّجاه المطبخ، تفكيرًا فيّ، وكأنّها تقول بواسطة ذلك البريق السّريع إنّها تحبّني ولن تنساني مُطلقًا.

لقد انتهى كلّ شيء. مات كلّ شيء. لأيّ شيء يصلح قلبي إذَن؟ ما الفائدة من قول أيّ كلمة؟ لقد رحلت دولوريس. ولم أرها حتّى وهي تصعد إلى السّيّارة التي تقلّها إلى الميناء. تمّ الاحتفاظ بموعد ذهابها واسم السّفينة التي سترحل على متنها كسِرٍّ خطيرٍ لا يجبُ أن يُفشى. وأنا؟ كنتُ هناك وحيدًا مثلما وُلدت، خاويًا من

الدّاخل أنتظر أن تهبّ ريح هائلة على جسدي فتحملني إلى مكان مّا في البحر، حيث ألمح سفينة دولوريس وهي تعبر.

اكتشفتُ من الشّاطئ أنّ المدّ سيرتفع عند السّاعة الثّامنة تقريبًا. وحينئذٍ، تتجاوز سفينة دولوريس الحاجز لتلتحق بالبحر مُتّجهةً نحو الشّمال.

الآن فقط، سُمح لي بالخروج والتّنزّه على الرّصيف وسط أضواء الميدان. وكانوا على علم حتّى بنزولي نحو الشّاطئ، كي أجلس على الجدار وأتأمّل السّفينة وهي تختفي شيئًا فشيئًا.

وهذا ما فعلتهُ حقًّا. فقد ظللتُ جالسًا مع وحدتي، أنتظر السّفينة المضيئة وهي تشقّ مياه ريو بوتنغي. استهزأتُ بالعواقب. وأخرجتُ سيجارةً من جيبي. ورحتُ أنفثُ دخانها في الهواء، وأشعر أنّ جزءًا منّي يُرافق هذا الرّحيل.

وأخذتُ أُغنّي أغنيةً من أجلنا، أنا ودولوريس:

انظر إلى السّماء
إلى ضوء القمر
ترقص النّجوم
من حول القمر
وتنحني النّجوم
على مياه البحر

لم يكن هناك قمر. كانت السّماء سربًا من النّجوم فحسب، نجوم تشكّل ما لا نهاية له من الصّور. وبدت كوكبة السّفينة كأنّها

تريد أن تذكّرني بآلامي. كان نجم الشِّعرى هناك. وكذلك سُهيل. ليسلم الأب الطّيّب الذي علّمني شيئًا عن كيفيّة قراءة السّماء. تابعتُ الغناء بعينين دامعتين:

في سماء حياتي
لمعتِ كنجمة
وفي ليلة جميلة
رحلت إلى الأبد...

هل ستعودين يا دولوريس؟ كان كلّ شيء صعبًا ومُستحيلًا وبعيدًا. وفجأةً، أطلّ النّدم القاتل ليُسمّم ذكرياتي؛ وبرزت صورةُ يديْها بأناملها الطّويلة. في النّهاية، لقد تخلّت عن كلارك غايبل كي تحبّني أنا. أيُوجد دليل أكبر من هذا على حبّها لي؟ لم أكن قادرًا حتّى على مراسلتها. فقد غادرَتْ دون أن تترك لي عنوانها. وإذا بادرت هي بالكتابة لي، فسوف تُعترض رسائلها دون شكّ وتمنع عنّي.

أحيانًا في السّماء الحزينة
أحدّق في القمر
فيشرع في البريق
وينزل القمر
يقول في حنان:
سترجع ذات يوم

حدّقتُ بثباتٍ في مدخل الحاجز. كانت أضواء منازل الصّيّادين الصّغيرة تبرق كأنّها نجوم صغيرة في السّماء. اخترقني فجأةً دويٌّ حادٌّ

حتّى أدرك أعمق نقطة فيّ. أطلقت السّفينة صفيرها عند الحاجز. فوصل إليّ مُهيبًا مع كلّ تلك الأضواء المُنارة. لا بدّ أنّها تصفّر كي تقول وداعًا للرّبّان أو لمياه النّهر.

ارتجفتُ بشدّة، وأنا أتابع تقدّمها اللّامبالي، رغم أنّها كانت تحمل على ظهرها نصف حياتي. ماذا أقول؟ عن أيّ نصف أتحدّث؟ بل إنّها حياتي برمّتها... محنتي كلّها.

استمرّ البخار في التّصاعد مُستقيمًا لفترةٍ من الوقت إلى أن بلغ البحر المرتفع. وحينئذٍ، اتّجه شمالًا. ودولوريس؟ تُرى هل سُمح لها بالوقوف عند الجسر والنّظر إلى المدينة وهي تضيع في الأفق؟ أو النّظر إلى طوق الأنوار في ميدان بيتروبوليس؟ أو التّفكير في ذلك الرّصيف، حيثُ رسمت آلاف المسالك بحذائها ذي العجلات؟

«إنّها دجاجةٌ بساقيْن طويلتيْن، لها وجهٌ من الورق الممضوغ...».

لماذا يوجد أناس سيّئون بهذا الشّكل؟ كان كلّ شيء سينتهي من دون هذا الحزن العظيم... ثلاثة أيّام فقط هي كلّ ما تبقّى أمامنا. فهل كان من الضّروريّ أن نتعرّض لكلّ هذا الأذى فجأةً؟

اختفت السّفينة بين نجوم البحر. فغرقت عيناي هذه المرّة في الدّموع. بكيتُ بحرقةٍ على يأسي وهجراني، بكيتُ لأنّني كنتُ يافعًا جدًّا وهشًّا إلى أبعد حدّ، ولم أجد أيّ شيء أقوم به حيال ذلك سوى البكاء.

وينزل القمر
يقول في حنان:

لم أدفع نفسي إلى الأوهام. فدولوريس لن تعود أبدًا. لقد أكّد لي قلبي هذه الحقيقة. وفي المكان الذي خلّفته السّفينة، امتدّ اللّيلُ المظلم المرصّع بالنّجوم فوق البحر الأسود الأخرس. كان نجم الشّعرى سيّد السّماء. وكذلك سهيل. والقمر؟ لم يكن هناك قمر أصلًا، بل ندم لا حدود له. ولو كان هناك قمرٌ فعلًا، لما قال لي هذا. لماذا سيكلّمني بحنان؟ أوه! الحنان... إنّه شيء قلّما اعترضني في حياتي.

(7)
الرّحيل

تزامنت بداية سنتي الخامسة في الإعداديّة مع بلوغي الخامسة عشرة. وفي مثل هذه السّنّ، كنتُ أشعر تقريبًا بأنّني رجل. فلقد امتلكتُ حرّيّةَ أن أخرج ليلًا حتّى السّاعة التّاسعة، أن أمكث على الشّاطئ قدر ما أشاء، أن أمسك بفخرٍ سيجارةً بين أصابعي المراهقة اليافعة، أن أتلقّى ما هو ضروريّ لحلاقة لحيتي الأولى، أن أتحدّث بقوّةٍ كي أبيّن حدّة صوتي وجهوريّته، أن أرتاد قاعات البلياردو وألعب مقابلة في السّاعة التي يجدر بي فيها أن أكون في قاعة الدّرس، وأن أغازل دون مبالاة فتيات الإعداديّة الكاثوليكيّة... إجمالًا، انفتحت أمامي أبواب عالم هائل لم يكن مُرضيًا لفضولي فحسبُ، وإنّما لرغبتي في إثبات ذاتي كذلك.

دولوريس؟ آه! دولوريس؟ كم كان ذلك جميلًا جدًّا وانتهى! ولكنّ المهمّ الآن هو أن أرتاد حصص السّينما يوم الأربعاء، حصص الشّباب التي تتدفّق فيها أجمل نساء العالم. كنّا نذهب جميعًا إلى هناك من أجل غزواتنا، وبحثًا عن تجارب حسّيّة ورومنسيّة جديدة. ومثل الآخرين، أذهب اقتفاءً لحركة الموضة. كانت أحسن خطّة يتّبعها المرء تتمثّل في الوقوف عند باب السّينما بسيجارةٍ بين الشّفتين،

والابتسام بشكلٍ غير مبالٍ لبنات الإعداديّة اللّواتي يأتين برفقة عمّةٍ عانس أو أُمٍّ لا دَور لها في قاعة السّينما غيرَ مُراقبة الحركات والأنفاس.

ومع كلّ ما يحدث معي، بدأت نتائجي الدّراسيّة تتراخى بعض الشّيء. تراجعتُ عن المركز الأوّل. وحافظتُ بصعوبة شديدة على المركز الثّاني.

تغيّرت عناوين الكتب التي أطالعها. وقد استمرّ كاسكودينيو في إعارة الكتب لأبي. ودون أن يبدو عليه أيّ شيء، راح يسمح لي بانتقاء كتبي وفق متعتي الذّاتيّة. وبهذا الشّكل عرفتُ وحشًا عجيبًا اسمه دوستويفسكي. وحلّت المسائل الكبيرة الجدّيّة محلّ مغامرات أبطالي الأعزّاء، أمثال طرزان والرّجل الأسد.

أصبحت الرّياضة شغفًا ثانويًّا بالنّسبة إليّ، بكُلّ ما فيها من سباحة وتمرّن على مسافات هائلة، وشُعورٍ بجسدي الذي ينزلق خفيفًا وبقوّة ذراعيّ اللّتيْن لا تتعبان مُطلقًا، فضلًا عن حُصولي على جسد برونزيّ طيلة السّنة، وتلذّذي بالهواء، واستراحتي على الشّواطئ البيضاء في زيّ سباحة صغير.

وفي اللّيل، تتشكّل الحلقة للقاء الفتيات الجميلات. ولكن، كلّ ذلك يحدث في كنف البراءة. كان فايول يُراقبني من بعيد. فهو يظلّ حامل أسراري كُلّها. ومع ذلك، فإنّ شيئًا مّا ما فتئ يقلقه عليّ كثيرًا. وهو عدم مبالاتي إزاء مُستقبلي. لقد اختار تارسيسيو سلفًا اتّجاهه نحو المحاماة. مثلما شكّل كلّ أصدقائي ورفاقي الآخرين

مشاريعهم. أمّا أنا، فلا حياة لمن تنادي.

- ولا حتّى الطّبّ يا شوش؟

- وماذا أيضًا!

- لِمَ لا؟ ستقتفي آنذاك خطوات أبيك.

حكّ رأسه قليلًا. وأردف:

- فكّرتُ في المحاماة كذلك. سوف تبقى مع تارسيسيو حينئذٍ. وهو صديقك المقرّب منك.

- سوف يكون ذلك جيّدًا.

- وما رأيك في المسيرة العسكريّة؟ سوف يُلائمك الزّيّ النّظاميّ كثيرًا.

تخيّلتُ نفسي في صورة ضابط بحريّة. ولكن، كيف أحصّل الحماس من أجل ذلك. آه، لو كانت السّباحة قادرة على أن تشكّل مهنة! ولكن، حتّى السّباحة لم تعد تثير حماسي كثيرًا. ما كنتُ أريده حقًّا هو الذّهاب، الذّهاب بعيدًا دون التّفكير في أيّ شيء ودون الالتزام بشيء، كما لو كانت الحياةُ تَعاقُبَ قطاراتٍ وطُرقٍ وسُفنٍ لا يوقفها أيّ شيء. لم أعرف كيف أشرح رغبتي تلك وما كان يحدث بداخلي... رغبة الذّهاب من بعيد إلى ما هو أبعد، ولكن إلى حدود مسافة لا رجعة بعدها قَطُّ... إنّه الذّهابُ قدمًا حتّى بُلوغ النّهاية...

ومرّت الحياة. مرّت بسرعةٍ لم أشعر بها. إنّها تتقدّم بلا توقّف.

وبهذا الشّكل أخذتُ أكتشفُ أمرًا لطالما حدّثني عنه موريس

قائلًا إنّه سوف يحدث معي. بدأتُ أصبح صديقًا لأبي وأحبّ المنزل. وشرعتُ أفكّر في صعوبةِ تربيةِ طفلٍ، خصوصًا إذا لم يكن ابنك، وإذا كان عديمَ النّضج وذا ريبةٍ مُقلقة. ورغم ذلك، كان الجدار الذي بنيتُه بيننا ما يزال قائمًا.

ومع مرور الأيّام، ظلّت هذه الأفكار المزعجة تراودني من حينٍ إلى آخر. لقد مرّت نصفُ السّنة تقريبًا. وقريبًا تحين سلسلةُ الامتحانات الثّالثة، ومن بعدها الرّابعة والأخيرة. وسوف أتحصّل حينئذٍ على شهادتي وأتخرّج من الإعداديّة. يجدر بي أن أثبت جدارتي بالجهود التي بُذلت من أجلي. يا للخوف! إنّه خوف لا تُهدّئ من حدّته عشرات العلاجيم الكورورو. ما إن تنتهي الامتحانات حتّى يحين موعد رحيلي، وينبغي عليّ العودة إلى ريو. ولكن، كيف ستكون حياتي مع إخوتي؟ لقد تباعدنا إلى حدٍّ مّا. فكيف سيستقبلونني بعد عودتي؟ بفرح دون شكّ... أحسستُ بأنّني شخصٌ مختلف عن السّابق، ولَدٌ تلقّى تربيةً وتعليمًا متقدّمَيْن، ولَدٌ يحمل حقائبَ مليئةً بالملابس الأنيقة والأحذية الجميلة، ولَدٌ بأسنانٍ نظيفة مُعالَجة بعناية. أمّا هُم، فحياة المصانع، الرّحلات المرهقة في القطارات ذهابًا للعمل في المدينة، الاستيقاظ فجرًا والعودة ليلًا، تعاقب المطر والحرارة في تلك القطارات التي تكون مشتعلة أحيانًا ومتجمّدة أحيانًا أخرى، المكوث دون غداء في أحايين كثيرة لأنّ الأطعمة تصير حامضة ويفسد طعمها في الأوعية، فقدانهم الحظَّ في الحياة أو حصولهم على نصيب قليل جدًّا منه لتفويتهم الدّراسة المتقدّمة والتّكوين الجيّد... سيتجلّى لي كلّ هذا دفعةً واحدة لحظةَ نزولي في

ريو. إنّه عالم قاس وعدوانيّ كذاك الذي عرفْتُه أيّام شجرتي، شجرة البرتقال الرّائعة. شعرتُ بالعرق البارد يتصبّب على جبهتي وأنا أفكّر في كلّ هذا، وأحاول أن أُطمئن نفسي. سأتدبّر أمري. نعم، سأتدبّر أمري كي لا أرى جوانب الحياة السّلبيّة وكي أتأقلم مع أيّ محيط أعيش فيه. والأسوأ على الإطلاق سيكون عند اكتشافهم أنّني لم أرد أن أصبح أيّ شيء، أو على الأقلّ لم أجد بعدُ طريقي في الحياة. يا لخيبتهم العظيمة! كان بإمكان أحد إخوتي الآخرين أن يغتنم هذه الفرصة التي قُدّمت لي بشكلٍ أفضل، الفرصة التي بذّرتُها دون مبالاة. من الأفضل أن أنسى. عليّ أن أنسى وأسبح، أسبح بقوّةٍ وأشقّ البحر حتّى أمزّقه إلى قطعٍ صغيرة، أسبح دُون هوادة كأنّ السّباحة طريقة أُخرى للمشي.

كنتُ أحبّ مشاهدة تارسيسيو، وهو يلعب كرة القدم. لقد كان يحتلّ مركز الوسط الأماميّ في الفريق الأوّل. ويلعب بمهارةٍ مدهشة. يوقف كلّ الكرات بلا استثناء. إنّه صدع عظيم في حركة الخصم. والكرة تبدو كأنّها منجذبة بطبيعتها إلى قدميه. تارسيسيو، صديق عظيم. يملك دومًا تلك الهيئة الغارقة في الهدوء. ولا يحبّ الكلام إلّا معي، فضلًا عن كونه يتفهّم بصبرٍ هائلٍ كلّ حركات الجنون التي تصدر عنّي بشكلٍ مُباغتٍ، كأنّها قد هَجمت عليّ من خارج جسدي. ولكنّه ينظر إلى مهنة المحاماة بمثاليّة مزعجة. وأنا؟ كان قلبي يقول لي في غياب مُواساة علجومي الكورورو: «وأنت، يا زيزا؟ هيّا، يكفيك حماقات. يجب أن يلوح لك شيء مّا في الأفق، من غير المُمكن أن تظلّ هكذا، لنُسافر ونترقّب في انتظار حُدوث

الأمر.» ثمّ يَسألني قلبي مُجدّدًا: «ولكن يا زيزا، هل يُمكننا أن ننتظر ونُسافر في الآن نفسه؟». فأُجيبه بـ«نعم»، فأنا لا أملك أيّ حلٍّ آخر.

كنتُ في غرفتي، ممدّدًا على سريري أحمل كتاب حساب المثلّثات وجدول اللوغاريتم. لم أكن أعمل حقًّا، وإنّما أراوح على التّفكير في عدم الجدوى من دراسة بعض الموادّ. ففيمَ ستفيدني مُستقبلًا قواعد التّحوّل والانحراف في الإعراب اللاّتينيّ؟ ولماذا يتسبّب المرء لنفسه بعُسرٍ في الهضم بسبب هذه اللوغاريتمات الكريهة التي لن تفيدني في أيِّ مهنةٍ أزاولها عندما أكبر؟ أليس من الغباء البهيميّ أن يكسر رأسي صراخُ الأخ جوزيه بتلك الجذور التّربيعيّة؟

كنتُ مستغرقًا في هذه الأفكار حتّى إنّني لم أسمع الباب وهو ينفتح، ولم ألمح الطّيف الذي عبره ووقف أمامي، قائلًا:

- صغيري!

شعرتُ بخوفٍ هائلٍ جعلني أُسقط الكتاب أرضًا. فضحك موريس.

- ماذا هناك؟ كأنّك شاهدت شبحًا.

ظللتُ صامتًا، أرتجف دون إجابة. فلقد تعوّدت منذ زمنٍ بعيدٍ على اعتبار موريس واحدًا من أجمل أحلام حياتي الطّفوليّة القديمة، خزينة سرّيّة تتضمّن حناني المتراكم.

- انهض يا صغيري!

استجبتُ ببطء.

- استدر.

طقطق موريس أصابعه معلّقًا:

- يا إلهي! كم كبرتَ يا فتى! كم صرتَ قويًّا يا صغيري! صار لونُك برونزيًّا تمامًا.

كنتُ مشدوهًا، أحدّق في عينيه مباشرةً، دون أن أعرف حقًّا ما إذا كنتُ أضحك أم أبكي، ولعلّي أضحك وأبكي في الآن نفسه.

- هل نسيت شيئًا مّا يا صغيري؟

لم أنس دون شكّ. كلماته تلك تهتزّ في أذنيّ إلى الآن: «ينبغي عليك أن تُقبّلني مثلَ أب، حتّى عندما تكبر وتصير رجلًا.»

ولِمَ لا؟ أليس هو من هدهدني في عزلة غرفتي؟ ألم يواسني دومًا؟ ألم يسهر على راحتي ونومي؟

فتح ذراعيه.

- ماذا تنتظر؟

- لا شيء.

رميتُ بنفسي بين ذراعيه. ورحتُ أُقبّله. ثمّ حضنتُه بقُوّةٍ شديدة.

- آه يا موريس! لقد مرّ وقتٌ طويلٌ على لقائنا الأخير.

نظر في عينيّ مباشرةً. ثمّ قرّر أن يجلس.

- وقتٌ طويل. أليس كذلك يا موريس؟

- نعم، هذا صحيح. ولكنّني كنتُ مشغولًا جدًّا بعقودٍ كثيرة وكازينوهات وأفلام وعروض لا تحصى. ولم يكن لديّ أيّ دقيقة فراغ. وبما أنّني عرفتُ شيئًا...

- ماذا عرفت؟

- أنّك بصدد النّضج واكتشاف الحياة بمفردك، وأنّك لم تعد تشتاق إليّ كثيرًا... أليس هذا صحيحًا؟

- ربّما، ربّما ذلك صحيح. أقصدُ أنّ أيّامي صارت مُزدحمة بالمشاغل في الآونة الأخيرة. وللأسف، كلّما حان وقت النّوم أشعر بإعياءٍ شديد، وما إن أضع رأسي على الوسادة حتّى أغرق في النّوم مباشرةً.

- أعرف ذلك. والآن، حدّثني عن كلّ شيء.

- عمّ أحدّثك؟

- حسنًا، لدينا الكثير لنقوله. بالنّسبة إلى حياتي، فلا شيء تغيّر فيها؟ كيف حال حياتك إذَن؟

- لا أعرف من أين أبدأ. أعترف أنّني فقدتُ عادةَ مجالستك عزيزي موريس.

- سأساعدك إذَن. كيف حالك في هذا البيت؟

- بألف خير. أتعرف؟ بدأت أكتشف أشياء جديدة، أشياء كانت كفيلة بإقناعي ألّا عدوّ لي في هذا المنزل مُطْلَقًا.

- ألم أقل لك ذلك؟

- وأبي أظهر اهتمامًا بي لم ألاحظه فيه من قبل.

- ربّما لم تمنحه الفرصة ليفعل ذلك من قبل.

- يمكنني حتّى أن أعترف لك بأمر.

- قل.
- إنّهما مثاليّان وطيّبان جدًّا. وقد كانت تربيتي مُهمّةً عسيرةً وشاقّةً بالنّسبة إليهما. والحقيقة أنّني أنا الذي لا يصلح لأيّ شيء.
- أتّفق معك في الشّطر الأوّل فحسب. أمّا في الثّاني، فـ«لا». فأنا أثق فيك وفي طيبة قلبك. عندما يملك المرء القدرة على أن يحلم بأشياء جميلة جدًّا كالتي تحلم بها، فإنّه لن يحيا إلّا حياةً رائعة. هل تتذكّر آدم؟
- طبعًا يا موريس. لقد كان حقيقيًّا جدًّا، حتّى إنّني أملك انطباعًا بأنّني مازلتُ أراه إلى الآن.
- إنّ هذا يفرحني يا صغيري، فهُو يُؤكّد لي أنّك ستظلّ طفلًا كبيرًا طوال حياتكَ.
- تقول نفس كلمات فايول.
- وكيف حاله هو؟
- لا يتغيّر، الشّخص ذاته دومًا. لم يوجّه لي ولو كلمة حزم واحدة. وكعادته، ينتظر منّي الأفضل باستمرار.

غرق موريس في مقعده.

- أتعرف؟ تعبتُ جدًّا هذا اليوم. ولكنّني لم أستطع تفويت لقائك... اليوم على وجه الخصوص.
- ولِمَ اليوم تحديدًا؟

- سأُنبئك بذلك بعد حين.

تأمّل السّقف طويلًا. ثمّ بحثت عيناه الفاتحتان عن عينيّ. إيه! لطالما أحببت التّحدّث إلى النّاس الذين لا يحوّلون وجهةَ بصرهم عنّي. يُشعرني ذلك بالأمان والثّقة إلى أبعد حدّ.

- وكيف حال قلبك، يا صغيري؟

- لقد اكتشفتُ يا موريس... اكتشفتُ ما أخبرتني به منذ زمنٍ بعيد. اكتشفتُ أنّ الحبّ هو الشّيء الأهمّ في العالم.

- أنا سعيد، سعيد بك جدًّا يا صغيري، لأنّك سوف تكون في الحياة رجلًا، رجلًا حقيقيًّا. ولهذا السّبب، قلتُ لك منذ حين إنّ هذا اليوم مميّزٌ عندي.

وفجأةً، وثب قلبي في مكانه حزنًا. أيكون ما أفكّر فيه؟

- بالضّبط يا صغيري. قلتُ لك مرّةً إنّك لن تحتاج إليّ بعد أن تكتشف الحبّ.

- أتريد القول إنّك ستهجرني مثلما فعل آدم؟

- ستكتشفُ أنّني سأفعل ذلك بنفس الطّريقة.

تنهّدتُ. ثُمّ قُلت:

- ولكنّ آدم كان علجومًا، أي حلمًا.

- وأنا؟ ألستُ الشّيء ذاته؟

- كيف ذلك؟ الشّيء ذاته؟ إنّني قادرٌ على لمسك ورؤيتك، وبالتّالي قادرٌ على إدراك أنّك حقيقيّ...

ولأثبت له ذلك، ضغطتُ بقوّةٍ على يده.

- يا صغيري، هكذا هي الحياة. النّاس يرحلون دومًا. لا أقصد أنّ القلب ينسى والحنين يزول. وإنّما الأشياء تدوم في رقّتنا وحناننا. أمّا بالنّسبة إلى البشر، فإنّ لديهم ميقاتًا يرحلون فيه.

امتلأت عينايَ بالدّموع.

- لا تفعل هذا يا صغيري.

وفي غمرة انفعالي، سحب موريس من جيبه منديلًا ذا مربّعات بيضاء وسوداء. يا إلهي! هو أيضًا!

مسح وجهي بعناية.

- لا أريد الذّهاب أمام دموعك هذه.

حاولتُ أن أتمالك نفسي، مُبتلعًا مشاعري شيئًا فشيئًا.

- كان دوري أن أُنشِئ في قلبك عالمًا من الآمال، وعلى رأسها الحبّ. والآن يا صغيري، حان وقتُ رحيلي.

احتضنني طويلًا بين ذراعيه. ثمّ مدّ لي خدّه كي أُقبّله.

- ألن نلتقي بعد الآن مُطلقًا يا موريس؟

- بلى حتمًا... ذات يوم، حين نصير أكبر سنًّا.

وللمرّة الأخيرة، حدّق مُباشرةً في عينيّ بكلّ ما يُخزّنُ داخِله من صدق.

- هناك شيء آخر. عندما نلتقي مستقبلًا وفي أيّ مكانٍ ممكن،

حتّى إذا صرت رجلًا كامل الرّجولة، لا تنسَ ما وعدتني به.

وفهمتُ قصده على الفور. إنّه يُشير إلى ضرورة أن أُقبّله قبلة ابن لأبيه، دُون تردّدٍ أو خجل.

- هل تعدني؟

- أعدك بذلك.

- إذَن، وداعًا يا صغيري.

- وداعًا موريس.

بحّ صوتي، وغمرتني الدّموع إلى حَدٍّ جعلَني أعجزُ عن رُؤية ما يُوجد أمامي.

أيقظني فجأةً صوتُ ارتطام الكتب بالأرض. كنتُ وحيدًا، مستلقيًا على سريري، وجسدي مخدَّرٌ تمامًا. أحرقتني عيناي الرّطبتان إزاء ضوء المصباح.

وهكذا رحل موريس من حياتي، بنفس الطّريقة التي انتهجها آدم. قدم إليّ في حلم. ثمّ رحل في حلمٍ آخر. لماذا ينبغي على كلّ شيء أن يرحل في الحياة؟ لأنّ الولادة، وبكلّ بساطة يا زيزا، تعني الرّحيل، الرّحيل منذ السّاعة الأولى، منذ أوّل نفَسٍ نستنشقه. ولا يمكنك، مع ذلك، أن تقاوم حقيقة الحياة القاسية.

انفتح بابُ غرفتي بلطفٍ. فوثبتُ من جديد. هل عاد موريس لأنّه نسي أن يقول لي شيئًا مّا؟ ولكنّ وجه أبي الأسمر لاح أمامي.

وراح يتأمّلني في قلق:

- هل أنت مريض؟ لقد لاحظتُ الأنوارَ في غرفتك.

- أنا بخير. لقد انغمستُ في الدّراسة حتّى ساعةٍ مُتأخّرة.

- حان وقت التّوقّف إذَن. فالسّاعة تجاوزت الواحدة فجرًا.

حدّق فيّ بانتباهٍ شديد.

- عيناك محمرّتان جدًّا ومتغضّنتان. اذهب إلى الحمّام. وستجد في الخزانة محلول غسيل العين.

- حسنًا، سأضع بعض القطرات.

ابتسم لي.

- اذهب إلى النّوم. طابت ليلتك.

غريب! إنّها المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى غرفتي ليتَمنّى لي ليلةً سعيدة. وقد أشرقَتْ، بفضل هذه الحركة، شمسُ اعتراف صغيرة في داخلي.

(8)
الرّحلة

كان كلّ شيء يتقدّم بسُرعةٍ مُدوّخة. في رمشة عين، وجدتُني قد أنهيتُ امتحانات سَنتِي الخامسة في الإعداديّة. اجتزتُها محافظًا على المرتبة الثّانية، ومنفصلًا عن المرتبة الأولى التي عهدتُها في السّنوات التي سبقت.

وفي رمشة عين أخرى، كنتُ عند الخيّاط أجرّب بذلة الكشمير الزّرقاء الخاصّة بحفل تسلّم الشّهائد. لقد هُزمتُ على نحوٍ مُخجل عندما تمّ انتخاب تلميذ آخر من دفعتي لإلقاء خطاب التّخرّج. فقد تحصّلتُ على صوتين فحسبُ، أحدهما صوتي أنا. يا للفشل الفظيع!

تُقام مراسم الحفل في الثّالث والعشرين من سبتمبر، في مسرح كارلوس غوميز. فهي تمثّل حدثًا رسميًّا في ناتال، يحضر فيه الحاكم رافائيل فرنانديز. بعبارة أخرى، يتعلّق الأمر بحفلةٍ كبيرة، يُكرّر فيها الأخ لويز عرض مسرحيّةٍ مليئةٍ بالهنود المزدانين بالرّيش. وكان كلّ شيء يسير على نحوٍ مثاليّ إلى أن انطلقت «الموسيقى» فجأةً أثناء العرض. لقد اندلعت ثورة[1] 1935 ... ألعاب ناريّة حقيقيّة. كان المسرح، حيث يُوجد الحاكم، مُستهدفًا. احتدمت نيران الرّشّاشات

(1) إشارة إلى التمرّد العسكري الشيوعي الذي وقع في البرازيل سنة 1935.

على جدران المبنى. وتفرّق الجمع في فزعٍ كأنّهم جمهورُ حشراتٍ مجنونة. وماذا عن الشّهائد؟ والحفل؟ والمسرحيّة؟ لقد ذهب «انتصار الصّليب» مع الرّيح. انطلق التّلاميذ الجالسون في صفٍّ واحدٍ على الرّكح في فرارٍ جماعيّ. وكذلك ركَض الإخوة، وهم يطلبون من الجميع الهدوء والمحافظة على النّظام. كان هنودٌ بريشاتٍ على رؤوسهم يصطدمون بموظّفي المسرح المُرتطمين بدورهم بالفتيان المتخرّجين الذين ينحني آباؤهم وأمّهاتهم في الحجرات، مُلوّحين لهم كي ينزلوا من الرّكح. كان ذلك أكثر شيء طريفٍ رأته عيناي إلى يومنا هذا.

اختفى الحاكم كما لو كان ذلك بفعل مُعجزة. وأخذ الثّوريّون يُقاتلون في تراجع. فضلًا عن أنّهم ذهبوا للبحث عن أبي لكي يُسعف المصابين. إذ لم يكن بإمكانهم أن يعرفوا أنّه هو الآخر موجودٌ في مراسم الحفل، داخل المسرح.

كان الرّصاص يُمطر ليلًا. وقد تخرّبت ثكنة الشّرطة العسكريّة. لجأنا إلى منزلٍ قريبٍ من المسرح. ولم يتجرّأ أحدٌ بعد ذلك على وضع أنفه خارج البيت. كانت أيّامًا خمسة في منزلٍ مُحصّن، وأنا أرتدي البذلة الزّرقاء الغبيّة التي تُشعلني حرارةً في ذلك المكان المغلق كلّيًّا.

ثمّ جاء الوقتُ الذي أُعلمنا فيه بأنّ الثّوّار قد هربوا داخل البلاد. تلقّيت الأمر بالخروج عبر الشّوارع الأكثر أمانًا. أرادوا أن يعرفوا ما آل إليه منزلنا. وجدتُ ذلك مثاليًّا، لأنّني لم أعد أحتمل المكوث جاثمًا في ذلك المكان الذي أنقذ حياتنا.

لاحظتُ عند وصولنا إلى منزلنا أنّ قُفلًا قد كُسر بالإضافة إلى زجاج الشّرفة. ولاحظتُ أيضًا أنّ اليوم كان رائعًا ذا شمسٍ لا تُقاوم. فلم أتردّد ولو للحظةٍ واحدة. ارتديتُ زيَّ السّباحة. واتّجهتُ نحو الشّاطئ. عليّ أن أتخلّص من حرارة هذه الأيّام المشبعة بالبخار والمقلقة بالنّسبة إلى الجميع. نعم، أردتُ السّباحة. فالمدّ كان مُرتفعًا ورغبتي في القفز على الأمواج العالية مُتّقدة. كان البحر كلّه ملكًا لي. إذ لا وجود لأيّ روح حيّة هناك بخلافي أنا. نسيتُ كلّ شيء. واكتفيتُ بحاجتي إلى الاستمتاع بمياه هذا البحر العاصف الذي سأهجره قريبًا. أطلقتُ العنان لنفسي. ورحتُ أسبحُ بحُرّيّةٍ متقدّمًا في البحر وعائدًا نحو الشّاطئ على تلك الأمواج الهائلة.

ذعرتُ عندما عدتُ إلى الواقع فجأةً. كانت الشّمسُ فوقي تمامًا، تُشير إلى اقتراب منتصف النّهار. وجب عليّ أن أركض إذَن، أن أصعد الطّريق لاهثًا والمنشفة تحتكّ بجسدي. ومن ثمّ وجب عليَّ أن أركض بأقصى سُرعتي حتّى أصل إلى المنزل، لأنّ التراموای لم يكن يعمل. وصلتُ بعد ما يفوق السّاعة، وعندما اكتشفوا أنّني ما أزال حيًّا وأنّني لم أصب ولوْ بخدشٍ واحد... عندما اكتشفوا شعري المشوّش ووجهي البرونزيّ من أثر الشّمس، انهار العالم كلّه. لقد كان مَشهدًا فَظيعًا، حتّى إنّني كدتُ أندم على عدم إصابتي بطلق ناريّ في الطّريق.

ثمّ استعادت المدينة إيقاعَها الهادئ المعتاد. إذ لا مجال للاستعجال في مدينة مثل ناتال، ومهما كان السّبب. ولعلّ الاستثناء

الوحيد يتعلّق بأيّام سباق القوارب الشّراعيّة. ودون شكّ، راح النّاس يتوقّفون أكثر من قبل ليتكلّموا في ما بينهم عمّا حدث وعمّا لم يحدث. هناك أناس ماتوا. ولذلك اتّسمت المحادثات بالحزن. ولكن، لا يمكن للأمر أن يكون مختلفًا. فثورةٌ من دون موتى ليست ثورةً حقيقيّة.

ثمّ مرّ كلّ شيء. ولم يبق في هيكل المدينة سوى الأمارات التي دُمغت على الجدران والمنازل المخرّبة وبعض الصّلبان الجديدة في المقبرة. ملأ ضجيج الترامواي الضّخم الشّوارع من جديد. صار النّاس يغيّرون عند اللّقاء موضوعَ الحديث بسرعة. فقد أصبحت المسألة حكايةً قديمة.

ها إنّي أوجّه الآن خطاي نحو الإعداديّة. ينبغي عليّ أن أرى فايول قبل أن يذهب إلى المعتكف السّنويّ في ريسيفي.

اكتسبت هذه الخطوات دلالةً جديدة مُفعمة بثقل المسؤوليّات الجديدة المقبلة. فمسار حياتي بصدد التّغيّر كليًّا. سيحدث تحوّلٌ كبير خلال الأيّام القادمة. وذاك ما كان يملؤني قلقًا وخوفًا. حسنًا، لِمَ لا أعترف بذلك صراحةً؟

كانت عيناي تتأمّلان المشهد بنظرة وداع، كأنّني أرغب في حفظ كلّ شيء داخلي من أجل تذكّره لاحقًا. كنتُ أمشي على تلك الكرات الحجريّة التي لطالما اكتسبتُ متعةً هائلة في سحقها تحت قدميّ. ولكنّني أمشي الآن في حزن. وهناك، عند قمّة جرس الكاتدرائيّة ترتجفُ الأعلام الصّغيرة في الرّيح لتشكّل علامةً تقرؤها السّفن.

ومن ثمّ، كان طريق الإعداديّة وبعده رصيف الكنيسة، حيث ركضتُ ذات يومٍ مرتديًا سروال نوم فحسب، حانة السّيّد آرتور، حيثُ أثبتنا فحولتنا باقتناء بعض السّجائر أو تجرّع مشروب الباتيدا على مضض. لمحتُ النّافذة التي تفتح على فصل سنتي الثّالثة. وبدا لي أنّ النّافذة المغلقة تُطلق نحوي نقيق الدّجاجة، وهي تلاحظ مزاجي. يا لجرس الكنيسة الأبيض المهجور! إنّ موسى هناك في الأعلى، ميّت تمامًا ومُسنٌّ وحزينٌ إلى أبعد حدّ. موسى الذي لا يرنّ مُطلقًا في اللّيل كي لا يوقظ النّاس الغارقين في هدوء اللّيالي الدّافئة. وها إنّي ألمح مدرج المدخل، حيث التقطنا صورتنا الأولى في الإعداديّة، وكذلك الباب ذا النّوابض والمكتب وفايوول...

- خشيتُ ألّا أجدكَ هُنا.

- ولهذا السّبب اتّصلتُ بمنزلك كي أعلمك برَحيلي.

جلسنا معًا مثلما اعتدنا في الأيّام الخوالي. كانت كلُّ حياتي الطّفوليّة جالسةً هناك، قبالة فايول. وعرفتُ أنّنا نُفكّر في نفس الشّيء. لقد كبرتُ، ولكنّ فايول كبر أيضًا، إذ لمحت أنّ تاجَ الشّعر الأحمر الّذي يحيط بفروة رأسه يتضمّن بعضَ الخصلات الفضّيّة. ولم نعرف كيف نكسر الصّمت حقًّا.

- إذَن، شوش؟

تنهّدتُ بحُزنٍ قبل أن أُجيبه:

- إنّنَا نُعدّ الوثائق من أجلي. وفي أقلّ من أسبوعين، سأغادر نحو جنوب إيتاهيتي.

ظلّ فايول جالسًا على كرسيّه، ولكنّه تحرّك قليلًا بتوتّر واضطراب. وشحُب قليلًا، وهو أمرٌ صعب الحدوث مع وجهه المليء بالدّماء.

- إذَن، أُفضّل القيام بأمرٍ مّا.

تأخّر في استئناف كلامه. ثُمّ أردف:

- سأطلب الإذن للالتحاق مُتأخّرًا بالمعتكف. لن أغادر الآن. أريد أن أكون حاضرًا عندما تستقلّ السّفينة. وأريد أن أرى كلّ شيء يا شوش.

في الحقيقة، كانت الحياةُ قاسيةً جدًّا. وكان من المُستحسنِ أن نتجنّبَ بعض اللّحظات الّتي لا تزيدنا إلّا ثقلًا وإرهاقًا. تظاهر فايول بالارتياح، وواصل كلامه:

- لقد بدأتْ حياتُك بشكلٍ مُعقّدٍ جدًّا.

كان يلمّح لمراسم حفل التّخرّج. فضحكتُ بلا حماس.

تأمّلني فايول طويلًا، ناظرًا في عينيّ مثلما يفعل دومًا كلّما رغب في الحصول على اعتراف دُون أن يطرح عليّ أيّ سُؤال.

- أصدقني القول يا شوش.

- نعم.

- لم تقرّر بعد أيّ شيء. أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي في ألم.

- لا أعرف. لا أعرف حقًّا يا فايول.

- إذَن، ما قلته لأبيك لا يعني شيئًا.

- نعم. ولكن، وجب عليّ أن أخترع أيّ شيء كي لا أخيّب ظنّ عائلتي فيّ.

- ألا ترغبُ حتّى في أن تكون طيّارًا؟

- لا. والأمر فظيعٌ، لأنّهم شرعوا سلفًا في إعداد رسائل موجّهة إلى المدرسة العسكريّة في ريلينغو. ولكنّني لا أريد أن أطير. لم أرغب في ذلك إلّا في أحلامي.

مكثنا صامتيْن لوهلةٍ. لكنّني كسرتُ الصّمت قائلًا:

- لا شكّ أنّني لا أنفع لأيّ شيء يا فايول. والمشكلة أنّ لديّ عائلة يجب أن أُساعدها. هناك شيء مّا لا أُريد أن أُخفيه عنك. لطالمَا وددتُ الرّحيل من هُنا. ولطالما قرضتُ أظافري لهفةً على قدوم هذا اليوم. وها إنّني الآن أشعر بالخوف. إضافةً إلى كوني نادمًا لأنّي لم أحاول أن أكون إنسانًا أفضل، ولأنّي بقيتُ أتصرّف مثل وحشيٍّ صغيرٍ سيّء الطّبع، لا يقبل أيّ شيء ويرفض أيّ اتّصال بالآخرين، ولم يعرف ولو بأقلّ نصيبٍ ممكن من الإرادة الحسنة أن يكون جديرًا بما وُهب من قبل الآخرين. لم أكن أرى من حولي إلّا الأعداء. وظللتُ أعتقدُ أنّ كلّ ما يفعله الآخرون لي مليء بالشّرّ والغباء. والآن...

- لا يا شوش. هذا ليس صحيحًا. قلبك طيّب. وسوف تجد طريقك في الحياة. هل يجدر بي أن أقسم بصحّتي وحبّات

مسبحتي من أجل ذلك؟ لقد كنتَ طفلًا عسيرَ الطّبع فحسب. ولكنّني أعرف أنّك سوف تتجاوز كلّ العقبات. وسوف تعثر على ذاتك في النّهاية. لم يضع الرّبّ كلّ هذا الخيال في رأسك دُون هدفٍ أو غاية أو من أجل أن تبذّره فحسب. ألَا تُوافقني؟

منحتني عيناه الطّيّبتان الواثقتان جُرعةً صغيرةً من الأمل. فمن دونه، كيف كانت لتبدو عزلة سنواتي تلك؟ لم يكن قادرًا في المقابل على أن يكون بالنّسبة إليّ الأب الذي حلمتُ به. فقد تنكّر من قبل لكلّ ملذّات الحياة والتزاماتها.

- لقد كبرتَ كثيرًا يا شوش. وأظنّك الأكبر حجمًا من بين جميع زملائك. إنّك قويّ وأكثر صلابةً يومًا بعد آخر. وسوف يُساعدك هذا كثيرًا في الحياة.

- لقد كبرتُ لأنّك أقنعتني بإجراء عمليّة اللّوزتين. أنت وموريس.

ابتسمتُ، وأنَا أُومئ برأسي. فحاول فايول أن يُحاكي ابتسامتي.

- وكيف حاله؟

لعبنَا مُجدّدًا لعبة الحُلم.

- لقد رحل موريس. رحل بعد أن أنجز كلّ ما وعد به... يوم اكتشفت الحبّ...

- ومن ثمّ؟

- سوف نلتقي ذات يوم. لقد كانت كلماته الأخيرة تطلب منّي أن أقبّله مثلما يفعل الابن، مهما كانت سِنّي حين أراه مجدّدًا.

لماذا يُوفّر الحلم بهذه الأشياء الجميلة كُلّ هذه الرّاحة؟

- سوف تراسلني يا شوش. أليس كذلك؟

- كُلّما أتيح لي ذلك.

- إذا واجهت الكثير من المشاكل المادّيّة... كلّ شيء ممكن الحدوث. ربّما أستطيع مُساعدتك قليلًا، من حينٍ إلى آخر.

أمسكتُ يده كي أشكره.

- شكرًا فايول. ولكن إذا شاء الرّبّ، لن يكون ذلك ضروريًّا.

نهضتُ، وأنا أستجمع شجاعتي وأحثُّ قلبي: «هيّا... إنّ الحياة تنتظرنَا!»

احتضنني بين ذراعيه. ولم يقل أيّ شيء تقريبًا. ثمّ اكتفى برسم الصّليب على صدري.

- اذهب في سلام يا شوش. أَحِبّ وكُنْ سعيدًا.

تتلخّص أيّامي الأخيرة في أشياء قليلة. كُنت أذهب إلى الشّاطئ باستمرار، وبعد ذلك، خلال الظّهيرة، أخرج ما إن أنتهي من تناول الغداء، فأظلّ أتسكّع في الشّوارع، متأمّلًا المشاهد من حولي.

أردتُ أن أرسّخ كلّ مكان في ذاكرتي. وخلال مُناسبتيْن مختلفتيْن، توقّفتُ قرب كنيسة المسبحة لأتأمّل نهري العزيز، نهر ريو بوتنغي. سوف يمكث هناك شطرٌ وافرٌ من حياتي؛ النّهر الذي

يتّسع في الأفق البعيد مُدركًا الحاجز، السّفن الشّراعيّة التي تحمل النّاس إلى شاطئ ريدينها وتعود بهم من هناك، الضّفاف المليئة بالخضرة التي يُدركها المدّ المرتفع ومزهريّة السّلطعونات تلك التي تبدو عند انخفاضه. وفي كلا المرّتين، شعرتُ بعينيّ تبتلاّن من الدّموع.

كان قد تبقّى يومان على ذهابي عندما حدث أمر محزن. طلبت إيزورا حسابها، بعد شجارٍ حادٍّ على نحو غير مسبوق. ورحلت. لقد حزمت دادادا هي الأخرى حقائبها. فكنتُ حزينًا لأنّني لم أستطع توديعها. يا لدادادا الشّرسة! إنّها تشتعل بأسرع ما يمكن. لكنّها حَنونٌ ورقيقة في داخلها مثل الزّبدة.

ليلةَ رحيلي، عندما جُهّزت حقائبي، ودّعتُ الحديقة، كلّ أشجار الكاجو، شجرة المانغو حيث قمتُ بمُراقبة دونا سيفروبا والتّجسّس على حياتها والأرجوحة المهجورة التي هرمت حبالها. ستهلك قريبًا وتُلقى. إنّها أرجوحة بلا غد. وسوف تحمل معها إلى النّسيان كلّ أحلامي بالهرب مع السيرك والتّنقّل في شتّى أنحاء العالم، عارضًا كلّ خفّة كالدو ودقّته، الرّجل الأقوى في العالم... لا، ليس أقوى رجل في العالم. بل هو أحد أقوى الرّجال في العالم.

قمتُ بزيارة قنّ الدّجاج، حيث اعتدتُ أن أُخبّئ الثّمار التي أسرقها من الجيران كي آكلها لاحقًا في عتمة اللّيل. ضحكتُ بحزن، فهناك تحديدًا كان كهفُ وينيتو ذات يوم.

ثمّ حان وقتُ الانتظار بعد ذلك، انتظار قدوم اللّيل وانطلاق

الجولة الكئيبة على الرّصيف الذي كان من قبلُ مملكة دولوريس، أجلسُ على حافّة الميدان وأتأمّل الشّاطئ مُضاءً بشكلٍ خافت، هناك في البعيد، وقرب تلك الأضواء المرتجفة، يصطدم البحر بالصّخور السّوداء المليئة بالمحار. لقد لعبتُ على هذه الصّخور، وركضتُ متحسّسًا المواضع الثّابتة التي يمكنني أن أطأها بقدمي، دون أن أتسبّب في شطر جسدي نصفين. كنتُ أغوصُ قفزًا من تلك الصّخور، مُتسبّبًا في ذعر السّبّاحين عندما يكون المدّ مرتفعًا. ومن ذلك الشّاطئ، كنتُ أقطع رفقة صديقين، آرماندو فيانا وسيرالدو، المسافة التي توصل إلى آريا بريتا. وذلك ما كان يرعب سكّان الشّاطئ. أذكر الفزع الذي يحدثه في نفوسنا صوت الصّيّادين، وهم يهتفون: «أيّها الصّغار! انتبهوا! احذروا سمك القرش!». وفيمَ كان يهمّنا ذلك؟ كان كلّ واحد منّا يعتقد أنّ الوحش إذا ظهر سينقضّ على جاره أوّلًا. إنّها خمس عشرة سنة والكثير من الطّاقة والحماس! خمس عشرة سنة والكثير من الكسل الذي يمنع من السّير إلى آريا بريتا على الأقدام... كم كيلومترًا من المياه والأمواج العنيدة كانت تلك المسافة؟ من يدري؟ ولكنّها كانت طويلةً على نحو شيطانيّ. هُناك، نستلقي فنستريح على الشّاطئ الأبيض الدّافئ. ثمّ نعود من نفس الطّريق لاحقًا. كان المشي على الأقدام على امتداد كلّ تلك المسافة أخرق ومزعجًا بالنّسبة إلينَا.

بعد ذلك، ينبغي النّوم نَوم الطُّفولة الأخير وانتظار ساعة الصُّعود إلى السّفينة. وهو صُعودٌ مُختلف عن الأوّل، عندما كنتُ قادمًا من الجنوب. ظللتُ ساعتها مريضًا طيلة الرّحلة. ولم يكن

الأمر يتحسّن إلّا عند وقوف السّفينة في الموانئ. كم كنتُ طفلًا صغيرًا سقيمًا عند قدومي. وها إنّي أرحل الآن فتى قويًّا، ولكنّني أموت خوفًا في الحقيقة.

وصلنا إلى السّطح، حيث تُهيمن رائحة السّفينة في كلّ مكان. حان وقت البحث عن الحجرة. أبي يقول لي:

- الأمرُ بسيط بعد ذلك. اعتمد الدّرج نقطةَ توجيهٍ لك.

ذهبنا لنرى كيف حال قاعة الطّعام. كان الجوّ حارًّا هناك.

- عندمَا يندفع البُخار، يصير الأمر مدهشًا. ويُوشك الجوّ أن يصير باردًا.

حدث كلّ شيء بنسقٍ سريعٍ.

- والآن، فلنذهب لنأخذ مَشروبًا مُنعشًا.

شربنا على مهلٍ.

- تعال! إنّ الجرس يرنّ تنبيهًا للزّوّار.

ركضنا نحو الدّرج الذي يفضي إلى الجسر. ووجب عليّ أن أنزل منه عَدْوًا، لأنّ فايول وصل متأخّرًا. وقد صار لون بشرته أكثر احمرارًا من العادة بسبب الرّكض. وظلّ يروّح عن نفسه بقبّعته السّوداء الكبيرة.

أطلقت السّفينة صفيرها الأوّل. فارتجف قلبي خوفًا. لم يكن هناك أيّ شخص قادر على أن يقول لي مثلما يفعل آدم: «اهدأ يا زيزا! سيمرّ كُلّ شيء بخير...».

ودّعتُ الجميع. وعانقتُ فايول بشدّة، وهو يرتعش. أردتُه أن يكون آخِرَ من أُفارق. صعدتُ إلى الجسر. وقلبي يُمَوِّج ركبتيّ.

انطلق صفيرٌ آخر. ولاح أمامي الرّصيف ممتلئًا بأناس يُلوّحون بعلامات الوداع. سُحب الجسر عن الرّصيف. وفُكّت الحبال. وكان الرّبّان في مكانه جاهزًا للانطلاق. ثمّ أخذت السّفينة تبتعد.

التصقتُ بإحدى الزّوايا لأُلقي عليهم تحيّة الوداع. كيف يُمكنني أن أبكي؟ لم أستطع حتّى البكاء. لو أنّني قفزتُ حينئذٍ، لأَمكنني أن أدرك الأرض بسلام. ورغم ذلك، وَجب عليّ أن أرحل كي أكتشف العالم الذي ينفتح أمام عينيّ البريئتين.

لم تقطع السّفينة مائة متر حتّى لوّح لي أبي مُودّعًا للمرّة الأخيرة، كان يمسح عرقَ وجهه بواسطة منديله بينما يحضن العائلة بذراعيه، وقد بدا لي أنَّ سبب وداعه المُتعجّل يعود إلى إحساسه بالبقاء لفترةٍ أطول ممّا ينبغي.

كان الرّصيف يفرغ شيئًا فشيئًا مع تقدّم السّفينة في المياه واتّجاهها نحو قناة النّهر الكبيرة.

وعندما صار فارغًا تمامًا، لمحتُ طيفًا أسْوَدَ مازال يُودّعني هناك. إنّه طيف يُروّح عن نفسه بقُبّعته السّوداء الكبيرة ويُجفّف العرق عن جبهته بمنديله ذي المربّعات الذي كان يرافقني في لحظات حزني كلّها. ثمّ تحوّل إلى نقطة صغيرة تائهة في ظلال الرّافعات الكبيرة. لا شكّ أنّه سيظلّ مُلتصقًا بالرّصيف حتّى تتجاوز السّفينة الحاجز. كان ذلك إذَن هو المرأى الأخير المنقوش في صُور النّدم التي أحتفظ

بها في داخلي.

مكثتُ هناك كذلك، عاجزًا عن رؤية أيّ تفصيل. لا بدّ أنّه يغادر الآن على مهل. يضع قُبّعته الكبيرة على رأسه، باحثًا عن ابتسامة إذعان. ويَذهب لانتظار التَرامواي الأصفر الذي سيعود به إلى مركز المدينة وبنايات الإعداديّة القديمة.

ما إن تجاوزت السّفينة الحاجز، حتّى صارت تتحرّك بحُريّةٍ وأطلقت صفيرًا أخيرًا. ابتعدت المدينة أكثر. ولاح ميدان بيتروبوليس كأنّه لعبة طفل. ها هي الكاتدرائيّة بجرسها الضّخم، كنيسة إعداديّتي الملقّبة بكنيسة القدّيس أنطونيو، برج جرسها المدوّر حيث الدّيك ينتظر وميض برق لم يأت مُطلقًا، وجرسها المدعوّ موسى، الصّامت، الجامد والأخرس. لقد تبيّن في النّهاية أنّ مُوسى أكثر حكمةً من أن ينجز هذا القرع المُسترسل الذي لطالما تاقت إليه سذاجةُ طفولتي الأولى.

(9)
عُلجومي الكورورو

كنتُ جالسًا إلى طاولة الحانة في متحف الفنّ الحديث، أشرب الويسكي على مهل، ساهِمًا غائبًا عن المُحاورة التي تحيط بي، لأنّ النّاس والفنّانين يجتمعون هُنا دومًا ليثرثروا بطلاقة، ويتحدّثوا عن أشياء لا نتائج لها ولا أهمّيّة. إنّها عادةٌ من عادات سكّان مدينة ساو باولو، أخذت تكبر بطريقةٍ مُرعبةٍ وفوضويّة، وتتمثّل بكلّ بساطةٍ في تجمّعهم لإنهاء المساء ونسيان النّهار وأشغاله ومتاعبه المعتادة والمتعاقبة والمتراكمة.

فجأةً، حطّت يدان على كتفيّ. ولمست قبلةٌ خدّي. ثمّ عاتبني صوتٌ ودودٌ قائلًا:

- إلى أين ذهبت؟ أتُحاول الاختباء؟

لقد كانت ماريا، ابنة المحافظ آرودابيريرا. سحبتُ كرسيًّا لكي تجلس. فقدم النّادل على الفور. وطلبتْ هي كأسها المُفضّل من الويسكي. ثمّ نظرت في عينيّ مباشرةً. وابتسمت.

- إذَن؟ هل أنت بصدد الكتابة؟

- كالعادة.

نزعت قفّازيها. ورمتهما دون مبالاة على الطّاولة.

- إنّك غير قادر على التّوقّف.

- ولهذا السّبب تحديدًا، لا أتوقّف.

وبعد أن استعْلَمت عن مُستجدّات الحلقة المُجتمعة، أعلنت:

- أتعرف ما سأفعله عندَ السّاعة التّاسعة؟ إنّني أُراهن على عدمِ قُدرتك على التّخمين.

- يكفي من التّشويق. هيّا، قُولي لي.

- إنّني ذاهبة إلى راديو توبي.

ضحك الجميع. فقد اعتادت ماريا أن تنشر اختراعاتها هذه.

- هل أصبحتِ عمودًا من أعمدة قاعة المحاضرات والعروض؟

- مُطْلَقًا. سأحضر عرض موريس شوفالييه الأخير في ساو باولو. إنّه عرض استثنائيّ.

لقد نطقَتْ اسم موريس «شوفالييه» كأنّ كلّ حرف من حروفه قد كان مُغلّظًا في فمها، فراحت تلك الحُروف تُدوّي في قلبي. مرّ وقتٌ طويل منذ آخر مرّة شعرت فيها بمثل هذا القلق والارتباك. لم يلاحظ أحدٌ شيئًا. لكنّني أخذتُ أصغرُ شيئًا فشيئًا حتّى رأيتُني من جديد طفلًا يثرثر معه. بحقّ الجحيم، كيف أقتفي هذا الطّريق إلى الوراء وأنا المسافر دومًا إلى الآفاق البعيدة؟! ابتلعتُ كأسًا آخر من الويسكي. ولم ينتبه أحدٌ إلى يدي المُرتعشة بشدّة.

- يبدو أنّه عرضٌ مدهش.

- ولذلك أنا ذاهبة لمشاهدته. لقد فوّتُّه في المسرح. ولكنّني أستفيد الآن من هذه الفُرصة في الرّاديو. هل تأتي معي يا زي؟ مازال لديّ حجزٌ لمقعدٍ آخر.

- كيف؟

وثبتُ من مقعدي دون وعيٍ واحمرّ وجهي تمامًا.

ضحكت ماريا.

- ليس هناك أيّ داعٍ للخوف. يستطيع الجميع حُضور عُروض في الإذاعة. ولهذا السّبب تُقام قاعات العرض هُناك.

- ليس هذا ما قصدتُه... بل...

- اسمع. لن تقول لي إنّ لديك التزامات هذه اللّيلة.

أخذتُ أحكّ رأسي في حيرة.

- هل تأتي؟

لم أستطع مقاومة دعوتها. لكنّ قلبي بدا كأنّه يتوسّلني ألّا أذهب معها.

- إنّه أمر لا يُصدّق أنّك لا تحبّ شوفالييه. ألم تشاهد أفلامه من قبل؟

- بلى. شاهدتُ الكثير منها.

- ولم تعجبك؟

- بل أعجبتني أكثر ممّا يمكنك أن تتخيّلي.

- إذن؟ ما الأمر؟

شعرتُ بروحي مُضطهَدةً حين وافقتُ على دعوتها.

في الحقيقة، لم تكن حصّة العرض مليئة بالجمهور بشكلٍ كُلّيّ. تمّ تقديم عرض فنّانين برازيليّين في البداية. وكانت هناك سمراء ذات شعر أسودَ مموّج، جميلة جدًّا، تُغنّي أغنية سامبا.

- من تكون؟

- هيبي كامارغو[1].

- إنّها جيّدة جدًّا. أليس كذلك؟

كان صوتي يُلهبُ حنجرتي. ورغبتُ حينئذٍ في قول شيء آخر يكسر انتظاري وقلقي، ولكن، دون جدوى.

عندما تمّ التّصريح باسمه، آلمني قلبي... أقصدُ آلمني حقًّا. كذّابون أولئك الذين يقولون إنّ القلب لا يمكنه أن يُؤلم صاحبه. خفتُ أن أنظر إلى جسدي فأجدني في منامتي المُخطّطة من جديد. حجبتُ يديّ عن بصري كي لا أراهما وهُما تتقلّصان وتَنكمشان.

سمعتُ تصفيقًا قويًّا. لكنّني رفضتُ أن أشارك الآخرين حماسهم. ووحده الرّبّ كان يشاركني حُزني الفظيع الذي يجتاح صدري. إنّه موريس فعلًا... تمامًا مثلما كان في أحلامي الطّفوليّة، أو لعلّه أكبر حجمًا بقليل وأكثر شيبًا على صدغيْه. إنّها نفس الابتسامة المعدية! السّحر ذاته! والأناقة ذاتها! لماذا جئتُ إلى هنا؟ لماذا قبلتُ مُواجهة هذا السّحر القديم؟

عندما انتهى العرضُ، استرسل الجمهور في التّصفيق طويلًا حتّى إنّه اضطرّ إلى غناء أُغنيتين إضافيّتين. ثُمّ ألقى التّحيّة. وانسحب.

---

(1) ممثّلة ومُذيعة ومغنّية برازيليّة (1929-2012) من مواليد ساو باولو.

نهض الجميع. واتّجهوا نحو المخرج، بينما ظلّت ساقاي ترتجفان. لم أجد القُوّة الكافية لكي أقف. أمسكت ماريا بيدي. فقالت:

- هل تأتي معنَا؟

- اُنْظروا يا أصدقاء! عينا زي مُمتلئتان بالدّموع!

تمالكتُ نفسي. ووقفتُ في حرجٍ وارتباك.

- هل أثّر فيك العرضُ إلى هذه الدّرجة؟

- لا أعرف السّبب حقًّا. ولكنّه أثّر فيَّ كثيرًا.

- إذَن، سيزدادُ تأثّرك الآن، لأنّه ينبغي علينا أن نذهب لتهنئته.

- لن أذهب معكم.

- لا. لا تقل هذا.

لم تُفلت يدي. وراحت تسحبني كأنّني رضيع.

عبَرْنَا ممرّاتٍ عديدةً حتّى وصلنا أمام مقصورته. فطُلب منّا الانتظار قليلًا. ولم يستغرق انفتاح الباب وقتًا طويلًا. إنّه هو، موريس، أكبر حجمًا... نعم، هو بنفس العينين الفاتحتين. ولم تسمح الإضاءة في مقصورته بتمييز ما إذا كانتا زرقاوين أم كستنائيّتين فاتحتين جدًّا. كان شعره قد ابيضّ كثيرًا. وعلى وجهه المورّد ما يُشبه النّدبة. بدا عليه التّعب الشّديد. ولكنّه حافظ على تلك الابتسامة التي أضاءت حياتي من قبل.

قامت السّيّدات بتهنئته أوّلًا. ثمّ مددتُ يدي المُتجمّدة نحو يده، كُنت نصفَ ميّت، وفي لحظةٍ عدتُ طفلًا من جديد.

- مساء الخير سيّد شوفالييه.

ولم أعرف كيف نجح صوتي في الخروج من حنجرتي.

- سُعدتُ بلقائك سيّدي.

حاولتُ على نحوٍ ساذج أن أترك يدي في يده. ورحتُ أحدّق في عينيه مباشرة، مُنتظرًا أن يفتح فمه فينادِيني مثلما كان يفعل سابقًا، قائلًا يا صغيري. لكنّه أطلق يدي. وابتسم في وجهي مثل أيّ شخص آخر. إنّ هذا الرّجل لا يعرف أنّه كان من قبل «أبي».

خرجتُ مستعجلًا من المقصورة كي أمسح عينيّ الرّطبتين.

في آخر المطاف يا عزيزي آدم. كيف كُنت تقول لي في تلك الأيّام؟ آه، نعم... «هيّا نوقظ الشّمس». هذا هُو ما ينبغي أن يحدث... ينبغي أن نُوقظ الشّمس.

قالت لي ماريا بلُطف:

- أيّ رجل غريب أنت؟! أتحضر عرضًا مرحًا جدًّا لتخرج منه مكتئبًا؟

حاولتُ البحث عن مهرب:

- لا علاقة للعرض بذلك. فقد كنتُ مكتئبًا من البداية. ولكن، لا تقلقي. سأتمشّى قليلًا. وتمرّ السّحابة.

- في هذا الضّباب؟

- أحبّ هذا. فقد صار من النّادر اليوم رؤية الضّباب مع كلّ هذه البنايات التي تثقب سماء ساو باولو. يجدر بي أن أغتنم

الفرصة إذَن.

توقّف الجمع ليسمح لي بالنّزول من السّيّارة. فقبّلتُ ماريا.

- هل تهاتفني؟

- حسنًا. إلى اللّقاء.

اختفت السّيّارة. وأخذتُ أمشي في الشّارع. كان كلّ شيء قد تحوّل في المدينة. اختفت المساكن التّقليديّة الجميلة التي هُدمت لتظهر في مكانها ناطحات السّحاب، وقد تكفّلت هي بدورها بتشتيت آخر نتفٍ من الضّباب.

كانت الأرصفةُ شبهَ فارغةٍ. وهو أمرٌ جيّد أَتاح لي أن أُحدّث نفسي في خيبتي تلك، وأن أحاور ألمي الصّغير.

- هكذا إذَن يا آدم! كم مرّت من السّنوات الآن؟

لم أكن في حاجة إلى إغماض عينيّ كي أرى آدم، وهو يحمل حقيبته ويرحل بعيدًا جدًّا، نحو بلاد النّدم. هل كنتَ سعيدًا يا آدم؟ ولكن، ماذا يعني أن يكون المرء سعيدًا؟ من يعرف ذلك حقًّا؟ إنّ السّعادة مثل الزّمن. كلاهما يظلّ جامدًا، بينما يمرّ النّاس عابرين. إنّهم يعبرون ويعبرون بلا هوادة. لقد أردتَ ليلةً مليئةً بالنّجوم يا آدم. ورغبتَ في النّوم على قرص القمر المنعكس على النّهر. أمّا ليلتي، فلا شيء فيها على الإطلاق. أليس كذلك؟ لا شيء سوى هذا الضّباب الخفيف الذي يخز الأنف ويلبّد الشّعر.

من يدري ما إذا كنتَ قد عثرت على علجومة في مثل سنّك؟ ذات جدائل شقراء وقُبّعة بيضاء على الرّأس؟

مشيتُ وحيدًا على الرّصيف. وفجأةً، وثب قلبي في مكانه عند سماعي وَقْعَ خطواتٍ. كانت خطوات نادرة تمرّ مستعجلة من قربي. من يدري؟ لعلّه موريس سيظهر أمامي، ويمسكني من ذراعي قائلًا: «أتعرفُ يا صغيري، لم يكن بإمكاني أن أتعرّف عليك أمام الآخرين...».

إنّها مجرّد حماقات. أليس كذلك يا آدم؟ نحن رجلان بلا أحلام، هو في شيخوخته وأنا مع سنواتي التي توشك أن تدرك الأربعين. أيّ حماقة هذه! إنّه موريس نفسه من قال لي سوف يرحل عندما أكتشف الحبّ. ما هو الحبّ يا آدم؟ الحبّ... الكثير من الحبّ يعبر من أمامي... حبّ باولا التي تشيخُ دون أن تتقبّله...

- فلنمشِ قليلًا يا زيزا.

إنّني أحدّث نفسي فحسب. فأنت أيضًا أعلنتَ رحيلك عنّي إلى الأبد. ولم يعد بإمكاني أن أراك إلّا في لحظات الحسرة والحنين. ومع ذلك، أعرف أنّك لن تغضب إذا ما حاولتُ الثّرثرة معك في عزلتي.

- مساء الخير، سيّد شوفالييه.

- سعدتُ بلقائك سيّدي.

لقد عدتُ طفلًا من جديد، طفلًا يحلم... طفلًا وحيدًا. ولماذا أكبر؟ لا أريد أن أكبر، ولم أرغب في ذلك مُطلقًا. لكنّ الزّمن توقّف، فيما عبرتُ بمفردي. في الحقيقة، لا أحد يمكنه أن يعرف قدرة الآخرين على الألم وحجم مُعاناتهم. وحده قلبنا يستطيع ذلك. ولكن، ما الفائدة؟

أدركني صوتٌ مّا من حيث لا أعلم، مُحاولًا أن يُهدّئ من روعي:

– شوش... شوش...

– آه! أعرف من تكون. بول لويس فايول.

مرّرتُ يدي على وجهي حتّى لا أرى من جديدٍ صورةَ الطّيف وهي تختفي، سوداء تمامًا في رداء الكهنوت ذاك، تلوّح لي بالوداع حاملةً منديلًا ذا مُربّعات. ثمّ ابتعدت السّفينة مُدركةً الحاجز ومُندمجةً في عرض البحر.

ولكن، ليست السّفينة هي التي تُصفّر يا آدم. إنّني أصغر سنًّا. وأسمع صفير قطار... القطار الذي اغتال عزيزي البرتغاليّ... ذاك الذي قطع أوهام شجرتي شجرة البرتقال. عندما كبرتُ، صعدتُ مرارًا إلى هذا القطار يا آدم. ولا أحد استطاع أن يعرف أنّ عجلاته ظلّت تمضع حزني وغياب الغائبين. لم أقصّ حكايتي السّرّيّة على إخوتي. ولن أفعل أبدًا. عليّ أن أبتلعها مع يأسي.

– شوش...شوش...

لقد سافرتُ منذ فترةٍ وجيزة يا آدم إلى الشّمال. ذهبتُ إلى ناتال لزيارة عائلتي. ومن هناك، كتبتُ رسالة إلى فايول. فأجابني بأربعة أسطر فحسب، قائلًا إنّه مريض جدًّا في فورتاليزا. لم أتردّد يا آدم. قمتُ بسفرة فظيعة في حافلة سياحيّة. وجدته أحمر كعادته. لكنّ شعره فقد ذلك اللّون النّاريّ وصار أبيض تقريبًا. كان يتكلّم بصعوبة، لاهثًا ومنقطع الأنفاس. أتعرف كيف صار حاله يا

آدم؟ لقد صار شبيهًا بشمعة تُوشك أن تنتهي، شمعة لهبها خافتٌ يَتأرجح بسببِ أبسطِ هبّة ريحٍ.

– ما أقصر رسالتك يا فايول!

– آه يا شوش! ليتكَ تعرف كم أرهقتني كتابتُها!

ظلّ يحدّق فيّ. ورأيتُ في عينيه أنّني لم أكبر. وإنّما بقيتُ شوش ذاته طيلة الوقت. ولماذا لا أترك له هذا الوهم دون أن أبدّده؟

سأتلقّى يا آدم، خلال أحد الأيّام المقبلة، خبر رحيله. ومازلتُ حتّى اليوم، في مثل سنّي هذه، أعتقدُ جازمًا أنّه سيطير إلى السّماء بجناحيه الملائكيّين. سيصير ملاكًا يخفق جناحاه كالعصافير أو الفراشات.

ما الفائدة من كلّ هذا يا آدم؟ أتسمعني؟ تكلّم يا آدم. علّمني مجدّدًا أن أوقظ الشّمس، أن أقبل الاستمرار والتّقدّم والعبور. من الصّعب أن يتقدّم المرء ويوقظ الشّمس. أليس كذلك يا آدم؟

أرجوك. أطلب منك هذا للمرّة الأخيرة. فأجبني! كيف يستطيع الكبار أن يوقظوا الشّمس؟ هذه المرّة فحسب.

وبما أنّني لم أسمع أيّ إجابة، رحتُ أصفّر. ثمّ أخذتُ أغنّي للضّباب:

علجوم كورورو

عند ضفّة النّهر.

حين يُغنّي العلجوم

يا فتاة،

يقول إنّه يشعر بالبرد...

حسنًا يا آدم. لقد حسمتُ أمري. الأشخاص الكبار لا يجيدون إيقاظ الشّمس. ولذلك، قد تجعل رحمة الرّبّ غدًا، الشّمسَ تشرق، من تلقاء ذاتها، تمامًا مثلما فعلت طيلة الأبديّة الجامدة.

لا يهمّ. سأتابع الغناء من أجلي، لأنّني، ولحسن الحظّ، مازلتُ أعرفُ ما الذي تعنيه كلمة حسرة:

علجوم كورورو

عند ضفّة النّهر

حين يُغنّي العلجوم

يا فتاة،

يقول إنّه يشعر بالبرد...

يقول إنّه يشعر بالبرد...

يقول إنّه يشعر بالبرد...

يقول إنّه يشعر بالبرد...



الفهرس

الجزء الأوّل

أنا وموريس

الجزء الثّاني

ساعة الشّيطان

الجزء الثّالث

علجومي الكورورو

صدَر مؤخَرًا للمؤلَف نفسه
عن دار مسكيلياني

روزينها زورقي الصغير

المؤلَف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: صلاح بن عيّاد

«رُوزينْهَا زورقي الصّغير»، قصّةُ غاباتِ الأمازون بأدقّ دقائقها. يرويها جوزيه ماورو، صاحب «شجرتي، شجرة البرتقال الرّائعة» بحرارةِ من تاه في تلك الغابات لحمًا ودمًا وذاكرة. يشقّ البطلُ زي أوروكو النّهرَ على متن زورقه الصّغير، رُوزِينْها. وليست رُوزِينْها كأيّ زورق، إنّها رفيقة درب ومعلّمة تلقّن زي أوروكو ما لامست من دروس منذ أن كانت بذرةً، فشجرةً، فخشبًا يصير زورقًا. وهي رَاوِيَةٌ أيضًا، تُطْلِع صديقها زي أوروكو على قصصٍ ساحرة تتيح للقارئ أن يلمس روح الغابة بكلّ مكوّناتها. الغابة والنّهر، كون روائيّ فريد، سحريّ وموقّع بالأمطار والفيضان والشّمس.

نضحك مع هذه الرّواية ونبكي، نعيش ونحلم. نتوه في كون طفوليّ عجيب، حيثُ يجانب البؤسُ الغرائبيَّ وتؤاخي النّعومةُ القسوةَ ويغدو كلّ عنصرٍ موضوعًا للتساؤل ومادّةً للقصّ...

صلاح بن عيّاد

يصدر قريبًا للمؤلّف نفسه
عن دار مسكيلياني

الجزء الثالث من ثلاثيّة زيزا

المختول

المؤلّف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل

«زيزا» مرة أخرى، «زيزا» المرتبط بشجرة البرتقال الذي لا يمكن نسيانه و قد بلغ سن المراهقة وهو يعبرها بفرح وتوهج، محمّلًا في الآن ذاته ببعض الإحباطات. يصف هذا الكتاب تلك المرحلة الرائعة من الحياة، وهو، على الأرجح، أكثر أعمال جوزيه ماورو تعلّقًا بسيرته الذاتيّة، وهو أمرٌ يقرّه الكاتبُ نفسُه قائلًا: «من بين كلّ كتبي، هذا الكتاب أكثرها قربًا منّي...».

حوارات حيّة، أحاسيس متدفّقة، شعريّة عالية، مزايا يؤكد عليها المؤلف في صفحات هذا العمل الفريد.

جوزيه ماورو

هيّا نوقظ الشمس

زيزا، طفلُ السّادسة المصابُ بحنانٍ طافح يسيل من الأشياء البسيطة من حوله، المطلّ على عالم الكبار بأحلامه التي تشرق من شجرة برتقاله الرّائعة، المربك لقواعدهم، الباحث فيها عن يدٍ حانية وإن كانت وهمًا يرتعش على صفحةِ نهرٍ وحيد، ها هو يُبعَد الآن عن عائلته وقد صار في الحادية عشرة، مُفرَدًا، مُصابًا بالحنين، مرتّبَ الهندام، نظيفًا وباردًا من الوحدة، مشدودًا مثل وترٍ بين المدرسة الإعداديّة ودروس البيانو. أيّ ثقلٍ يُمكن أن يزنه عالم كهذا على كتفيْ طفلٍ ينزلق إلى المراهقة محمّلًا بذكريات الشّوارع المغبرّة والأزقّة والدفء الحارق الذي يحوّم حيث يسكن الفقر؟ كيف يشعر هذا الفتى، وقد صار يسكنُ بيت عائلة جديدة ثريّة، تحوَّل فيها من شيطانٍ أزرق إلى ملاك مطيع؟ هل يظلّ على ذلك النّحو، وقد صار قلبُه الجديد يكلّمه من داخله ويضيء عزلته بشعلة الأحلام ذاتها، ويخوض معه معاركه الصّغيرة، وصولا إلى لسعة الحبّ الأولى؟

أشرف القرقني


ISBN 978-9938-24-148-8

